

لشيخ الاسلام الإمام تقي الدين أحمد بن تيمية

المتوفى سنة ٧٢٨ هـ

جمع مادة الكتاب وأجرى الحوار العلمي مع الإمام

الدكتور عجيل جاسم النشمي


بسم الله الرحمن الرحيم

طب القلوب

لابن تيمية

١٤١١هـ - ١٩٩٠م



دار الدعوة للنشر والتوزيع
ص.ب : ٦٦٥٢٠ بيان - 43756 الكويت
ت : ٥٣٩٦٩٤٠

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

إن الحمدلله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾[1] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾[2] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾[3].

أما بعد فإن الناس اليوم قد غلبت أنفسهم ماديات الحياة الدنيا وزخرفها وتزينت الدنيا لهم بأبهى مظاهر الزينة، وأظهرت من مفاتنها ما أغرى النفوس والقلوب، فتهافتت عليها من كل ناحية وصوب، لاهثة راغبة في مكسب خلب من مظاهرها الزائفة ومفاتنها البراقة الموهمة، حتى تربعت الدنيا على القلوب واستولت على سويدائها.

---

(١) سورة ال عمران اية ١٠٢

(٢) سورة النساء آية ١.

(٣) سورة الأحزاب آية ٧٠

وكان تمادي الناس في ذلك إما لغيبة الديـن الإسلامي الحافظ في بلاد كالغـرب، وإمـا لضعف أهـل الإسلام وتسلط الآخرين على بلادهم ورقابهم، والحيلولة بينهم وبين هدى الإسلام كما في بلاد الشرق عامة.

وقد عاد هذا الأمر الخطير على واقع القلوب بالهزيمة والضعف وسرت في أوصاله أمراض ما كان لها أن تجد لها مسربا إلى صرحه لو كان الإيمان سلاحـه، واليقين برده وأمنه.

وهذا عاد بدوره على واقع الناس في مجتمعاتهم سواء في تعاملهم أو في مناهج حياتهم الفكرية والثقافية والعلمية، أو مناشطهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والـدولية، ونخص في هذا أهل ملة الإسلام الذي ابتلى منهم من ابتلى بهذا الداء العضال، ونكبت مجتمعاتهم بآثاره المدمرة، فاضطروا بعد استيراد الأمراض النفسية وغيرها من بلاد الفرنج إلى استيراد العلاج من بلاد هؤلاء المرضى أنفسهم. ولم يفطن أصحاب الرأي والتوجيه والأمر والنهي منهم إلى أن العلاج البلسم الناجع عندهم وحدهم، يملكه الإسلام ويحوزه، ولا يبخل به على من أخذه بحقه.

ولاشـك البتـة أن بين القـرآن العظيم والسنة المطهرة وبين القلب علاقة وطيدة[1] لايدركها إلا من أنعم النظر في تاريخ الرعيل الأول خاصة من أصحاب النبي ﷺ، وتفرس في وجوههم؛ ليرى نور الإيمان ينطق من جنباتهم ويتحرك في حنـاياهم، فما عرفـوا في دنياهم العقد النفسية والقلق والعزلة والكبت وانفصام الشخصية، وما إلى ذلك من رصيد أمراض القلوب المعاصرة وإنما عرفوا الحركة والـدعوة والجهاد، عرفوا القلوب المطمئنة المتوكلة المتذكرة المتفكرة المخبتة الموقنة المهتدية، ومن ملك قلبا هذه أوصافه، فلابد أن يفيض على من حوله من معينه، وهذا ما كان في تاريخ الإسلام والمسلمين.

---

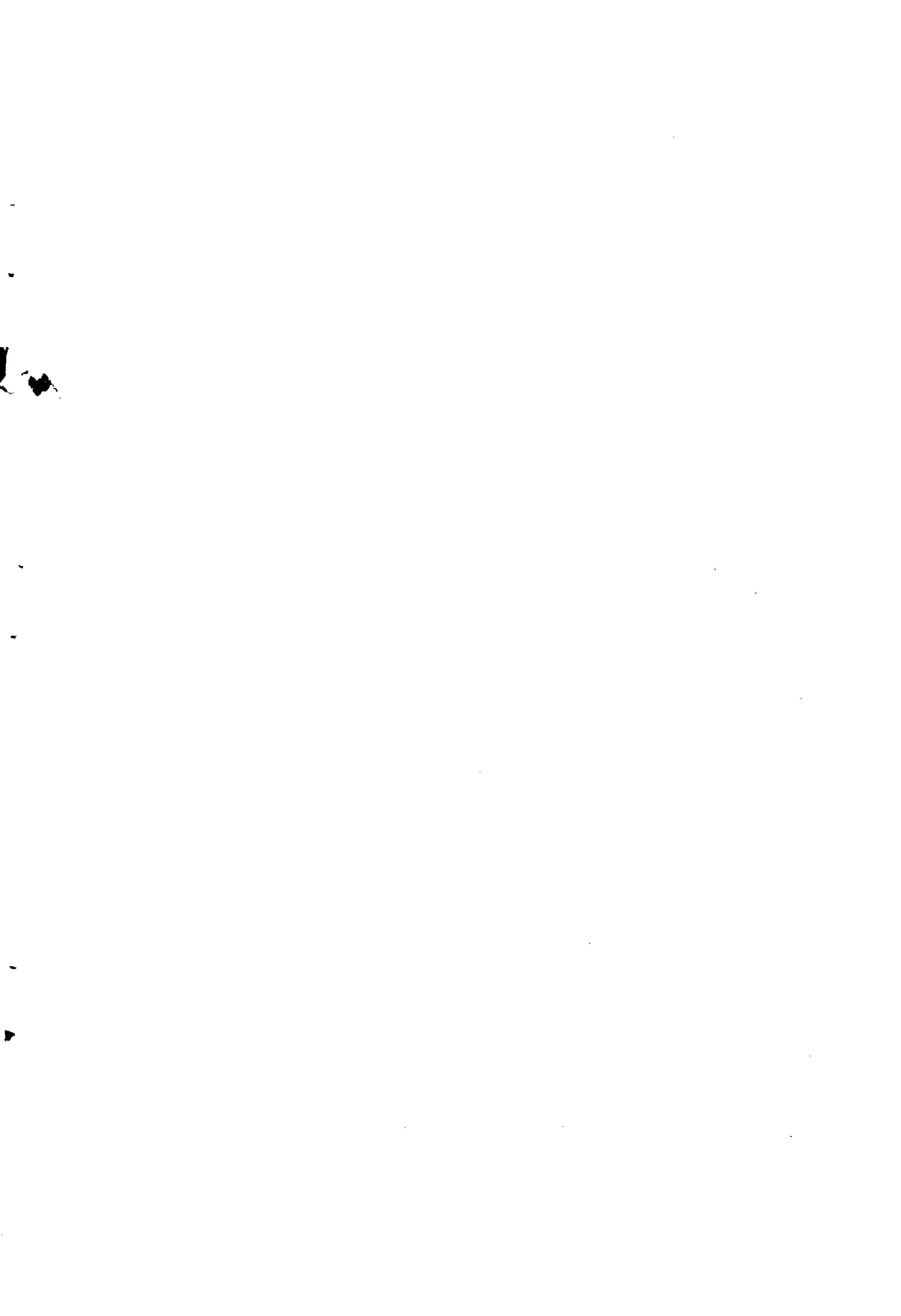
(١) ورد لفظ القلب وما اشتق منه في القرآن الكريم قرابة خمسين ومائة مرة، كما ورد في أحاديث النبي ﷺ قرابة أربعمائة مرة.

ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للشيخ محمد فؤاد عبدالباقي لفظ «قلب»، والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث لمجموعة من المستشرقين لفظ «قلب».

وكان الرائد الحافظ للحدود وللمسير من أن ينحرف يمنة أو يسرة كتاب الله عز وجل، وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه. وقد كانا على مدار التاريخ صيدلية المسلمين في أحوال القلوب وطبها خاصة، وفي أحوال دنيا الناس ودينهم عامة.

فلما تراخت الصلة بين المسلمين وكتاب ربهم وسنة نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، واستبدلوا بالمعين الصافي كدر البشر من قوانين أرضية محدودة بنظر واجتهاد الانسان القاصر الضعيف المهين. فكان واقع المسلمين خاصة والعالم عامة ما ذكرنا من إيغال أحوالهم في المادة وسيطرتها على حياتهم الخاصة والعامة، حتى عادوا أسرى لها، إلا من رحم الله ممن حافظوا على صلتهم بحبل الله وقرآنه العظيم، وسنة نبيه الأمين صلوات الله وتسليمه عليه، فحفظوا قلوبهم من الهوى أن يميل بها فتزيغ، أو تميد الأرض بهم فتخسف بقلوبهم وتمسخها وتزل أقدامهم بعد ثبات.

فمن أجل التنبيه على خطورة منزلق المادة وقعرها السحيق، وفي ذات الوقت التنبيه إلى طب القلوب الناجع من القرآن والسنة، وإبراز دور علماء المسلمين في مجال ما يسمى «الطب النفسي» اليوم، سطرنا هذه الكلمات الناصحة على لسان علم من أعلام المسلمين، وطبيب من أطبائها المتخصصين بطب القلوب. العالم المجاهد المجتهد الحجة الثبت الفقيه الأصولي اللغوي صاحب التصانيف الحميدة، شيخ الإسلام أحمد تقي الدين بن عبدالحليم بن تيمية من علماء القرن الثامن الهجري.



منهج الكتاب:

لم يدون الإمام ابن تيمية كتابا في طب القلوب مفردا، وأخص ما كتب في هذا الباب فصلا أو كتابا هو: «أمراض القلوب وشفاؤها» وإنما ضمن العديد من مصنفاته فصولا في هذا الموضوع، أو فقرات، أو نتفا أو لمحات في عموم كتبه فيصعب ـ والحال هذه ـ أن تكمل فائدة ما كتب الإمام في هذا الميدان.

فلما رأيت ـ بالاستقراء في كتبه نفيس ما كتب، وندرة وجود مثله عند غيره، رأيت جمع هذا الشتات ليكون وحدة مترابطة متناسقة، ينتظمها تسلسل مرتبط بعضه ببعض، يأخذ أوله بوسطه وآخره.

فقمت بهذا السبيل باستقصاء واستقراء كتبه المطبوعة.

فلما تحصلت المادة العلمية وجدت أن من الصعب حصرها وحشرها في مصنف يجمعها مع كثرة احتياجها إلى الربط بين أجزائها من ناحية، وفتح مغاليقها وأسرار عباراتها من ناحية ثانية. فوقع في خلدي استدراك ذلك بطريق عرض مواضيع الكتاب تحت عناوين مختارة تنم عن مضمونها. مع صياغتها على شكل حوار علمي نفترضه بيننا وبين الشيخ الإمام، يأخذ هذا الحوار صورة لقاء مع الشيخ في مجالسه العلمية التي كان يعقدها لطلابه وأقرانه وعموم الناس، وبمحضر من هذا الجمع نوجه الأسئلة التي نرى أنها تعبر عن لسان حال الحضور الكرام، أو القراء الأعزاء، ونجعل الحوار بين جيلين، الأول يمثله الشيخ، والثاني يمثله الكاتب.

وقد ترجح عندنا أن هذا الأسلوب كفيل بتحقيق أقصى ما يمكن من فائدة الكتاب بالربط بين أجزاء موضوعه ومفهومه، وفتح مغاليق وأسرار عبارته. وزيادة

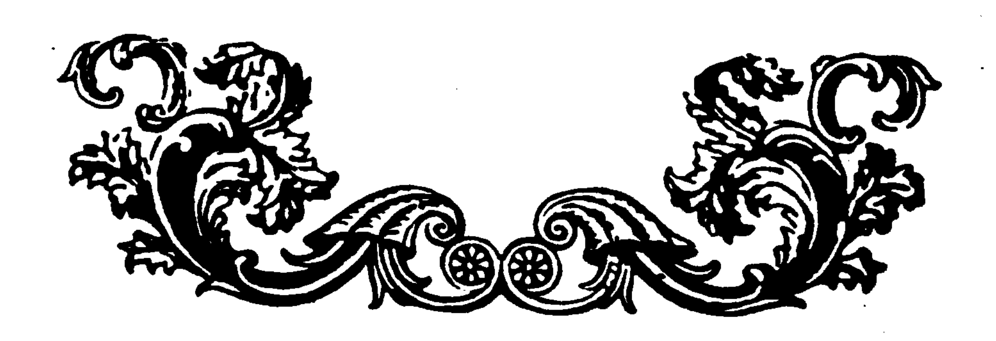
في التصوير والتخييل فقد جعلنا لكل لقاء مقدمة يستهل بها الشيخ مجلسه، وهي واحد وعشرون مجلسا بإحدى وعشرين مقدمة، تكون بمثابة مدخل للموضوع الذي يدور من حوله حديثا في المجلس.

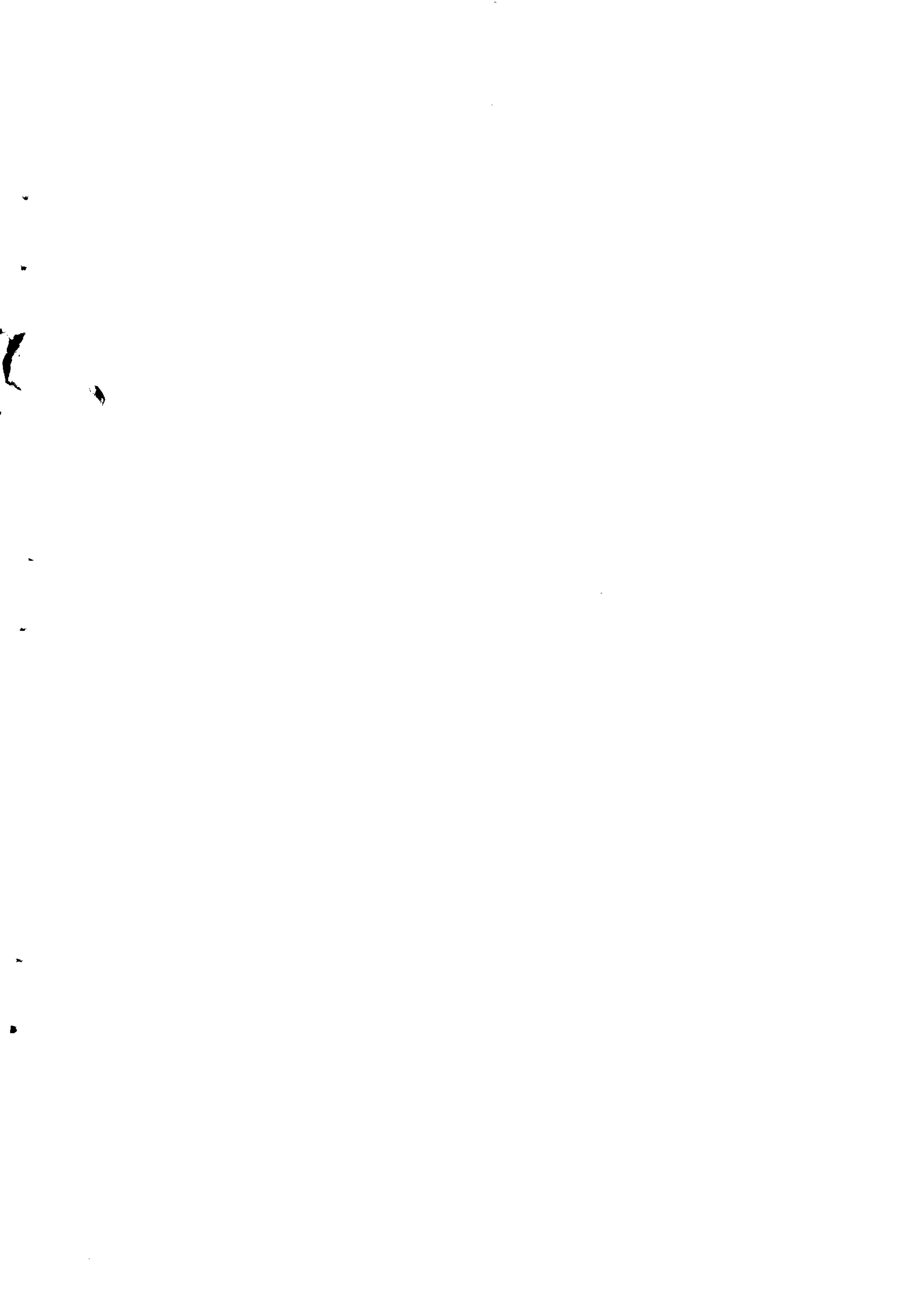
وأخيرا وحتى لا تختلط عبارة الشيخ الإمام ابن تيمية بتدخلاتنا ـ رغم وضوح عبارته وجزالتها وتميزها عن عباراتنا ـ فقد ميزنا بينهما بجعل عباراتنا موسومة بخط أسود غامق.



المدخل

- طب الأبدان وطب القلوب
- نشأة طب القلوب وتدوينه
- أهم كتب طب القلوب





المدخل
طب الأبدان وطب القلوب

يمكن القول إن علم الطب نوعان، طب الأبدان وطب القلوب.

فطب الأبدان: «علم يبحث فيه عن بدن الإنسان من جهة ما يصح ويمرض، لحفظ الصحة وإزالة المرض، أو هو حفظ الصحة وإزالة العلة».

وموضوعه: بدن الإنسان من حيث الصحة والمرض، ومنفعته بينة لاتخفى.

يقول الإمام الشافعي رضي الله عنه: العلم علمان:

علم الطب للأبدان، وعلم الفقه للأديان.

ويروى عن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: العلوم خمسة: «الفقه للأديان، والطب للأبدان، والهندسة للبنيان، والنحو للسان، والنجوم للزمان»[1].

وأما طب القلوب: فهو علم يبحث فيه عن أحوال قلب الإنسان من جهة ما يصلحه وما يفسده ويمرضه. فهو بهذا مفرد من مفردات الطب، بل هو أهم ما يملك الإنسان في بدنه.

فالقلب رأس أعضاء الإنسان في البدن، فإذا صلح صلح سائر الجسد، وإذا فسد فسد سائر الجسد.

ومرادنا بكلمة القلب ليس العضو المادي، بل كل ما ينمي أحاسيس الإنسان **ومشاعره وهواجسه، من حب وبغض، وإيثار وحسد، وروحانية وصلافة، وقوة وضعف، وإيمان وكفر، وثبات وقلق، ويقين وشك، ورضى وسخط، ونور وظلمة وما إلى ذلك.**

---

(١) مفتاح السعادة في موضوعات العلوم ٣٢٦/١ للعلامة أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده، طبع دار الكتب الحديثة بمصر.

ولما كان بدن الإنسان يصح ويمرض ويموت، فإن القلب كذلك يصح ويمرض وقد يموت وهو من هذا الجانب يستحق الإفراد عن سائر البدن.

وطب القلوب لهذا أهم من طب الأبدان لما قاله الإمام أبو حامد الغزالي في مقدمة الإحياء: «ثمرة هذا العلم طب القلوب والأرواح المتوصل به إلى حياة تدوم أبد الآباد فأين منه الطب الذي يعالج به الأجساد وهي معرضة بالضرورة للفساد في أقرب الآماد»[1].

ولقد كان من المسلّم قديما وحديثا أن طب الأبدان قد لايحقق الصحة والسلامة للبدن منفصلا عن طب القلوب. فقد يحتاجهما المرء متلازمين، وقد يحتاج أحدهما دون الآخر.

فقد تعجز العقاقير وما أكثر ما تعجز، ولايفلح في الشفاء سوى طب القلوب، حين يتخلل شغافها، ويحيي نمير الماء في عروقها، حيث تجدي الكلمة والنصحية الإيمانية من نص الكتاب الكريم، أو السنة المطهرة مباشرة، أو منهما بطريق غير مباشر، فتصح قلبا مريضا أوهن المرض أعضاءه وجسده، وتحيي قلبا ميتا أفقده المرض حيويته أو إنسانيته أو شخصيته. فإن العلاج القلبي الإيماني إذا صادف موقعه من القلب أحل السلامة والصحة محل المرض والعلة، فإذا تبع ذلك مران وسلوك قويم، وامتثال من سائر أعضاء البدن وقع العلاج موقعه الأمثل.

ولقد أدرك علماؤنا الأول حقيقة أن طب القلوب طب مستقل بذاته، لاتقل أهميته بل تزيد على أهمية طب الأبدان - كما سبقت الإشارة - وكان فهم هذا من دلالات وإرشادات النصوص من القرآن الكريم، والسنة المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

فكان تأصيلهم لهذا العلم تأصيلا ذا مستند متين مكين منير.

وعلماء الطب في العصر الحديث خاصة أيقنوا أخيرا أهمية طب القلوب هذا

---

(١) إحياء علوم الدين ٦/١ طبع دار الشعب بمصر.

لكن بعد أن أوغلوا في حضارة المادة التي استمتعت بها أجسادهم ظاهرا وتعذبت قلوبهم ونفوسهم باطنا، فعاد ذلك على أجسادهم بالتعب والأمراض فقرروا ألّا منجاة إلا بدراسة النفس وطب القلوب،حتى أصبح علما مستقلا يسمونه «علم الطب النفسي»، وغدا له متخصصون مهمتهم دراسة المريض من حيث أحوال نفسه ومشكلاته، وظروف حياته ويصفون العلاج النفسي وفق نظريات اجتهادية توصلوا إليها على مدار سنوات عديدة مديدة، أثبتت في كثير من الأحايين والأحوال جدواها، وفعاليتها.

وإنه في ذات الوقت بات من اليقين الثابت عندهم أن علم الطب النفسي يقف عاجزا عن كثير كثير من الأمراض العصرية التي أصبحت أمراضا مزمنة تهدد الأجيال تلو الأجيال.

ومن هذه الأمراض النفسية ما يؤلم المرء ويعزله عن بني جنسه، ومنها ما يضطرب بفكر المرء حتى يشوش عليه عقله، ومنها ما يتملك هواجس المرء وأحاسيسه ومشاعره ويوسوس له حتى يفقد سيطرته على نفسه وينقاد لهواجس نفسه ووسواسها، وكم من أناس فقدوا شخصيتهم أو فقدوا عقولهم أو أصبحت الحياة سجنهم وعذابهم. وعجز الطب النفسي مرات، وراجع نفسه مرات ومرات، وكم من نظريات نفسية صلحت في زمن لم تكن لها صلاحية في زمن آخر.

ومن هذا تبيّن أن طب القلوب بمعناه الاصطلاحي علم رفيع شأنه، دقيقة مسالكه، صعبة مراقيه، لايسلك طريقه ويرتقي مدارجه إلا مؤمن موقن، ذو قلب صالح سليم، شديد الحساسية والشفافية، صلته بالله وثيقة موثقة، وقلبه متعلق ومشرئب للآخرة، يرجو على حذر ووجل رضى ربه والجنة ونعيمها، ويحذر شديد الحذر والخوف سخط ربه والنار وعذابها.

وهذا العلم يستلزم فوق ذلك فقها بالدين عميقا وموزونا، لا تطغى فيه الروحانيات على الماديات، ولاخوف الآخرة على رجائها، ولا رجاؤها بلا خوف منها. ولايحكم هواجس النفس وأهواءها على النص، فحيث دل النص دلالة معتبرة، ولم

يحتمل غيرها فالنص حاكم. وفي ذات الوقت لايعطل العقل عن إدراك النصوص وفهم دلالاتها وإشاراتها وإيماءاتها.

ويستلزم هذا العلم مع ذلك ممارسات وجدانية، وخلوات روحانية، وعبادات صوم وصلاة وطاعات، تزيد فيها النوافل على الفرائض - خصوصا عند بدء التمرس - حتى تغلب على المرء وقته كله أو جله.

ولايعد حيازة المرء لهذه المستلزمات كافيا ليكون من علماء طب القلوب ويتأهل للتشخيص والعلاج، بل لابد من قبل هذا ومن بعده من فتح الله عز وجل قلب هذا الطبيب أولا فيملك قلبا مخلى من الأمراض محلى بالطيبات، فهو علم قلوب قبل أن يكون علم عقول، ولذلك لم ينجح في حيازة هذا العلم من العدد الكبير من العلماء إلا النزر القليل رغم علمهم العقلي الوفير، وملكاتهم العقلية العظيمة.

ولذا فليحذر من تحدثه نفسه في هذا التخصص دون حيازة هذه المستلزمات وخاصة المستلزم الأخير من أن تزل قدمه، وينحرف أو يتنكب الجادة ويسرف على نفسه.

ولما كان هذا العلم بهذه الخطورة والأهمية كان مجالا لكثرة السالكين الراغبين، ومع كثرة السالكين يشهد تاريخ هذا العلم تعدد الزلات وكثرة العثرات من علماء كبار، شطحت بهم عقولهم. أو تمادت بهم روحانياتهم وممارساتهم على حساب النص والعقل. فظن قوم - على حسن نية - أن الحياة عبادة محضة فحرموا على أنفسهم طيبات ما أحل الله لهم، وظن آخرون أن عباداتهم لذات الله عز وجل ليست خوفا من ناره، ولا رغبة وطمعا في جنته، ويبلغ بآخرين الانحراف أن عطلوا العبادات وأسقطوها عن أنفسهم بدعوى محبة الله وهما منهم أن العبادات وسائط، وأنهم بلغوا غاية القرب من الله تبارك وتعالى فتحققت لهم المحبة وسقطت عنهم التكاليف[1]

---

(١) نقل شيخ الاسلام ابن تيمية فقال «قال بعضهم: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ومن عبدالله بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجىء، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد».
أنظر: التحفة العراقية في الأعمال القلبية ٧٤ - المطبعة السلفية بمصر.

فيا فوز من سلك هذا الطريق من العلماء لقد نجا وأفلح، واستفاد وأفاد وما أقل الفائزين، ونظن أن من هذا القليل الإمام المجتهد الأصولي الفقيه المفسر المحدث ابن تيميه رحمه الله رحمة واسعة تكافىء ما قدم وتزيد بكرم الله وفضله وإحسانه.

نشأة طب القلوب وتدوينه:

نشأ هذا العلم مع بدء تنزيل القرآن الكريم بوحي الله تبارك وتعالى، ومع بدء توجيه النبي ﷺ قولا وفعلا وتقريرا.

لقد جاء القرآن صريحا في أنه شفاء ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤ ﴾[3].

وجـاء القرآن الكريم ليحي قلوبا ماتت بفكر الجاهلية، ودين الجاهلية، وعصبية الجاهلية.

فكان علاجه علاجا إيمانيا أحيا الفضيلة وأمات الرذيلة، وأحل مكان الحسد والبغض، الإيثار والمحبة والتعاون والتكافل، وحول القلوب التي كانت تعدو سباقا إلى الثأر والظلم والجبروت إلى قلوب تتسابق إلى العدل والخير، وتتنافس في فعل المعروف وعمل الصالحات.

لقد أحيا القرآن بطبه أمة مرضت قلوبها، وكادت تموت لولا بقايا من خير زكاها القرآن ونماها فعادت على القلوب والأبدان بالحياة والحيوية.

لقد كان تدوين القرآن والسنة في بدء عهد الناس بالإسلام هو مبدأ تدوين علم طب القلوب، من حيث أصوله وأسسه ومبادئه المبثوثة فيهما، والتي كان طريق معرفتها الفهم والاستنباط.

أمـا تدوين علم الـطب القلبي أو النفسي بالمعنى الاصـطلاحي الشامل

(١) سورة الاسراء آية ٨٢.
(٢) سورة يونس آية ٥٧.
(٣) سورة محمد ﷺ آية ٢٤.

لتشخيص الأمراض القلبية، وتحديد العلاج لكل منها منفصلا عن الكتاب والسنة ومفردا في كتب مخصصة، فإنا لانعرف أنه دون على هذه الصفة قبل القرن الثالث الهجري. ولعل بداياته المؤصلة الثابتة كانت في القرن الرابع الهجري.

وعلى جهة العموم فقد كتب علماء المسلمين في هذا الميدان كتابة علمية قيمة، وفصلوا الكلام على الأمراض النفسية تفصيلا متقنا، ومادتهم في هذا العلم سواء تشخيص الأمراض أو علاجها إنما هي مستمدة من القرآن الكريم والسنة المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

وهذا يتسق وهدف الإسلام في تزكية النفوس والقلوب وإخلاص وجهتها وعبوديتها لله تبارك وتعالى فحمل القرآن الكريم لذلك مادة وفيرة تتضمن علاج هذا الجانب الأخلاقي والنفسي.

وكان دور العلماء هو استخراج واستنباط المعاني والمقاصد وتنزيلها على الوقائع والأحوال إلا أن العلماء يتفاوتون في هذا الصدد في اعتمادهم على نصوص الكتاب والسنة، من حيث التفصيل والتفريع، وهذا الذي أدى إلى بعض التباين والتناقض في بعض القضايا، تبعا للتقيد بالنص ودلالته، أو الانطلاق خارج حدود النصوص، وإعطاء العقل والوجدان استقلالية في تحديد الفكر والتصور في التصرف والسلوك ولقد تعددت الكتب التي اهتمت بهذا الجانب الطبي القلبي ابتداء من القرن الثالث الهجري، إلا أنه لم يأخذ صفته المتميزة بتحرير مسائلة وتفصيلها إلا في القرن الرابع الهجري ـ كما سبقت الإشارة ـ.

وكان لعلماء التصوف[1] دور واضح في هذا المجال لموافقته لطبيعة التفكير

---

(١) رتب الشيخ أبو عبدالرحمن السلمي المتوفى سنة ٤١٢هـ طبقات الصوفية على خمس طبقات بدأها بالإمام الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر المتوفى سنة ١٨٧هـ وختمها بالشيخ أبي عبدالله محمد بن عبدالخالق الدنيوري.
أنظر: طبقات الصوفية ٦ مطبعة دار التأليف بمصر، وترجمة الفضيل في الاعلام للاستاذ خير الدين الزركلي ٥/٣٦٠ الطبعة الثالثة.

ومنهج السلوك الذي يعطي الأولوية للتخلية والتزكية النفسية والقلبية ثم التحلية وهذا يعود بدوره وأثره على المتصوف في واقع حياتي خاص، يغلب فيه التقشف والعزلة والروحانيات على التمتع بالطيبات والخلطة بالناس.

ولما كان هذا الموضوع على درجة كبيرة من الأهمية لم يترك العلماء من فقهاء وأصوليين ومفسرين ومحدثين ميدانه حكرا على المتصوفة خصوصا لما بدت شطحات وانحرافات بعضهم، وتعلق العامة بهم وتقليدهم.

فانبرى كثير من العلماء للكتابة في هذا الميدان كتابة مستقلة، أو ردا مباشرا أو غير مباشر على ما يرونه ويعدونه من أخطاء المتصوفة، معتمدين في ذلك على نصوص الكتاب والسنة وقواعد ومقاصد الشريعة.

وكانت الصفة العامة التي تجمع هاتين الزمرتين من المدارس العلمية في التاريخ الإسلامي أنها لم تفرد أمراض القلوب وعلاجها في كتاب واحد مخصص، تجتمع المعلومات فيه على محز واحد ثم تتفرع عنه فقد ضمنوا كتبهم إلى جانب ذلك الكلام في الآداب العامة وفقه العبادة والمعاملة. فاختلط طب القلوب بالأحكام والآثار، وإن كان لابد من بعضها لتكتمل فكرة ومنهجية التشخيص والعلاج، ولعل ذلك مرجعه إلى ميزة هذه الشريعة وهي أن الفكر والنظر والتصور لاينفصل عن الواقع والتطبيق.

أهم كتب طب القلوب:

وليس مقامنا هنا استقراء الكتب بقدر ما هو إعطاء فكرة سريعة عما نظن أنه أهمها مما تلقته الأمة بالقبول.

ونظن أن هذا العلم لايخرج مداره السليم عن خمسة كتب نختارها من بين كتب عديدة[1] كتاب «قوت القلوب» للإمام أبي طالب المكى، وكتاب «منازل السائرين» للإمام الهروي وكتاب «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي، وكتاب «أمراض القلوب وشفاؤها» للإمام ابن تيمية وكتاب «مدارج السالكين» للإمام ابن القيم.

وسوف نستعرض هذه الكتب فنبرز مضمونها ومنهجها لتتكشف أهميتها ودورها وأثرها.

الكتاب الأول: «قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد» لشيخ الإسلام العالم المدقق المحقق أبو طالب محمد بن أبي الحسن علي ابن عباس المكى[2] وهو مطبوع، وقد اشتهر كتابه هذا بعنوان «طريق المريد للوصول إلى مقام التوحيد» ثم اشتهر الكتاب وعرف باسم «دقائق الطريقة» ثم اختصره زين

---

(١) يذكر في هذا المقام على سبيل التخصيص من الكتب المتقدمة في هذا الشأن كتاب «المسائل في أعمال القلوب والجوارح ـ » وكتاب الرعاية لحقوق الله عز وجل ـ ط» كلاهما للحارث المحاسبي.
انظر: الاعلام ٢/٤ط.

(٢) هو محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي، أبو طالب واعظ زاهد فقيه. اتهم بالاعتزال، وله كتاب «قوت القلوب» المذكور وكتاب «علم القلوب» توفي سنة ٣٨٦.
أنظر: الاعلام ١٥٩/٧.

الدين الشيخ محمد بن خلف الأموي المتوفى سنة خمس وثمانين وأربعمائة وسماه «الوصول إلى الغرض المطلوب من جواهر قوت القلوب»[1].

وقد اشتهر كتاب قوت القلوب، وذاع صيته حتى قال عنه حاجي خليفة «قالوا لم يصنف مثله في دقائقه الطريقة ولمؤلفه كلام في هذه العلوم لم يسبق إلى مثله [2]».

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن كتاب «إحياء علوم الدين» و «قوت القلوب» فأجاب: أما كتاب «قوت القلوب» وكتاب «الإحياء» تبع له فيما يذكره من أعمال القلوب، مثل الصبر و الشكر والحب والتوكل والتوحيد ونحو ذلك.

وأبـو طالب أعلم بالحديث والأثر وكلام أهل علوم القلوب من الصوفية وغيرهم من أبي حامد الغزالي، وكلامه أسد وأجود تحقيقا، وأبعد عن البدعة إن في «قوت القلوب» أحاديث ضعيفة وموضوعة، وأشياء كثيرة مردودة[3].

والكتاب يستحق النظر والتحقيق، فقد تضمن في ابتدائه من الآي والأحاديث الشيء الكثير مما يعين حفظه على الذكر والورد المندوب، وجمع من الأدعية الشيء الكثير، وكثير منها مأثور وبعضها يحتاج إلى تتبع وتحقيق. كما تكلم في الكتاب عن القلوب، واعتبر كل فصول الكتاب قوتا لهذه القلوب وعقد فصلا نفيسا في ذلـك سماه «ذكـر تفصيل الخـواطر لأهل القلوب، وصفة القلب وتمثيله بالأنواء والجواهر..» وهو فصل رقيق دقيق مستل من الآي الكريمة والسنة المطهرة باستنباط دقيق وبفهم عميق حري أن يحقق ويدرس ويفرد، ففيه من الفوائد ما لاينبغي أن يهمل ويفوت. وقد تكلم فيه أيضا عن العلم ومكانته، وفرق بين علماء الدنيا والآخرة وذم علماء السوء، وانتصر لما عليه علماء السلف الكرام، وذم ما أحدثه المتأخرون. كما تكلم عن اليقين وأحوال الموقنين، ومقام الصبر والصابرين، والخوف

(١و٢) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون للعالم مصطفى عبدالله الشهير بحاجي خليفة ١٣٦١/٢ طبع بالأوفست مكتبة المثنى ـ بغداد.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الاسلام أحمد بن تيمية ٥٥١/١٠ طبع الرياض ١٣٩٨. وهكذا جاء النقل دون ذكر جواب (أما) التي صدر بها شيخ الاسلام كلامه.

والخائفين، والزهد والزاهدين، وفصل في حقيقة الزهد والزهاد، ومقاماتهم، وقد استقصى واستوفى فيه مالا أظن أنه يوجد في غيره.

والكتاب في جملته يجمع من العلم الشيء الوفير، ولو تفرغ له من يحصر المضمون في العنوان ويستل منه ما ليس له شديد التصاق بموضوعه، ويهذبه مما قد علق به من أخبار ضعيفة، وخلط التصوف بالحديث كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن كتب المتصوفة منهم «من خلط التصوف بالحديث والكلام ككتب الحارث ابن أسد المحاسبي، وأبي الحسن بن سالم، وأبي سعيد بن الأعرابي، وأبي طالب المكي»[1] فلو تيسر ذلك لكان «قوت القلوب» تحفة علمية نفيسة.

أما الكتاب الثاني: الذي نرجح أنه من أهم الكتب التي مهدت لطب القلوب، وكانت من أسس وأركان هذا العلم هو كتاب «منازل السائرين» لشيخ الاسلام أبي إسماعيل عبدالله بن محمد الهروي[2].

وقد قسم الهروي كتابه إلى منازل بلغت مائة منزل، وجعل لكل منزلة معنى يناسب العامة ثم ما يناسب خاصة المؤمنين، ثم خاصة الخاصة.

ولقد ألف الإمام ابن القيم كتابه «مدارج السالكين» على هذا الكتاب وقد تابع الهروي في كل منازل كتابه ولعل أهمية كتاب الهروي تكمن في أنه يعد من العلماء الموثقين عند علماء السلف.

قال عنه ابن القيم «صاحب المنازل رحمه الله كان شديد الإثبات للأسماء والصفات، مضادا للجهمية من كل وجه»[3] ويقول عن علمه إن في كلامه ما «يدل على رسوخ الشيخ في العلم، ووقوفه مع أهل السنة، وفقهه في هذا الشأن»[4].

---

(١) المرجع السابق ٣٦١/١٠.

(٢) هو عبدالله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي، أبو اسماعيل من كبار الحنابلة ومن الحفاظ عارف بالتاريخ والأنساب، مظهرا للسنة داعيا إليها، امتحن وأوذي فصبر توفي سنة ٤٨١هـ. انظر الاعلام ٢٦٧/٤.

(٣-٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين للإمام ابن قيم الجوزية (٢) ٢٦٣/١ (٣) ٢١٨/٣ (٤) ٣٩/٢ (٥و٦) ٣٩٤/٣ - مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٥-١٩٥٦ بمصر

ورغم ذلك التوثيق إلا أن كتاب المنازل لم يسلم من بعض الشطحات التي يرجى مغفرتها لما عرف عن الشيخ من حسن السيرة والسريرة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فابن القيم يرى أن ما وقع للهروي من زلات هي مما يمكن مغفرتها فيقول عن تلك الزلات هي «من الشطحات التي ترجى مغفرتها بكثرة الحسنات، ويستغرقها كمال الصدق، وصحة المعاملة، وقوة الإخلاص، وتجريد التوحيد، ولم تضمن العصمة لبشر بعد رسول الله ﷺ»[1].

ويقول فيه أيضا «شيخ الاسلام ويعني الهروي - حبيبنا، ولكن الحق أحب إلينا منه»

ويقول شيخ الاسلام ابن تيمية عنه «عمله خير من علمه» ويعلق ابن القيم فيقول «وقد صدق رحمه الله، فسيرته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد أهل البدع، لايشق له فيها غبار وله المقامات المشهورة في نصرة الله ورسوله، وأبى الله أن يكسو ثوب العصمة لغير الصادق الصدوق الذي لاينطق عن الهوى ﷺ، وقد أخطأ في هذا الباب لفظا ومعنى..»[3].

وكان قصد الإمام ابن القيم من تصنيف كتابه مدارج السالكين «هي التنبيه والرد على ما وقع فيه الإمام الهروي من أخطاء».

أما الكتاب الثالث: فهو كتاب الإمام حجة الاسلام أبي حامد الغزالي محمد بن محمد بن محمد الطوسي المتوفي سنة خمس وخمسمائة للهجرة[4] «إحياء علوم الدين» وهو

وهذه المظان استفدت الدلالة عليها من مقدمة كتاب «تهذيب مدارج السالكين» للاستاذ عبدالمنعم صالح العلي ٨و٩ طبع وزارة العدل والشئون الاسلامية والأوقاف بدولة الامارات العربية المتحدة.

(١،٢،٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١) ٣٩/٢، (٢/٣) ٣٩٤/٣.

(٤) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام، له نحو مئتي مؤلف فقيه أصولي متصوف فيلسوف، توفي سنة ٥٠٥هـ.
أنظر: الاعلام ٢٤٧/٧.

كتاب يعد من الفرائد في باب طب القلوب، بل يعتبر من رواد هذا الفن بلا نزاع، وإذا كان الإمام ابن القيم قد توج العلم في شامخ بنائه، فإن الامام الغزالي من صناع أساسه وواضعي أركانه.

وقد أفاد الإمام الغزالي من كتب السابقين له في طب القلوب خاصة كتاب «قوت القلوب» السابق وكتاب «الرعاية» للمحاسبي[1] وفي ذلك يقول «ابتدأت بتحصيل علمهم ـ الصوفية ـ من مطالعة كتبهم مثل «قوت القلوب» لأبي طالب المكي وكتب الحارث المحاسبي..»[2].

وقد اعتد جمهور علماء الأمة بهذا الكتاب فأثنوا عليه ونقلوا عنه، ولم ينكر خصوم الإمام الغزالي ما في كتابه من فوائد جمة خصوصا فيما يتعلق بأعمال القلوب وأمراضها مما صح سنده واستنباطه يقول شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن بين أن كتاب الإحياء تبع لكتاب قوت القلوب ـ كما سبقت الاشارة ـ «وأما ما في الاحياء من الكلام كما في المهلكات مثل الكلام على الكبر والعجب والرياء والحسد ونحو ذلك، فغالبه منقول من كلام الحارث المحاسبي في الرعاية، ومنه ما هو مقبول، ومنه ما هو مردود، ومنه ما هو متنازع فيه.

ثم قال: والإحياء فيه فوائد كثيرة، لكن فيه مواد مذمومة، فإن فيه مواد فاسدة من كلام الفلاسفة، تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد، فإذا ذكر معارف الصوفية كان بمنزلة من أخذ عدوا للمسلمين ألبسه ثياب المسلمين، وقد أنكر أئمة الدين على أبي حامد هذا في كتبه وقالوا: مرضه «الشفاء يعني ابن سينا في الفلسفة، وفيه آثار ضعيفة بل موضوعة كثيرة، وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وترهاتهم ثم قال: وفيه مع ذلك من كلام الصوفية العارفين المستقيمين في أعمال القلوب الموافق للكتاب والسنة، ومن غير ذلك من العبادات والأدب مما هو موافق للكتاب والسنة أكثر مما يرد فيه، فلهذا اختلف في اجتهاد الناس وتنازعوا فيه[3].

---

(١) الحارث بن أسد المحاسبي، أبو عبدالله، من أكابر الصوفية، كان عالما بالأصول والمعاملات واعظا مبكيا، وله تصانيف في الزهد والرد على المعتزلة وغيرهم ت سنة ٢٤٣هـ. انظر: الأعلام ٢/٥٣.

(٢) مفتاح دار السعادة ٢/٣٣٨ دار الكتب الحديثة بمصر.

(٣) الفتاوى ١٠/٥٥١، ٥٥٢.

وقد كان دافع الإمام الغزالي لتصنيف كتابه شعوره بالتهاء الناس في الدنيا وماديايتها، ونسيانهم الآخرة ونعيمها أو عذابها فيقول رحمه الله إن «علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح من بين الخلق مطويا، وصار نسيا منسيا، ولما كان هذا ثلما في الدين ملما، وخطبا مدلهما، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب»[1]

وقد أسس الإمام الغزالي كتابه على أربعة أرباع: ربع العبادات، وربع العادات، وربع المهلكات، وربع المنجيات، وصدر الكتاب بكتاب العلم.

ويشتمل كل ربع منها على عشرة كتب. وقد خصص ربع المهلكات والمنجيات للكلام على ما يتعلق بالقلب والآداب والأخلاق، وجعل مدارها كلها سلامة القلب.

فتكلم في الكتاب الأول على شرح عجائب القلب، والثاني على رياضة النفس، والثالث على آفات الشهوتين، شهوة البطن، وشهوة الفرج، والرابع على آفات اللسان، والخامس على آفات الغضب والحقد، والحسد، والسادس على ذم الدنيا، والسابع على ذم المال والبخل، والثامن على ذم الجاه والرياء، والتاسع على ذم الكبر والعجب، والعاشر على ذم الغرور.

ثم انتقل إلى المنجيات وضمنه عشرة كتب: الأول في التوبة، والثاني في الصبر والشكر، والثالث في الخوف والرجاء، والرابع في الفقر والزهد، والخامس في التوحيد والتوكل، والسادس في المحبة والشوق والأنس والرضا، والسابع في النية والصدق والإخلاص والثامن في المراقبة والمحاسبة، والتاسع في التفكر، والعاشر في ذكر الموت.

وأما منهجه في ذلك فيقول فيه «وأما ربع المهلكات، فأذكر فيه كل خلق مذموم، ورد القرآن بإماطته، وتزكية النفس عنه، وتطهير القلب منه، وأذكر من كل واحد من تلك الأخلاق حده وحقيقته، ثم أذكر سببه الذي منه يتولد، ثم

---

(١) إحياء علوم الدين ١/٢، ٢/٣٣٨.

الآفات التي عليها تترتب، ثم العلامات التي بها فيها يتخلص، كل ذلك مقرونا بشواهد الآيات والأخبار والآثار..»[1] وبمثل هذا المنهج تكلم عن الربع الأخير وهو المنجيات.

ولقد أشار الإمام الغزالي في مقدمة كتابه إلى أن بعض هذه المعاني قد صنف فيها الناس من قبله، ولكن يتميز كتابه عنها بخمسة أمور: الأول: حل ما عقدوه وكشف ما أجملوه، والثاني: ترتيب ما بددوه ونظم ما فرقوه، والثالث: إيجاز ما طولوه، وضبط ما قرروه، والرابع: حذف ما كرروه، واثبات ما حرروه، والخامس: تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأفهام لم يتعرض لها في الكتب أصلا[2].

ومجمل هذه الأمور يشير إلى منهج كتاب «قوت القلوب» مما يشير ويرجح أن الإمام الغزالي اطلع على الكتاب، وليس هذا بمستبعد فقد ذاع صيت الكتاب وشاع بل اختصره البعض ليسهل شيوعه واقتناؤه، وأمثال الإمام الغزالي لا يفوته مثله. خصوصا وأن مباحثهما مشتركة في الجملة، وشواهدهما متقاربة في الجملة أيضا والله أعلم بالصواب.

أما الكتاب الرابع: فهو كتاب «أمراض القلوب وشفاؤها» للإمام شيخ الإسلام أحمد بن تيمية وهو كتاب أو فصل ضمن ما كتبه وجمع في الفتاوى وقسم آخر ضمن الفتاوى أيضا بعنوان «التحفة العراقية فى الأعمال القلبية» والأول ألصق بالموضوع، وهو على صغر حجمه على درجة كبيرة من الشمول والحصر والإتقان وفيه من حسن الاستنباط، وقوة الحجة والاستدلال ما لايستغرب وروده من الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية.

وقد تكلم في الكتاب عن حقيقة مرض البدن والقلب، وبين متى يتحقق موت القلب وبين مفهوم أن القرآن شفاء لما في الصدور، وتزكية القلب وصلاح

---

(١) احياء علوم الدين ١/٣و٤

(٢) المرجع السابق

القلب وظلم القلب، وربط بين حياة القلب والعلم والإرادة والقدرة، وعدد من أمراض القلوب كالحسد، والهوى والشح والبخل والشهوة والعشق. ثم بين أن القلب إنما خلق لحب الله تبارك وتعالى، وحب ما يحبه الله لأن هذه هي الفطرة وبين أخيرا أن صلاح الانسان في العدل وفساده في الظلم، وأن طب الأديان يُحتذى حذو طب الأبدان.

وأما كتابه الآخر فعقد لأعمال القلوب ويقصد بها ما يسمى بالمقامات والأحوال، وهي من أصول الإيمان وقواعد الدين، مثل محبة الله ورسوله ﷺ، والتوكل على الله، وإخلاص الدين له، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له، وما يتبع ذلك.

وقد فصل هذا فبين أن المسلمين في أعمال القلوب على ثلاث درجات: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات.. ثم بين الصدق والإخلاص والحلال والحرام والمشتبه، وشرح معنى حديث إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب» كما بين معنى حق الله على عباده، وحق العباد على الله. ثم تكلم عن الزهد، والصبر والرضى والجزع والمحبة وفصل في خصوص المحبة وبين منزع الفساد والذي وقع فيه طوائف من المتصوفة، وبين ما وقع فيه هؤلاء من فساد في الاعتقاد والأعمال.

ولايقتصر ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية على ما ذكر في الكتابين، أو الفصلين، وإنما له كلام نفيس جدا في هذا الباب لكنه مبثوث في كتبه، وقد جمعت في المجلد المخصوص بعلم السلوك من مجموع الفتاوى ومادة هذا الكتاب جمعت بين شتات ما كتب شيخ الإسلام في طب القلوب، وقد اختصر كتابه «أمراض القلوب وشفاؤها» جهدا لا بأس به من مادة طب القلوب.

أما الكتاب الخامس: فهو كتاب «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» للإمام أبي عبدالله محمد بن أبي بكر المشهور بابن قيم الجوزية وكتابه هذا هو أهم كتبه في بابه، ولا يبعد القول: إن هذا الكتاب وكتابه أعلام الموقعين أهم وأقيم ما كتبه الإمام على الإطلاق، وكل ما كتبه قيم هام.

وقد ألف الإمام كتابه هذا لتتبع كتاب «منازل السائرين للإمام أبي إسماعيل عبدالله بن محمد الهروي الحنبلي وللتنبيه على أخطائه، ويزكي مواضع الصواب عنده خصوصا في قضايا التصوف المشهورة ويرد على المبتدعة الذين يروجون عن الشيخ مالا تحتمله عباراته، مستفيدين من مكانته العلمية فقد كان من علماء الحنابلة المعدودين، ويلقب بـ: «شيخ الاسلام».

لكن هذا المقصد لم يمنع الإمام ابن القيم من الشرح والاسترسال والزيادة على ما تحتمله عبارة الشيخ، بل اعتبر كلام الشيخ متنا وتناوله بالشرح المسهب، ومن هنا كانت أهمية الكتاب وما فيه من شروح وزيادات اكتسبت أهمية علمية عول عليها الدارسون والمحققون حتى كاد كتاب الشيخ الهروي ينسى في هذا المضمار وقد أولى الشيخ الإمام ابن القيم طب القلوب أهمية وضمن هذا الكتاب أهم ما يتعلق بطب القلوب، لكنه لم يستوف أطرافه كلها، وضمت كتبه الأخرى أمورا كثيرة مما يتعلق بالموضوع ظلت مبثوثة غير منتظمة في سلك واحد.

ولقد بذل الإمام ابن القيم غاية وسعه في ربط استنباطاته وتقريراته وكلام الشيخ الهروي بالقرآن والسنة، بعد أن رأى أن أقوال القوم من الصوفية خاصة قد تجردت خصوصا في موضوع القلوب والرقائق والآداب من الآي والأحاديث؛ لذا قال في مقدمة كتابه عن القرآن الكريم: «فهو نور البصائر من عماها، وشفاء الصدور من أدوائها وجواها، وحياة القلوب، ولذة النفوس، ورياض القلوب، وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح..» ثم يشير إلى من اعتمد على غير القرآن من العلماء «سمع والله ـ لو صادف ـ آذانا واعية، وبصر ـ لو صادف ـ قلوبا من الفساد خالية، لكن عصفت على القلوب هذه الأهواء فأطفأت مصابيحها.. ودرست معالم القرآن في قلوبهم فليسوا يعرفونها، ودثرت معاهده عندهم فليسوا يعمرونها.. ثم يقول: «أفيظن المعرض عن كتاب ربه وسنة رسوله أن ينجو من ربه بآراء الرجال، أو يتخلص من بأس الله بكثرة البحوث والجدال، وضروب الأقيسة وتنوع الأشكال، أو بالاشارات والشطحات، وأنواع الخيال»[1].

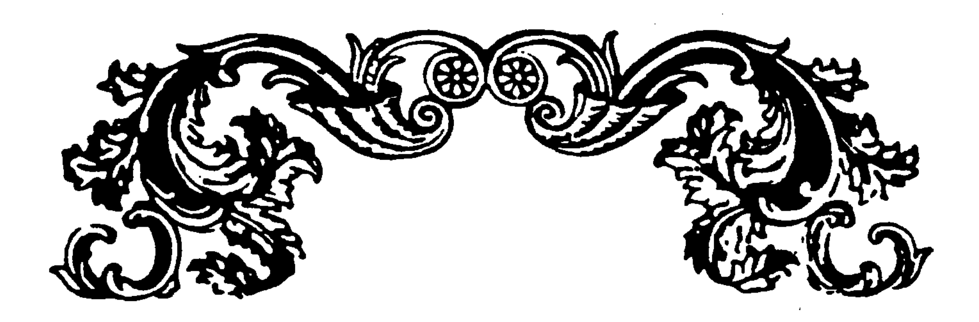
---

(١) مدارج السالكين ١/٣-٦.

وقد ضمن الإمام ابن القيم كتابه قضايا عديدة تدور حول صفاء القلب وتنقيته لحسن العبادة وإخلاص العبودية لله تبارك وتعالى.

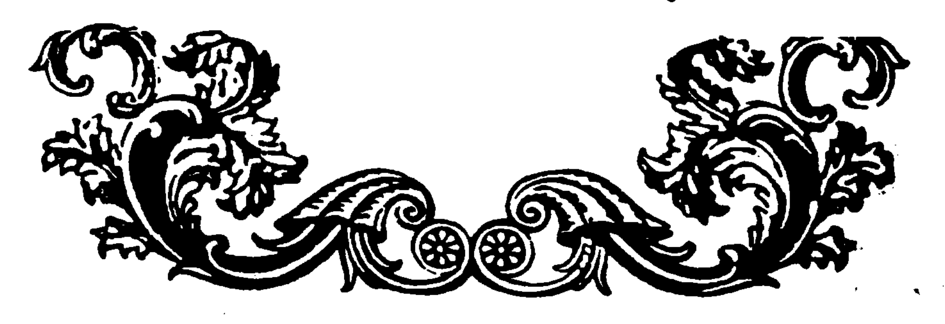
فتكلم عن هداية القرآن الكريم كلاما نفيسا وتعرض لاشتمال الفاتحة على المطالب العالية، واشتمال الفاتحة على أنواع التوحيد الثلاثة، وعقد فصلا لمراتب الهداية الخاصة والعامة وجعلها عشرا، واشتمال الفاتحة على شفاء القلوب والأبدان، وتكلم على قواعد العبودية الخمس عشرة وانها منقسمة على القلب واللسان والجوارح. ثم عقد فصلا لمنازل «إياك نعبد» وتكلم عن التوبة وما يتعلق بها، وعرض لمعاني الصغائر والكبائر واللمم والمحقرات من الذنوب.. وتعرض لما يتاب منه وعددها اثنا عشر وتكلم كلاما نفيسا عن آثار مفسدات القلب الخمسة وعددها، وسار مفصلا القول في كلام الهروي في المنازل مما يضيق ما نحن فيه عن بسطه وعرضه.[1]

(١) وانظر تفصيل كلام ابن القيم في كتابنا «طب القلوب» للإمام ابن قيم الجوزية. نشر دار الدعوة ـ الكويت ١٩٨٩.



شيخ الإسلام
الإمام ابن تيمية

- اسمه ومولده
- عصره
- مكانته العلمية وصفاته
- شيوخه
- كتبه
- جهاد ابن تيمية في ميادين القتال
- جهاد ابن تيمية في ميادين العلم
- وفاته



ابــن تيـميــة

اسـمــه ومـولــده:

هو أحمد تقي الدين أبو العباس بن شهاب الدين أبي المحاسن عبدالحليم بن مجد الدين أبي البركات عبدالسلام بن أبي محمد عبدالله بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبدالله بن تيمية الحراني.

ولد في العاشر من شهر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة في مدينة حران.

عـصــــره:

وقد ولد ابن تيمية في عصر اضطربت فيه أحوال البلاد الإسلامية لكثرة القلاقل، فقد ولد بعد تدمير بغداد بخمس سنوات، وبعد دخول التتر دمشق بثلاث سنوات، وشاهد وهو في مرحلة الصبا فظائع التتار، وسمع الشيء الكثير.
ولعل أبلغ ما أثر في حياته هجرة أسرته إلى دمشق نتيجة الفظائع التي ارتكبها التتر في أنحاء الشام وأصابت بلدة آل تيمية ومسقط رأسه بلدة حران.

وقد كانت ولادة ابن تيمية في أيام الملك الظاهر بيبرس، حاكم مصر والشام وكان بيبرس أول ملك قوي بعد صلاح الدين الأيوبي، وقد انتصر على أعداء الإسلام من التتار والفرنج في مواطن كثيرة، وأصلح من شأن البلاد شيئا كثيرا في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنهضة العلمية.

وتوفي الظاهر بيبرس عام ٦٧٦هـ وكان أقوى خلفائه الملك المنصور سيف الدولة قلاوون الذي هزم التتار هزيمة عظيمة سنة ٦٧٨هـ، ومن بعد وفاته سنة ٧٠٩هـ تعاقب على الحكم ملوك ضعاف.

وتعتبر فترة حكم قلاوون هي فترة حياة ابن تيمية، أوج نشاطها إلا أن التتار في تلك الفترة حكموا خراسان وفارس والعراق.

ومما ينبغي أن يشار إليه رغم الوضع المضطرب سياسيا واجتماعيا أن الحركة العلمية لم تتوقف ولم تتأثر وهذا شأن كثير من فترات التاريخ الإسلامي، فقد زخر عصر ابن تيمية بعلماء أفذاذ يعتبرون أئمة في شتى العلوم الإسلامية من أمثال العلامة تقي الدين أبي عمرو بن الصلاح (٥٧٧-٦٤٣هـ) وشيخ الإسلام عزالدين ابن عبدالسلام (٥٧٨-٦٦٠هـ) والإمام محيى الدين النواوي (٦٣١-٦٧٦هـ) وظهر في أواخر هذا القرن علماء كبار مثل المحدث الكبير شيخ الإسلام تقي الدين بن دقيق (٦٢٥-٧٠٢هـ) والأصولي المتكلم العلامة علاء الدين الباجي (٦٣١-٧١٤هـ) وقد كان من معاصري ابن تيمية كبار المحدثين والمؤرخين كالعلامة جمال الدين أبي الحجاج المزي (٦٥٤-٧٤٢هـ) والحافظ علم الدين البرزالي (٦٦٥-٧٣٩هـ) والعلامة شمس الدين الذهبي (٦٧٣-٧٤٧هـ) الذين كانوا يعدون «الأركان الأربعة للحديث والرواية في عصرهم، والذين يعتمد على كتبهم المتأخرون من العلماء.

كما نبغ في عصره أساتذة الفن البارعون وعلماء ذوو كفاءات علمية قوية كانوا مرجع الخلق، وطار صيتهم العلمي في الآفاق، كقاضي القضاة كمال الدين بن الزملكاني (٦٦٧-٧٢٧هـ) وقاضي القضاة جلال الدين القزويني (م٧٣٩هـ) وقاضي القضاة تقي الدين السبكي (٦٨٣-٧٥٦هـ) والعلامة أبي حيان النحوي (٦٥٤-٧٤٥هـ). إلا أن هذا العصر لم يخل من نقائض في الجوانب العلمية وسلبيات كان لها تأثير كبير على مسيرة الحياة الثقافية عامة.

فقد كان التعصب المذهبي سمة بارزة في هذا العصر، وكان كل علماء مذهب يرون الأحقية والصلاحية لمذهبهم.

وكان الخلاف بين الحنابلة والأشاعرة على أشده، فكانا يتبادلان تكفير بعضهما.

وإلى جانب ذلك كان التصوف قد بلغ أوجه، ووجد له مناصرون ومؤيدون

الأمر الذي شغل كثيرا من العلماء للتصدي لهم وكشف بدعهم، وقد أسهم ابن تيمية في ذلك بحظ وافر[1].

أما أسرة ابن تيمية والتي كان لها تأثير بليغ في مسيرته وتكوينه العلمي فقد كانت أسرة مشهورة بالعلم والدين، فقد كان جده مجد الدين مجتهدا في المذهب الحنبلي بل أطلق عليه البعض المجتهد المطلق وكذلك كان والد ابن تيمية الشيخ شهاب الدين عبدالحليم عالما فقيها محدثا فقيها جلس للتدريس والإفتاء في الجامع الأموي مدة طويلة.

لقد كان استقرار أسرة آل تيمية في دمشق بداية الحياة العلمية لابن تيمية فقد بدأ في طلب العلم ونبغ في ذلك منذ حداثة سنه، فقد حباه الله بذاكرة قوية لا يكاد ينسى ما يقرأ أو يسمع فيذكر صاحب العقود الدرية حادثة تشير إلى ذلك فيقول:

«اتفق أن بعض المشايخ العلماء بحلب قدم إلى دمشق، وقال سمعت في البلاد بصبي يقال له أحمد بن تيمية، وأنه سريع الحفظ، وقد جئت قاصدا لعلي أراه، فقال له خياط هذه طريق كتابه، وهو إلى الآن ما جاء، فاقعد عندنا الساعة يجيء فجلس الشيخ الجليل قليلا فمر صبيان، فقال للشيخ الحلبي هذا الصبي الذي معه اللوح الكبير هو أحمد بن تيمية، فناده الشيخ فجاء إليه، فتناول الشيخ اللوح، فنظر فيه ثم قال: يا ولد امسح هذا حتى أملي عليك شيئا تكتبه، ففعل، فأملى عليه من متون الأحاديث أحد عشر وثلاثة عشر حديثا فقال: اقرأ هذا فلم يزد على أن تأمله مرة بعد كتابته إياه، ثم رفعه إليه، وقال: اسمعه فقرأ عليه عرضا كأحسن ما أنت سامع، فقال: يا ولدي امسح هذا، ففعل، فأملى عليه عدة أسانيد انتخبها، ثم قال اقرأ هذا فنظر فيه كما فعل أول مرة فقام الشيخ وهو يقول: إن عاش هذا الصبى ليكونن له شأن عظيم، فإن هذا لم ير مثله[2]».

---

(١) ينظر للتفصيل كتاب: حياة شيخ الاسلام الحافظ أحمد بن تيمية للشيخ أبو الحسن على الحسني الندوي والبداية والنهاية لابن كثير ١٣/١٣٦ وكتاب الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ١٣/٣٨٧ والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ١/١٦٨ والبدر الطالع ١/٦٣.

(٢) العقود الدرية. وابن تيمية للشيخ محمد ابو زهرة ٢١.

مكانته العلمية وصفاته:

وبدأ ابن تيمية بمرحلة التحصيل العلمي، وبدأ يحفظ القرآن الكريم، ثم حفظ الحديث وفهم علومه وقد سمع كثيرا من كتب الحديث أهمها مسند الإمام أحمد، وصحيح البخاري ومسلم، وجامع الترمذي وسنن أبي داود والنسائي وابن ماجه، والدارقطني، ودرس إلى جانب ذلك دواوين كبار الشعراء، ودرس اللغة وعنى بها عناية فائقة، وقد كان موجهه في مسيرته الأولى في تحصيل هذه العلوم والده مجد الدين، كما عنى بدراسة الحساب والعلوم الرياضية. وكان أبرز العلوم التي تلقاها ونبغ فيها بعد علم الحديث علوم التفسير والفقه والأصول والفرائض، وكان يتلقى هذه العلوم عن أئمتها في عصره. يقول صاحب الكواكب الدرية «إن شيوخه الذين سمع منهم أكثر من مائتي شيخ»[1].

وما أن بلغ ابن تيمية سن العشرين أو دونها حتى اكتمل له كل مقومات العالم المتمكن المستوعب، وقد اشتهر صيته وعلا ذكره، فلما توفي والده سنة ٦٨٢، كان ابن تيمية في الحادية والعشرين، وتولى في سن الثانية والعشرين مجلس والده في الجامع الأموي. وألقى ابن تيمية درسه الأول وقد حضره كبار علماء دمشق منهم: «الشيخ قاضي القضاة بهاء الدين بن الزكي الشافعي والشيخ تاج الدين الغزاوي شيخ الشافعية والشيخ زين الدين النجا الحنبلي ومن علماء الحنفية وغيرهم من سراة العلماء وكبارهم حضروا درسه الأول الذي ترك في نفوسهم أثرا عميقا وجعلهم يعترفون بالتبحر العلمي وسرعة بديهة العالم الشاب وفصاحته وجراءته، يتحدث الحافظ ابن كثير تلميذ ابن تيمية ضمن احداث سنة ٦٨٣هـ عن درسه هذا، ويصفه بما يأتي:

«وكان درسا هائلا، وقد كتبه الشيخ تاج الدين الفزاري بخطه لكثرة فوائده، وكثرة ما استحسنه الحاضرون، وقد أطنب الحاضرون في شكره على حداثة سنه وصغره، فانه كان عمره إذ ذاك عشرين سنة وسنتين»[2].

---

(١) الكواكب الدرية عن كتاب الحافظ أحمد بن تيمية للشيخ أبي الحسن الندوي ٣٩.
(٢) البداية والنهاية ١٣/٣٠٣.

وقد أجمعت المصادر العلمية التاريخية على سمو مكانته العلمية وقوة حجته وتعمقه في علوم الشريعة من العقائد والأخلاق والحديث والتفسير والفقه والأصول واللغة، ويعد الإمام من الأئمة المجتهدين وإن انتسب إلى المذهب الحنبلي قال عنه تلميذه الإمام الذهبي انه «مجتهد مطلق»[1] وقد أقر له بالمنزلة العلمية العالية علماء عصره ومن تلاهم حتى خصومه لم يخل منهم من اعترف له بذلك يقول الإمام الحافظ الذهبي أيضا:

قرأت بخط الشيخ العلامة شيخنا كمال الدين بن الزملكاني، ما كتبه سنة بضع وتسعين تحت اسم «ابن تيمية» كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع: أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحدا لا يعرفه مثله.
وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جالسوه استفادوا منه في مذهبهم أشياء، ولا يعرف أنه ناظر أحدا فانقطع منه، ولا تكلم في علم من العلوم ـ سواء كان من علوم الشرع أو غيرها ـ إلا فاق فيه أهله، واجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها.

وقال الذهبي في معجمه المختصر: وكان إماما متبحرا في علوم الديانة، صحيح الذهن، سريع الإدراك، سيال الفهم، كثير المحاسن، موصوفا بفرط الشجاعة والكرم، فارغا عن شهوات المأكل والملبس والجماع، لا لذة له في غير نشر العلم وتدوينه. والعمل بمقتضاه.

قلت: وقد عرض عليه قضاء القضاة قبل التسعين، ومشيخة الشيوخ، فلم يقبل شيئا من ذلك. قرأت ذلك بخطه.

قال الذهبي: ذكره أبو الفتح اليعمري الحافظ ـ يعني ابن سيد الناس ـ في جواب سؤالات أبي العباس بن الدمياطي الحافظ، فقال: ألفيته ممن أدرك من العلوم حظا. وكاد يستوعب السنن والآثار حفظا، إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته، وإن أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر بالحديث فهو صاحب علمه، وذو

(١) تذكرة الحفاظ ١/٦٣.

روايته، أو حاضر بالنحل والملل لم ير أوسع من نحلته، ولا أرفع من درايته. برز في كل فن على أبناء جنسه، ولم تر عين من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه.

وقد كتب الذهبي في تاريخه الكبير للشيخ ترجمة مطولة، وقال فيها: وله خبرة تامة بالرجال، وجرحهم وتعديلهم، وطبقاتهم، ومعرفة بفنون الحديث، وبالعالي والنازل، والصحيح والسقيم، مع حفظه لمتونه، الذي انفرد به، فلا بلغ أحد في العصر رتبته، ولا يقاربه، وهو عجيب في استحضاره، واستخراج الحجج منه، وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستة، والمسند، بحيث يصدق عليه أن يقال: كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث.

وقال: ولما كان معتقلا بالإسكندرية: التمس منه صاحب سبتة أن يجيز لأولاده، فكتب لهم في ذلك نحواً من ستمائة سطر، منها سبعة أحاديث بأسانيدها، والكلام على صحتها ومعانيها، وبحث وعمل ما إذا نظر فيه المحدث خضع له من صناعة الحديث. وذكر أسانيده في عدة كتب. ونَبَّه على العوالي. عمل ذلك كله من حفظه، من غير أن يكون عنده ثَبَت أو من يراجعه.

ولقد كان عجيباً في معرفة علم الحديث. فأما حفظه متون الصحاح وغالب متون السنن والمسند: فما رأيت من يُدانيه في ذلك أصلا.

قال: وأما التفسير فمسلم إليه. وله من استحضار الآيات من القرآن ـ وقت إقامة الدليل بها على المسألة ـ قوة عجيبة. وإذا رآه المقرىء تحير فيه. ولفرط إمامته في التفسير، وعظم اطلاعه. يبين خطأ كثير من أقوال المفسرين. ويُوهي أقوالا عديدة. وينصر قولا واحداً، موافقا لما دل عليه القرآن والحديث. ويكتب في اليوم والليلة من التفسير، أو من الفقه، أو من الأصلين، أو من الرد على الفلاسفة والأوائل: نحواً من أربعة كراريس أو أزيد.

قلت: وقد كتب «الحموية» في قعدة واحدة. وهي أزيد من ذلك. وكتب في بعض الأحيان في اليوم ما يبيض منه مجلد.

وكان رحمه الله فريد دهره في فهم القرآن. ومعرفة حقائق الإيمان. وله يد

طولى في الكلام على المعارف والأحوال. والتمييز بين صحيح ذلك وسقيمه. ومعوجه وقويمه.

وقد كتب ابن الزملكاني بخطه على كتاب «إبطال التحليل» للشيخ ترجمة الكتاب واسم الشيخ. وترجم له ترجمة عظيمة. وأثنى عليه ثناء عظيما. وكتب أيضاً تحت ذلك:

ماذا يقول الواصفون له ... وصفاته جلَّتْ عن الحصر
هو حجة لله قاهرة ... هو بيننا أعجوبة الدهر
هو آية للخلق ظاهرة ... أنوارها أربت على الفجر

وللشيخ أثير الدين أبي حيان الأندلسي النحوي ـ لما دخل الشيخ مصر واجتمع به ـ ويقال: إن أبا حيان لم يقل أبياتا خيرا منها ولا أفحل:

لما رأينا تقي الدين لاح لنا ... داع إلى الله فرداً ماله وزر
على محياه من سيما الأولى صحبوا ... خير البرية نور دونه القمر
حبْر تسربل منه دهره حِبَراً ... بحر تقاذفُ من أمواجه الدرر
قام ابن تيمية في نصر شرعتنا ... مقام سيِّد تَيْمٍ إذْ عَصَتْ مضر
فأظهر الدين إذْ آثاره درست ... وأخمد الشرك إذ طارت له شرر
يا من تحدث عن علم الكتاب أصِخْ ... هذا الإمام الذي قد كان ينتظر

وحكى الذهبي عن الشيخ: أن الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد قال له ـ عند اجتماعه به وسماعه لكلامه ـ: ما كنت أظن أن الله بقى يخلق مثلك.

ومما وجد في كتاب كتبه العلامة قاضي القضاة أبو الحسن السبكي إلى الحافظ أبي عبدالله الذهبي في أمر الشيخ تقي الدين المذكور: أما قول سيدي في الشيخ فالمملوك يتحقق كبر قدره. وزخارة بحره. وتوسعه في العلوم الشرعية والعقلية. وفرط ذكائه واجتهاده. وبلوغه في كل من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف. والمملوك يقول ذلك دائماً. وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجلّ. مع ما جمعه الله له من الزهادة والورع والديانة. ونصرة الحق. والقيام فيه لا لغرض سواه. وجريه على سنن السلف. وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى. وغرابة مثله في هذا الزمان. بل من أزمان.

وكان الحافظ أبو الحجاج المزى: يبالغ في تعظيم الشيخ والثناء عليه، حتى كان يقول: لم يُر مثله منذ أربعمائة سنة.

وبلغني من طريق صحيح عن ابن الزملكاني: أنه سئل عن الشيخ؟ فقال: لم ير من خمسمائة سنة، أو أربعمائة سنة ـ الشك من الناقل. وغالب ظنه: أنه قال: من خمسمائة ـ أحفظ منه.

وكذلك كان أخوه الشيخ شرف الدين يبالغ في تعظيمه جدا، وكذلك المشايخ العارفون، كالقدوة أبي عبدالله محمد بن قوام. ويحكى عنه أنه كان يقول: ما أسلمت معارفنا إلا على يد ابن تيمية.

والشيخ عماد الدين الواسطى كان يعظمه جداً، وتتلمذ له، مع أنه كان أسن منه. وكان يقول: قد شارف مقام الأئمة الكبار، ويناسب قيامه في بعض الأمور قيام الصديقين.

وكتب رسالة إلى خواص أصحاب الشيخ يوصيهم بتعظيمه واحترامه، ويعرفهم حقوقه، ويذكر فيها: أنه طاف أعيان بلاد الإسلام، ولم ير فيها مثل الشيخ علما وعملا، وحالا وخلقا واتباعا، وكرما وحلما في حق نفسه، وقياما في حق الله تعالى، عند إنتهاك حرماته. وأقسم على ذلك بالله ثلاث مرات.

ثم قال: أصدق الناس عقدا، وأصحهم علما وعزما، وأنفذهم وأعلاهم في انتصار الحق وقيامه، وأسخاهم كفا، وأكملهم اتباعا لنبيه محمد ﷺ. ما رأينا في عصرنا هذا من تستجلى النبوة المحمدية وسننها من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل، بحيث يشهد القلب الصحيح: أن هذا هو الاتباع حقيقة.

ولكن كان هو وجماعة من خواص أصحابه ربما أنكروا من الشيخ كلامه في بعض الأئمة الأكابر، أو في أهل التخلي والانقطاع ونحو ذلك.

وكان الشيخ رحمه الله لا يقصد بذلك إلا الخير، والانتصار للحق إن شاء الله تعالى.

وطوائف من أئمة أهل الحديث وحفاظهم وفقائهم، كانوا يحبون الشيخ

ويعظمونه، ولم يكونوا يحبون له التوغل مع أهل الكلام ولا الفلاسفة، كما هو طريق أئمة أهل الحديث المتقدمين، كالشافعي وأحمد وإسحاق وأبي عبيد ونحوهم، وكذلك كثير من العلماء من الفقهاء والمحدثين والصالحين كرهوا له التفرد ببعض شذوذ المسائل التي أنكرها السلف على من شذ بها، حتى إن بعض قضاة العدل من أصحابنا منعه من الإفتاء ببعض ذلك.

قال الذهبي: وغالب حطه على الفضلاء والمتزهدة فبحق، وفي بعضه هو مجتهد، ومذهبه توسعة العذر للخلق، ولا يكفر أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه.

قال: ولقد نصر السنة المحضة، والطريقة السلفية، واحتج لها ببراهين ومقدمات، وأمور لم يسبق إليها، وأطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون وهابوا، وجسر هو عليها، حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قياما لا مزيد عليه، وبدَّعوه وناظروه وكابروه، وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي، بل يقول الحق المرَّ الذي أدَّاه إليه اجتهاده، وحدة ذهنه، وسعة دائرته في السنن والأقوال، مع ما اشتهر عنه من الورع، وكمال الفكر، وسرعة الإدراك، والخوف من الله، والتعظيم لحرمات الله.

فجرى بينه وبينهم حملات، ووقعات شامية ومصرية، وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة، فينجيه الله. فإنه دائم الابتهال، كثير الاستغاثة، والاستعانة به، قوي التوكل، ثابت الجأش، له أوراد وأذكار يُدْمنها بكيفية وجمعية. وله من الطرف الآخر محبون من العلماء والصلحاء، ومن الجند والأمراء، ومن التجار والكبراء، وسائر العامة تحبه؛ لأنه منتصب لنفعهم ليلا ونهارا، بلسانه وقلمه.

وله حدة قوية تعتريه في البحث، حتى كأنه ليث حَرِب. وهو أكبر من أن ينبه مثلي على نعوته. وفيه قلة مداراة، وعدم تؤدة غالبا، والله يغفر له. وله إقدام وشهامة، وقوة نفس توقعه في أمور صعبة، فيدفع الله عنه.

وله نظم قليل وسط. ولم يتزوج، ولا تسرى، ولا له من المعلوم إلا شيء قليل. وأخوه يقوم بمصالحه، ولا يطلب منهم غذاء ولا عشاء في غالب الوقت.

وما رأيت في العالم أكرم منه، ولا أفرغ منه عن الدينار والدرهم، لا يذكره، ولا أظنه يدور في ذهنه. وفيه مروءة، وقيام مع أصحابه، وسعي في مصالحهم. وهو فقير لا مال له. وملبوسه كآحاد الفقهاء.

وهو رَبْع القامة، بعيد ما بين المنكبين، كأن عينيه لسانان ناطقان، ويصلي بالناس صلاة لا يكون أطول من ركوعها وسجود. وربما قام لمن يجيء من سفر أو غاب عنه، وإذا جاء فربما يقومون له، الكل عنده سواء، كأنه فارغ من هذه الرسوم، ولم ينحن لأحد قط، وإنما يسلم ويصافح ويبتسم. وقد يعظم جليسه مرة، ويهينه في المحاورة مرات[1].

وقال عنه ابن كثير: قرأ بنفسه الكثير وطلب الحديث وكتب الطباق والإثبات ولازم السماع بنفسه مدة سنين، وقل أن سمع شيئا إلا حفظه، ثم اشتغل بالعلوم، وكان ذكيا كثير المحفوظ فصار إماما في التفسير وما يتعلق به عارفا بالفقه، فيقال إنه كان أعرف بفقه المذاهب من أهلها الذين كانوا في زمانه وغيره، وكان عالما باختلاف العلماء، عالما في الأصول والفروع والنحو واللغة، وغير ذلك من العلوم النقلية والعقلية، وما قطع في مجلس ولا تكلم معه فاضل في فن من الفنون إلا ظن أن ذلك الفن فنه، ورآه عارفا به متقناً له، وأما الحديث فكان حامل رايته حافظا له مميزاً بين صحيحه وسقيمه، عارفا برجاله متضلعاً من ذلك، وله تصانيف كثيرة وتعاليق مفيدة في الأصول والفروع، كمل منها جملة وبيضت وكتبت عنه وقرأت عليه أو بعضها، وجملة كبيرة لم يكملها، وجملة كملها ولم تبيض إلى الآن. وأثنى عليه وعلى علومه وفضائله جماعة من علماء عصره، مثل القاضي الخوبي، وابن دقيق العيد، وابن النحاس، والقاضي الحنفي قاضي قضاة مصر ابن الحريري وابن الزملكاني وغيرهم، وقد اثنى عليه ابن الزملكاني وكان عمره يومئذ نحو الثلاثين

---

(١) طبقات الحنابلة ١/٣٩٠ وما بعدها وتذكرة الحفاظ ٤/٣٨٩ والدرر الكامنة ١/١٧٨ وما بعدها والبدر الطالع ١/٦٤و٧١.

سنة، وكان بيني وبينه مودة وصحبة من الصغر، وسماع الحديث والطلب من نحو سنة، وله فضائل كثيرة.

ثم قال ابن كثير: وبالجملة كان رحمه الله من كبار العلماء، وممن يخطىء ويصيب، ولكن خطؤه إلى صوابه كنقطة في بحر لجي، وخطؤه أيضا مغفور له كما في صحيح البخاري: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»[1].

وقال فيه الإمام الشوكاني: أنا لا أعلم بعد ابن حزم مثله، وما أظنه سمح الزمان ما بين عصر الرجلين بمن شابهها أو يقاربهما[2].

وقال الإمام الذهبي أيضا: إنه عني بالحديث. وسمع «المسند» مرات، والكتب الستة، ومعجم الطبرانى الكبير، ومالا يحصى من الكتب والأجزاء. وقرأ بنفسه، وكتب بخطه جملة من الأجزاء، وأقبل على العلوم في صغره. فأخذ الفقه والأصول. عن والده، وعن الشيخ شمس الدين بن أبي عمر، والشيخ زين الدين بن المنجا. وبرع في ذلك، وناظر. وقرأ في العربية أياماً على سليمان بن عبد القوى، ثم أخذ كتاب سيبويه، فتأمله ففهمه. وأقبل على تفسير القرآن الكريم، فبرز فيه، وأحكم أصول الفقه، والفرائض، والحساب والجبر والمقابلة، وغير ذلك من العلوم، ونظر في علم الكلام والفلسفة، وبرز في ذلك على أهله، ورد على رؤسائهم وأكابرهم، ومهر في هذه الفضائل، وتأهل للفتوى والتدريس، وله دون العشرين سنة، وأفتى من قبل العشرين أيضا، وأمده الله بكثرة الكتب وسرعة الحفظ، وقوة الإدراك والفهم، وبُطء النسيان، حتى قال غير واحد: إنه لم يكن يحفظ شيئاً فينساه.

ثم توفي والده الشيخ شهاب الدين، المتقدم ذكره، وكان له حينئذ إحدى وعشرين سنة. فقام بوظائفه بعده. فدرس بدار الحديث السكرية في أول سنة ثلاث وثمانين وستمائة.

---

(١) البداية والنهاية ١٣/١٣٧ و ١٣٩.

(٢) البدر الطالع ١/٦٤.

وحضر عنده قاضي القضاة بهاء الدين بن الزكي. والشيخ تاج الدين الفزارى، وزين الدين بن المرجل. والشيخ زين الدين بن المنجا، وجماعة، وذكر درساً عظيماً في البسملة. وهو مشهور بين الناس، وعظمه الجماعة الحاضرون، وأثنوا عليه ثناء كثيراً.

قال الذهبي: وكان الشيخ تاج الدين الفزارى، يبالغ في تعظيمه الشيخ تقي الدين، بحيث إنه علق بخطه درسه بالسكرية.

ثم جلس عقب ذلك مكان والده بالجامع على منبر أيام الجمع، لتفسير القرآن العظيم، وشرع من أول القرآن. فكان يورد من حفظه في المجلس نحو كراسين أو أكثر، وبقي يفسر في سورة نوح، عدة سنين أيام الجمع[١].

شيوخه:

لقد كون الإمام ابن تيمية حصيلته العلمية عن طريق التلقي من علماء عصره، وكان عصرا زاخرا بكبار العلماء في شتى علوم الشريعة العربية كما أنه اطلع على المدونات من الكتب، وقد كثرت في عصره المدونات، وقد أفاد من هذه الكتب شيئا كثيرا إلى جانب السماع والتلقي عن شيوخه وقد كان والده هو أول شيخ له كما سبقت الإشارة له، فقد كانت له حلقة في الجامع الأموي، وكان من العلماء المعدودين، وقد لازم ابن تيمية والده إلى أن بلغ سن الحادية والعشرين حين توفي والده. وقد سمع ابن تيمية من أكثر من مائتي شيخ. كما سبقت الإشارة.

قال الذهبي: سمع الشيخ من ابن عبدالدايم، وابن أبي اليسر، وابن عبد، والمجد ابن عساكر، ويحيى بن الصيرفي الفقيه، وأحمد بن أبي الخير الحداد، والقاسم الأربلي، والشيخ شمس الدين بن أبي عمر، والمسلم بن علان، وإبراهيم بن الدرجى، وخلق كثير[٢].

---

(١) طبقات الحنابلة ١/٣٨٧.

(٢) طبقات الحنابلة ١/٣٨٧.

وأما تلاميذه فكثيرون لا يحصون، أشهرهم الإمام ابن عبدالهادي، محمد بن أحمد عبدالهادي بن عبدالحميد بن قدامة، المتوفى سنة ٧٤٤هـ.

والإمام الحافظ الحجة ابو عبدالله شمس الدين محمد الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨هـ والإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي، ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ وهو خليفته من بعده وحامل علمه ومدونه وناشره.

كتبـــه:

قال صاحب فوات الوفيات: «إنها تبلغ ثلاثمائة مجلد»[1] ولعل أهم كتبه: اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، ومجموع فتاوى بن تيمية، والصارم المسلول على شاتم الرسول، والصارم المسلول في بيان واجبات الأمة نحو الرسول، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، والجوامع في السياسة الإلهية والآيات النبـوية، والسياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ورسائل شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية، ومنهاج السنة النبوية في نقد كلام الشيعة والقدرية، وفصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ومنهـاج التفسـير وكتـاب الايمان، وكتـاب الاستقامة، وشرح الاصبهانية ونقد المنطق، وله قسم في المسودة في أصول الفقه.

وأما رسائله فمنها: الحموية، والتدمرية، والواسطية، والكيلانية والبغدادية، والبعلبكية، والأزهرية، والاكليل، ورسالة مراتب الإرادة، ورسالة القضاء والقدر، وبيان الهدى والضلال، ومعتقدات أهل الضلال، ومعارج الوصول والسؤال عن العرش، وبيان الفرقة الناجية[2].

---

(١) فوات الوفيات ١/٣٥.

(٢) ينظر مجمل ذلك في الأعلام للزركلي ١/٤٣ وفوات الوفيات ١/٣٥ والذيل على طبقات الحنابلة ١/٤٠٤ وانظر تحليلا قيما لكتبه في كتاب ابن تيمية للشيخ محمد أبي زهرة اهـ وانظر الفتح المبين في طبقات الأصوليين ٣/١٣٢.

جهاد ابن تيمية في ميادين القتال:

لقد كان للإمام ابن تيمية مساهمات مؤثرة وقيادية في المواقف والقضايا الجهادية، تبين من أي نوع كان هذا الامام المجتهد، ونلقي فيما يلي الضوء على هذا الجانب من حياة ومساهمات شيخ الإسلام، فقد تجمعت جيوش التتار سنة ٦٩٩هـ تريد دخول الشام بقيادة قازان حاكم التتار في العراق وفارس، وفي ٢٧ من ربيع الأول بدأت الحروب ضارية بين المسلمين والتتار. وقد أبلى المسلمون بقيادة السلطان الناصر بن قلاوون بلاء حسنا ولكنهم هزموا آخر الأمر، فرجعت جيوش السلطان إلى مصر، وتجمع المسلمون في دمشق، وقد اضطرب المسلمون وعم الخوف والفزع الأهالي، وبدأ أهل دمشق يخرجون منها تحسبا لدخول التتار وتدمير دمشق وقتل من فيها، حتى الفقهاء كثير منهم غادر دمشق أمثال قاضي الشافعية وقاضي المالكية ووالي البلاد والمحتسب، وحكام الأقاليم، وغلت الأسعار، وأغلقت الحدود، وخرج المساجين من السجون ينهبون المتاجر، ووسط هذا الهرج والمرج كان ابن تيمية من العلماء القلائل الذين ثبتوا، ونشط ابن تيمية في معالجة الوضع فدعا أعيان البلاد وكون وفدا للقاء قازان لأخذ الأمان منه لأهل الشام. ، وقد تم هذا اللقاء يوم الاثنين ٣ ربيع الآخر سنة ٦٩٩هـ وكان ابن تيمية رئيس الوفد ويروي أحد المرافقين لابن تيمية ما جرى في هذا اللقاء فيقول:

«كنت حاضرا مع الشيخ فجعل يحدث السلطان بقول الله ورسوله في العدل وغيره ويرفع صوته على السلطان ويقرب منه في أثناء حديثه، حتى لقد قرب أن تلاصق ركبته ركبة السلطان، والسلطان مع ذلك مقبل عليه بكلية مصغ لما يقول، شاخص اليه لا يعرض عنه، وإن السلطان من شدة ما أوقع الله له في قلبه من المحبة والهيبة، سأل من هذا الشيخ؟ فإني لم أر مثله، ولا أثبت قلبا منه، ولا أوقع من حديثه في قلبي، ولا رأيتني أعظم انقيادا لأحد منه، فأخبر بحاله وما هو عليه من العلم والعمل، فقال الشيخ للترجمان، قل للقازان: «أنت تزعم أنك مسلم، ومعك قاضٍ وإمام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا فغزوتنا، وأبوك وجدك كانا كافرين،

وما عملا الذي عملت، عاهدا فوفيا، وأنت عاهدت فغدرت، وقلت فما وفيت وجرت».

وأخبر قاضي القضاة أبو العباس: أنهم لما حضروا مجلس قازان، قدم لهم طعام فأكلوا منه، إلا ابن تيمية، فقيل لم لا تأكل؟ فقال كيف آكل من طعامك، وكله مما نهبتم من أغنام الناس طبختموه بما قطعتم من أشجار الناس؟ ثم إن قازان طلب منه الدعاء، فقال في دعائه: اللهم إن كنت تعلم أنه إنما قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، وجاهد في سبيلك، فإن تؤيده وتنصره، وان كان للملك والدنيا، والتكاثر فإن تفعل به، وتصنع، فكان يدعو عليه، وقازان يؤمن على دعائه، ونحن نجمع ثيابنا خوفا أن يقتل فيطرطس بدمه، ثم لما خرجنا قلت له كدت تهلكنا معك، ونحن ما نصحبك من هنا فقال: وأنا لا أصحبكم، فانطلقنا عصبة، وتأخر فتسامعت به الخوانين والأمراء، فأتوه من كل فج عميق، وصاروا يتلاحقون به ليتبركوا برؤيته، فما وصل إلا في نحو ثلاث مائة فارس في ركابه، وأما نحن فخرج علينا جماعة فشلحونا[1].

ورغم ما تم من الاتفاق في هذا اللقاء إلا أن التتر استمروا في السلب والنهب وإلحاق الدمار بكل شيء، ولما رأى ابن تيمية ذلك خرج في جماعة من أصحابه في ٢٥ من ربيع الآخر ليلتقي ملك التتر قازان، وانتظره يومين ولكن لم يتمكن من لقائه، ثم بلغ سوء الحالة مبلغه، يصف ابن كثير هذه الحالة فيقول: «وكانت الطرقات لا يرى بها أحد إلا القليل، والجامع لا يصلي فيه أحد إلا اليسير، ويوم الجمعة لا يتكامل فيه الصف الأول وما بعده إلا بجهد جهيد، ومن يخرج من منزله في ضرورة يخرج بثياب زيهم، ثم يعود سريعا، ويظن أنه لا يعود إلى أهله»[2].

ولم ترفع هذه الغمة إلا بخروج جيوش السلطان محمد بن قلاوون لإنقاذ بلاد الشام، ولم يكن بالبلد أحد في ذلك الوقت من الحكام والمسئولين وكانت أسوار البلد متهدمة من غارة التتر، فنادى أرجواش، نائب القلعة: احفظوا الأسوار والأبواب،

---

(١) الكواكب الدرية عن كتاب الحافظ أحمد بن تيمية للشيخ أبي الحسن الندوى ٥١.
(٢) البداية والنهاية ١٤/٩.

لا يبيتن أحد إلا أن يحرس السور مسلحا، فاجتمع الناس على الأسوار لحفظ البلاد، وكان الشيخ ابن تيمية يدور كل ليلة على الأسوار يحرض الناس على الصبر والقتال ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط[1].

وقد تراجع التتر عند قدوم جيش السلطان محمد بن قلاوون وفرح الناس وارتفعت المحنة، وقد قام ابن تيمية وجماعته بأدوار إصلاحية كبيرة بعد خروج التتر لإصلاح عقائد وأخلاق الناس، وكان لسعيه وجهده وتغييره للمنكر وقعا حسنا لدى الناس جميعا.

دور ابن تيمية في الحرب الفاصلة مع التتر:

في رجب سنة ٧٠٢هـ قويت الأخبار بعزم التتار على دخول بلاد الشام، فانزعج الناس لذلك واشتد خوفهم جدا، وقنت الخطيب في الصلوات، وقرىء صحيح البخاري، وشرع الناس في الجفل إلى الديار المصرية والكرك والحصون المنيعة، وتأخر مجيء العساكر المصرية عن إبانها فاشتد لذلك الخوف، وفي ثامن عشر من رجب قدمت طائفة كبيرة من جيش المصريين بقيادة الأمراء الأتراك المشهورين، وتلتها طائفة أخرى فقويت القلوب واطمأن كثير من الناس، ولكن الناس في جفل عظيم من بلاد حلب وحماة وحمص وتلك النواحي، وتحدث الناس بالأراجيف فاجتمع الأمراء بالميدان وتحالفوا على لقاء العدو وشجعوا أنفسهم، ونودي بالبلد أن لا يرحل أحد منه، وتوجه ابن تيمية إلى العسكر الواصل من حماة فاجتمع بهم في القطيعة فأعلمهم بما تحالف عليه الأمراء والناس من لقاء العدو فأجابوه إلى ذلك وحلفوا معهم، وكان الشيخ يحلف للأمراء والناس: إنكم في هذه الكرة منصورون فيقول له الأمراء، قل إن شاء الله ـ فيقول: إن شاء الله تحقيقا لا تعليقا، ويقول نحن مظلومون، والمظلوم منصور «ومن بغي عليه لينصرنه الله»، ولذلك فإن النصر مؤكد، والفتح قريب، وان وعد الله كان مفعولا»[2].

---

(١) المرجع السابق ١٤/١١.

(٢) البداية والنهاية ١٤/١٦.

وفي ثاني رمضان اصطف الجيشان في ساحة شقحب، وأفتى ابن تيمية بالفطر مدة قتالهم، وأفطر هو أيضا، وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده ليعلمهم أن إفطارهم ليتقووا على القتال أفضل، وكان يقرأ لهم حديث الرسول ﷺ «إنكم ملاقو العدو غدا، والفطر أقوى لكم».

ولما ابتدأت الحرب والتحم الفريقان ثبت السلطان ثباتا عظيما، وكان الخليفة العباس أبو الربيع سليمان في صحبته، وأمر السلطان بجواده فقيد حتى لا يهرب، وبايع الله تعالى في ذلك الموقف، وجرت خطوب عظيمة وقتل جماعة من سادات الأمراء يومئذ، ولكن نزل النصر على المسلمين واستظهروا على التتر، فلما جاء الليل لجأ التتر إلى اقتحام التلول والجبال والآكام، فأحاط بهم المسلمون يحرسونهم من الحرب، ويرمونهم عن قوس واحدة إلى وقت الفجر فقتل منهم ما لا يعلم عدده إلا الله، وجعلوا يجيئون بهم في الحبال فتضرب أعناقهم ثم كانوا يتساقطون في الأودية والمهالك، وغرق منهم جماعة في الفرات بسبب الظلام.

وفي يوم الاثنين رابع رمضان دخل ابن تيمية في دمشق ففرح به الناس ودعوا له وهنئوه بما يسير الله على يديه من الخير، ودخل السلطان إلى دمشق يوم الثلاثاء خامس رمضان ومعه الخليفة والعساكر منتصرين فرحين، واستقرت الخواطر، وذهب اليأس وطابت قلوب الناس[1].

جهاد ابن تيمية في ميادين العلم:

حين فرغ ابن تيمية من جهوده في ميادين الجهاد، واندحر العدو بدأ دوره الثقافي والعلمي في محاربة المنكرات والبدع وصور الشرك وكان أسلوبه يتسم بالجرأة والوضوح وقوة الحجة، في وقت تقاعس كثير من علماء عصره عن نصر السنة ومقاومة البدع والمنكرات خوفا من الولاة أو من العامة الذين الفوا كثيرا من العادات والاعتقادات الخاطئة. وقد كان لسعيه وجهوده فضل وخير كبيران فقد تاب كثير من الجهال والمجرمين والمنحرفين على يديه.

---

(١) حياة شيخ الاسلام ابن تيمية للشيخ أبي الحسن الندوي ٦٠ و٦١.

ونذكر ههنا موقفه من الفرق الضالة ومحاربته لهم.

فيذكر أن قبائل الروافض في جبال الجرد (من الباطنية والإسماعيلية والحاكمية والنصيرية) أصابوا المسلمين بأضرار، وجاهروا في إيذائهم ومعارضتهم، وهم الذين دعوا الصليبيين والتتر للعدوان على البلاد الإسلامية، ووفروا كل نوع من التسهيلات، واستباحوا كل فرصة لاستغلال ضعف المسلمين وقلة وسائلهم، ونالوا من أعراضهم وأموالهم، وأذلوهم حتى باعوهم بيد الأعداء كالغنم.

لقد شاهد كل ذلك ابن تيمية، فكان يعيش في تألم شديد وقلق عظيم جدا، وكان قلبه الغيور يشعر بشدة هذا التألم، إنه لم يكن ليعفو عن هؤلاء الخساس الأشرار، ولم يكن ليرضى بالتغاضي عن هؤلاء المنافقين، الذين أصابوا المسلمين بالذلة والتضييق في ساعة حرجة جدا، وساعدوا أعداءهم ونصروهم، وقد أراد ابن تيمية أن لا يترك المجرمين إلا ويذيقهم عقاب أعمالهم، وأن يسد في وجوههم كل طريق يتسللون منه إلى المسلمين بإيلام أو إيذاء عند أي حرب أو ساعة حرجة، إنه استلفت نظر السلطان الناصر (سلطان مصر والشام) إلى هذه المهمة، وأخبره بخطرهم ونواياهم الفاسدة، وقد قال في رسالة وجهها إلى السلطان:

«ولما قدم التتار إلى البلاد وفعلوا بمعسكر المسلمين ما لا يحصى من الفساد، وأرسلوا إلى أهل قبرص فملكوا بعض الساحل، وحملوا راية الصليب، وحملوا إلى قبرص من خيل المسلمين وسلاحهم وأسراهم ما لا يحصى عدده إلا الله، وأقام سوقهم بالساحل عشرين يوما يبيعون فيه المسلمين والخيل والسلاح على أهل قبرص (أي الصليبيين المحاربين للمسلمين) وفرحوا بمجيء التتار... ولما خرجت العساكر الإسلامية من الديار المصرية ظهر فيهم من الخزي والنكال ما عرفه الناس منهم، ولما نصر الله الإسلام النصرة العظمى عند قدوم السلطان كان بينهم شبيه بالعزاء... كل هذا وأعظم منه عند هذه الطائفة، كان من أسباب خروج جنكسخان إلى بلاد الإسلام، وفي استيلاء هولاكو على بغداد وفي قدومه إلى حلب وفي نهب الصالحية وغير ذلك من أنواع العداوة للإسلام وأهله.

ويقول فيها أيضا: ولقد كان جيرانهم من أهل البقاع وغيرها منهم في أمر لا

يضبط شره، كل ليلة تنزل منهم طائفة ويفعلون من الفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد، كانوا في قطع الطرقات وإخافة سكان البيوتات على أقبح سيرة عرفت من أهل الجنايات يرد إليهم النصارى من أهل قبرص فيضيفونهم ويعطونهم سلاح المسلمين ويقعون بالرجل الصالح من المسلمين، فإما أن يقتلوه، وإما أن يسلبوه، وقليل منهم من يفلت بالحيلة.

وفي ثاني محرم عام ٧٠٥هـ توجه ابن تيمية في طائفة من الجيش لغزو أولئك المفسدين الملحدين، وسار إلى بلاد الجرد والرفض والتيامنة فخرج نائب السلطنة الأفرم بنفسه بعد خروج الشيخ لغزوهم، فنصرهم الله عليهم وأبادوا خلقا كثيرا منهم ومن فرقتهم الضالة ووطئوا أراضي كثيرة من صنع بلادهم، وقد أفتى ابن تيمية أنه يجوز قطع أشجارهم ونخيلهم كبني النضير، لأنهم يتخذونها كمينا يتسترون فيه، ويجعلونها قواعد للحرب والمؤامرة على المسلمين، وقد حصل بسبب شهود الشيخ، هذه الغزوة خير كثير، وأبان الشيخ علما وشجاعة فيها، وقد امتلأت قلوب أعدائه حسدا له وغما[1].

وقد تعرض ابن تيمية إلى محن كثيرة في سبيل نشر العلم وتصحيح عقائد الناس، ولكن كان ثابتا قويا في هذا الميدان ثبوته في ميدان الجهاد ويمكن أن نلخص أهم ما واجهه شيخ الإسلام ابن تيمية من محن في هذا السبيل في الآتي، اعتمادا على ما ذكره الإمام ابن رجب الحنبلي:

فإنه لما صنف المسألة «الحموية» في الصفات: شنع بها جماعة، ونودي عليها في الأسواق على قصبة، وأن لا يستفتى من جهة بعض القضاة الحنفية. ثم انتصر للشيخ بعض الولاة، ولم يكن في البلد حينئذ نائب، وضرب المنادي وبعض من معه، وسكن الأمر.

ثم امتحن سنة خمس وسبعمائة بالسؤال عن معتقده بأمر السلطان؟ فجمع

---

(١) البداية والنهاية ١٤/٣٥ وابن تيمية للشيخ محمد أبي زهرة ٤٥ وحياة شيخ الاسلام ابن تيمية ٦٤و٦٥.

نائبه القضاة والعلماء بالقصر، وأحضر الشيخ، وسأله عن ذلك؟ فبعث الشيخ من أحضر من دار «العقيدة الواسطية» فقرءوها في ثلاث مجالس، وحافقوه، وبحثوا معه، ووقع الاتفاق بعد ذلك على أن هذه عقيدة سنية سلفية، فمنهم من قال ذلك طوعا، ومنهم من قاله كرها.

وورد بعد ذلك كتاب من السلطان فيه: إنما قصدنا براءة ساحة الشيخ، وتبين لناأنه على عقيدة السلف.

ثم إن المصريين دبروا الحيلة في أمر الشيخ، ورأوا أنه لا يمكن البحث معه، ولكن يعقد له مجلس، ويدعى عليه، وتقام عليه الشهادات. وكان القائمون في ذلك منهم: بيبرس الجاشنكير، الذي تسلطن بعد ذلك، ونصر المنبجي وابن مخلوف قاضي المالكية، فطلب الشيخ على البريد إلى القاهرة، وعقد له ثاني يوم وصوله - وهو ثاني عشرين رمضان سنة خمس وسبعمائة - مجلس بالقلعة، وادعى عليه عند ابن مخلوف قاضي المالكية، أنه يقول: إن الله تكلم بالقرآن بحرف وصوت، وأنه على العرش بذاته، وأنه يشار إليه بالإشارة الحسية.

وقال المدعي: اطلب تعزيزه على ذلك، التعزيز البليغ - يشير إلى القتل على مذهب مالك - فقال القاضي: ما تقول يا فقيه؟ فحمد الله وأثنى عليه، فقيل له: اسرع ما جئت لتخطب، فقال: أأمنع من الثناء على الله تعالى؟ فقال القاضي: أجب، فقد حمدت الله تعالى. فسكت الشيخ، فقال: أحب. فقال الشيخ له: من هو الحاكم في؟ فأشاروا: القاضي هو الحاكم، فقال الشيخ لابن مخلوف: أنت خصمي، كيف تحكم في؟ وغضب، ومراده: إني وإياك متنازعان في هذه المسائل، فكيف يحكم أحد الخصمين على الآخر فيها؟ فأقيم الشيخ ومعه أخواه، ثم رد الشيخ، وقال: رضيت أن تحكم في، فلم يمكن من الجلوس، ويقال: إن أخاه الشيخ شرف الدين ابتهل، ودعا الله عليهم في حال خروجهم، فمنعه الشيخ، وقال له: بل قل: اللهم هب لهم نورا يهتدون به إلى الحق.

ثم حبسوا في برج أياما، ونقلوا إلى الجب ليلة عيد الفطر، ثم بعث كتاب سلطاني إلى الشام بالحط على الشيخ، وإلزم الناس - خصوصا أهل مذهبه - بالرجوع

عن عقيدته، والتهديد بالعزل والحبس، ونودي بذلك في الجامع والأسواق. ثم قرىء الكتاب بسدة الجامع بعد الجمعة، وحصل أذى كثير للحنابلة بالقاهرة، وحبس بعضهم، وأخذ خطوط بعضهم بالرجوع. وكان قاضيهم الحراني قليل العلم.

ثم في سلخ رمضان سنة ست: أحضر سلار ـ نائب السلطان بمصر ـ القضاة والفقهاء، وتكلم في إخراج الشيخ، فاتفقوا على أنه يشترط عليه أمور، ويلزم بالرجوع عن بعض العقيدة، فأرسلوا إليه من يحضره، وليتكلموا معه في ذلك، فلم يجب إلى الحضور، وتكرر الرسول إليه في ذلك ست مرات، وصمم على عدم الحضور، فطال عليهم المجلس، فانصرفوا من غير شيء.

ثم في آخر هذه السنة وصل كتاب إلى نائب السلطنة بدمشق من الشيخ، فأخبر بذلك جماعة ممن حضر مجلسه، وأثنى عليه: وقال: ما رأيت مثله، ولا أشجع منه. وذكر ما هو عليه في السجن: من التوجه إلى الله تعالى، وأنه لا يقبل شيئا من الكسوة السلطانية، ولا من الأدرار السلطاني، ولا تدنس بشيء من ذلك.

ثم في ربيع الأول من سنة سبع وسبعمائة دخل مهنا بن عيسى أمير العرب إلى مصر، وحضر بنفسه إلى السجن، وأخرج الشيخ منه، بعد أن استأذن في ذلك، وعقد للشيخ مجالس حضرها أكابر الفقهاء، وانفصلت على خير.

وذكر الذهبي والبرزالي وغيرهما: أن الشيخ كتب لهم بخطة مجملا من القول وألفاظا فيها بعض ما فيها، لما خاف وهدد بالقتل، ثم أطلق وامتنع من المجىء إلى دمشق. وأقام بالقاهرة يقرىء العلم، ويتكلم في الجوامع والمجالس العامة، ويجتمع عليه خلق.

ثم في شوال من السنة المذكورة: اجتمع جماعة كثيرة من الصوفية، وشكوا من الشيخ إلى الحاكم الشافعي، وعقد له مجلس لكلامه في ابن عربي وغيره، وادعى عليه ابن عطاء بأشياء، ولم يثبت منها شيئا، لكنه اعترف أنه قال: لا يستغاث بالنبي ﷺ، استغاثة بمعنى العبادة، ولكن يتوسل به، فبعض الحاضرين قال: ليس في هذا شيء.

ورأى الحاكم ابن جماعة: أن هذا إساءة أدب، وعنفه على ذلك، فحضرت رسالة إلى القاضي: أن يعمل معه ما تقتضيه الشريعة في ذلك، فقال القاضي: قد قلت له ما يقال لمثله.

ثم إنهم خيروه بين أشياء ، وهي الإقامة بدمشق ، أو بالاسكندرية ، بشروط، أو الحبس، فاختار الحبس. فدخل عليه أصحابه في السفر إلى دمشق، ملتزما ما شرط عليه، فأجابهم، فأركبوه خيل البريد، ثم زدوه في الغد، وحضر عند القاضي بحضور جماعة من الفقهاء،فقال له بعضهم: ما ترضى الدولة إلا بالحبس. فقال القاضي: وفيه مصلحة له، واستناب التونسي المالكي وأذن له أن يحكم عليه بالحبس، فامتنع، وقال: ما ثبت عليه شيء، فأذن لنور الدين الزواوي المالكي، فتحير، فقال الشيخ: أنا أمضي إلى الحبس، وأتبع ما تقتضيه المصلحة، فقال الزووي المذكور: فيكون في موضع يصلح لمثله، فقيل له: ما ترضى الدولة إلا بمسمى الحبس، فأرسل إلى حبس القاضي وأجلس في الموضع الذي أجلس فيه القاضي تقي الدين ابن بنت الأعز لما حبس، وأذن أن يكون عنده من يخدمه. وكان جميع ذلك بإشارة نصر المنبجي.

واستمر الشيخ في الحبس يستفتي ويقصده الناس، ويزورونه، وتأتيه الفتاوى المشكلة من الأمراء وأعيان الناس.

وكان أصحابه يدخلون عليه أولا سرا، ثم شرعوا يتظاهرون بالدخول عليه، فأخرجوه في سلطنة الششنكير الملقب بالمظفر، إلى الاسكندرية على البريد، وحبس فيها في برج حسن مضيء متسع، يدخل عليه من شاء، ويمنع هو من شاء، ويخرج إلى الحمام إذا شاء. وكان قد أخرج وحده، وأرجف الأعداء بقتله وتفريقه غير مرة، فضاقت بذلك صدور محبيه بالشام وغيره، وكثر الدعاء له. وبقي في الاسكندرية مدة سلطنة المظفر.

فلما عاد الملك الناصر إلى السلطنة وتمكن، وأهلك المظفر، وحمل شيخه نصر المنبجي، واشتدت موجدة السلطان على القضاة لمداخلتهم المظفر، وعزل بعضهم:

بادر بإحضار الشيخ إلى القاهرة مكرما في شوال سنة تسع وسبعمائة، وأكرمه السلطان إكراما زائدا، وقام إليه، وتلقاه في مجلس حفل، فيه قضاة المصريين والشاميين، والفقهاء وأعيان الدولة. وزاد في إكرامه عليهم، وبقي يساره ويستشيره سويعة، وأثنى عليه بحضورهم ثناء كثيرا، وأصلح بينه وبينهم. ويقال: إنه شاوره في أمرهم به في حق القضاة، فصرفه عن ذلك، وأثنى عليهم، وأن ابن مخلوف كان يقول: ما رأينا أفتى من ابن تيمية، سعينا في دمه، فلما قدر علينا عفا عنا.

واجتمع بالسلطان مرة ثانية بعد أشهر، وسكن الشيخ بالقاهرة، والناس يترددون إليه، والأمراء والجند، وطائفة من الفقهاء، ومنهم من يعتذر إليه ويتنصل مما وقع.

قال الذهبي: وفي شعبان سنة إحدى عشرة: وصل النبأ: أن الفقيه البكري ـ أحد المبغضين للشيخ ـ استفرد بالشيخ بمصر، ووثب عليه، ونتش بأطواقه، وقال: احضر معي إلى الشرع، فلي عليك دعوى. فلما تكاثر الناس انملص، فطلب من جهة الدولة، فهرب واختفى.

وذكر غيره: أنه ثار بسبب ذلك فتنة، وأراد جماعة الانتصار من البكري فلم يمكنهم الشيخ من ذلك.

واتفق بعد مدة: أن البكري هم السلطان بقتله، ثم رسم بقطع لسانه: لكثرة فضوله وجراءته، ثم شفع فيه، فنفي إلى الصعيد، ومنع من الفتوى بالكلام في العلم. وكان الشيخ في هذه المدة يقرىء العلم، ويجلس للناس في مجالس عامة.

قدم إلى الشام هو وإخوته سنة اثنتى عشرة بنية الجهاد، لما قدم السلطان لكشف التتر عن الشام. فخرج مع الجيش، وفارقهم من عسقلان، وزار البيت المقدس.

ثم دخل دمشق بعد غيبته عنها فوق سبع سنين، ومعه أخواه وجماعة من أصحابه، وخرج خلق كثير لتلقيه، وسر الناس بمقدمه، واستمر على ما كان عليه

أولا، من إقراء العلم، وتدريسه بمدرسة السكرية، والحنبلية، وإفتاء الناس ونفعهم.

ثم في سنة ثماني عشرة: ورد كتاب من السلطان بمنعه من الفتوى في مسألة الحلف بالطلاق بالتكفير، وعقد له مجلس بدار السعادة، ومنع من ذلك، ونودي به في البلد.

ثم في سنة تسع عشرة عقد له مجلس أيضا كالمجلس الأول، وقرىء كتاب السلطان بمنعه من ذلك، وعوتب على فتياه بعد المنع، وانفصل المجلس على تأكيد المنع.

ثم بعد مدة عقد له مجلس ثالث بسبب ذلك، وعوتب وحبس بالقلعة. ثم حبس لأجل ذلك مرة أخرى. ومنع بسببه من الفتيا مطلقا، فأقام مدة يفتي بلسانه، ويقول: لا يسعني كتم العلم.

وفي آخر الأمر: دبروا عليه الحيلة في مسألة المنع من السفر إلى قبور الأنبياء والصالحين، وألزموه من ذلك التنقص بالأنبياء، وذلك كفر، وأفتى بذلك طائفة من أهل الأهواء، وهم ثمانية عشر نفسا، رأسهم القاضي الإخناني المالكي وأفتى قضاة مصر الأربعة بحبسه، فحبس بقلعة دمشق سنتين وأشهرا. وبها مات رحمه الله تعالى.

وقد بين رحمه الله: أن ما حكم عليه به باطل بإجماع المسلمين من وجوه كثيرة جدا، وأفتى جماعة بأنه يخطىء في ذلك خطأ المجتهدين المغفور لهم، ووافقه جماعة من علماء بغداد، وغيرهم. وكذلك ابنا أبي الوليد شيخ المالكية بدمشق أفتيا: أنه لا وجه للاعتراض عليه فيما قاله أصلا، وأنه نقل خلاف العلماء في المسألة، ورجح أحد القولين فيها.

وبقي مدة في القلعة يكتب العلم ويصنفه، ويرسل إلى أصحابه الرسائل، ويذكر ما فتح الله به عليه في هذه المرة من العلوم العظيمة، والأحوال الجسيمة.

وقال: قد فتح الله علي في هذا الحصن في هذه المرة من معاني القرآن، ومن أصول العلم بأشياء، كان كثير من العلماء يتمنونها، وندمت على تضييع أكثر أوقاتي

في غير معاني القرآن، ثم إنه منع من الكتابة، ولم يترك عنده دواة ولا قلم ولا ورق، فأقبل على التلاوة والتهجد والمناجاة والذكر.

قال شيخنا أبو عبدالله ابن القيم: سمعت شيخنا شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه، ونور ضريحه، يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة. قال: و قال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، أين رحت فهي معي، لا تفـارقني، أنا حبسي خلوة. وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

وكان في حبسه في القلعة يقول: لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبا ما عدل عندي شكر هذه النعمة ـ أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير ـ ونحو هذا.

وكان يقول في سجوده، وهو محبوس: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، ما شاء الله.

وقال مرة: المحبوس من حبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه.

ولما دخل إلى القلعة، وصار داخل سورها نظر إليه. وقال (فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ)[1].

قال شيخنا: وعلم الله ما رأيت أحدا أطيب عيشا منه قط، مع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف، وهو مع ذلك أطيب الناس عيشا، وأشرحهم صدرا، وأقواهم قلبا، وأسرهم نفسا، تلوح نضرة النعيم على وجهه. وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت بنا الظنون، وضاقت بن ساالأرض: أتيناه، فما هو إلا أن نراه، ونسمع كلامه، فيذهب عنا ذلك كله، وينقلب انشراحا وقوة ويقينا وطمأنينة. فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها، والمسابقة إليها[2].

---

(١) سورة الحديد- آية ١٣.

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة ١/٣٩٦ وما بعدها وينظر البداية والنهاية ١٣/١٣٤ وما بعدها. وتذكرة الحفاظ ٤/٣٨٩ وما بعدها والدرر الكامنة ١/١٦٩ وما بعدها و١/١٨٤ وما بعدها والبدر الطالع ١/٦٥ وما بعدها.

وفـاتــه:

يروي ابن كثير وفاة شيخه ابن تيمية نقلا عن الشيخ علم الدين البرزالي أحد أصحاب الشيخ المقربين: في ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة توفي الشيخ الإمام العالم العلم العلامة الفقيه الحافظ الزاهد العابد المجاهد القدوة شيخ الاسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن شيخنا الإمام العلامة المفتي شهاب الدين أبي المحاسن عبدالحليم ابن الشيخ الإمام شيخ الإسلام أبي البركات عبدالسلام بن عبدالله بن أبي القاسم محمد بن الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبدالله بن تيمية الحراني ثم الدمشقي. بقلعة دمشق بالقاعة التي كان محبوسا بها، وحضر جمع كثير إلى القلعة، وأذن لهم في الدخول عليه، وجلس جماعة عنده قبل الغسل وقرؤا القرآن وتبركوا برؤيته وتقبيله، ثم انصرفوا، ثم حضر جماعة من النساء ففعلن مثل ذلك ثم انصرفن واقتصروا على من يغسله، فلما فرغ من غسله أخرج ثم اجتمع الخلق بالقلعة والطريق إلى الجامع وامتلأ الجامع أيضا وصحنه والكلاسة وباب البريد وباب الساعات إلى باب اللبادين والغوارة، وحضرت الجنازة في الساعة الرابعة من النهار أو نحو ذلك ووضعت في الجامع، والجند قد احتاطوا بها يحفظونها من الناس من شدة الزحام، وصلى عليه أولا بالقلعة، تقدم في الصلاة عليه أولا الشيخ محمد بن تمام، ثم صلى عليه بالجامع الأموي عقيب صلاة الظهر، وقد تضاعف اجتماع الناس على ما تقدم ذكره، ثم تزايد الجمع إلى أن ضاقت الرحاب والأزقة والأسواق بأهلها ومن فيها، ثم حمل بعد أن صلى عليه على الرءوس والأصابع، وخرج النعش به من باب البريد واشتد الزحام وعلت الأصوات بالبكاء والنحيب والترحم عليه والثناء والدعاء له، وألقى الناس على نعشه مناديلهم وعمائمهم وثيابهم، وذهبت النعال من أرجل الناس وقباقيبهم، ومناديل وعمائم لا يلتفتون إليها لشغلهم بالنظر إلى الجنازة، وصار النعش على الرءوس تارة يتقدم وتارة يتأخر، وتارة يقف حتى تمر الناس، وخرج الناس من الجامع من أبوابه كلها وهي شديدة الزحام، كل باب أشد

زحمة من الآخر، ثم خرج الناس من أبواب البلد جميعها من شدة الزحام فيها، لكن كان معظم الزحام من الأبواب الأربعة: باب الفرج الذي أخرجت منه الجنازة، وباب الفراديس، وباب النصر، وباب الجابية. وعظم الأمر بسوق الخيل وتضاعف الخلق وكثر الناس، ووضعت الجنازة هناك وتقدم للصلاة عليه هناك أخوه زين الدين عبدالرحمن، فلما قضيت الصلاة حمل إلى مقبرة الصوفية فدفن إلى جانب أخيه شرف الدين عبدالله رحمهما الله، وكان دفنه قبل العصر بيسير، وذلك من كثرة من يأتي ويصلي عليه من أهل البساتين وأهل الغوطة وأهل القرى وغيرهم، وأغلق الناس حوانيتهم ولم يتخلف عن الحضور إلا من هو عاجز عن الحضور، مع الترحم والدعاء له، وأنه لو قدر ما تخلف، وحضر نساء كثيرات بحيث حزرن بخمسة عشر ألف امرأة، غير اللاتي كن على الأسطحة وغيرهن، الجميع يترحمن ويبكين عليه فيما قيل. وأما الرجال فحزروا بستين ألفا إلى مائة ألف إلى أكثر من ذلك إلى مائتي ألف وشرب جماعة الماء الذي فضل من غسله، واقتسم جماعة بقية السدر الذي غسل به، ودفع في الخيط الذي كان فيه الزئبق الذي كان في عنقه بسبب القمل مائة وخمسون درهما، وقيل إن الطاقية التي كانت على رأسه دفع فيها خمسمائة درهما. وحصل في الجنازة ضجيج وبكاء كثير، وتضرع وختمت له ختمات كثيرة بالصالحية وبالبلد، وتردد الناس إلى قبره أياما كثيرة ليلا ونهارا يبيتون عنده ويصبحون، ورؤيت له منامات صالحة كثيرة، ورثاه جماعة بقصائد جمة[1].

---

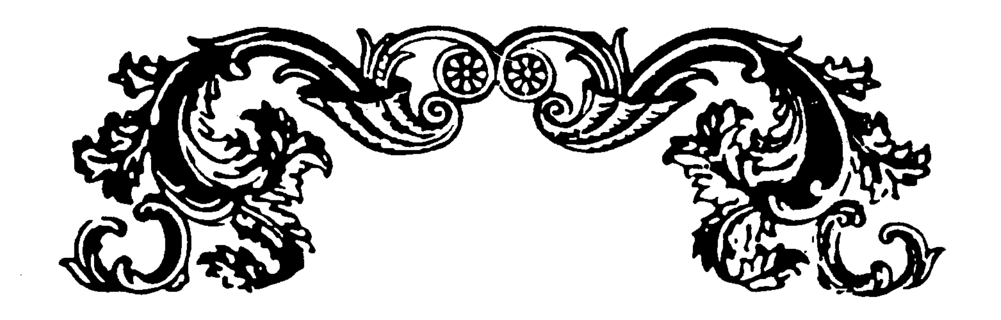
(١) البداية والنهاية ١٣/١٣٥ و١٣٨ وما بعدها. والذيل على طبقات الحنابلة ١/٤٠٥ والدرر الكامنة ١/١٧٧ وما بعدها.

● كان إماما متبحرا في علوم الديانة، صحيح الذهن، سريع الادراك، سيال الفهم كثير المحاسن، لا لذة له في غير نشر العلم وتدوينه والعمل بمقتضاه.

الامام الذهبي

● لم ير من خمسمائة سنة مثله أو أحفظ منه.

الامام ابن الزملكاني



المبحث الأول

أمراض القلوب



بين يدي الامام ابن تيمية

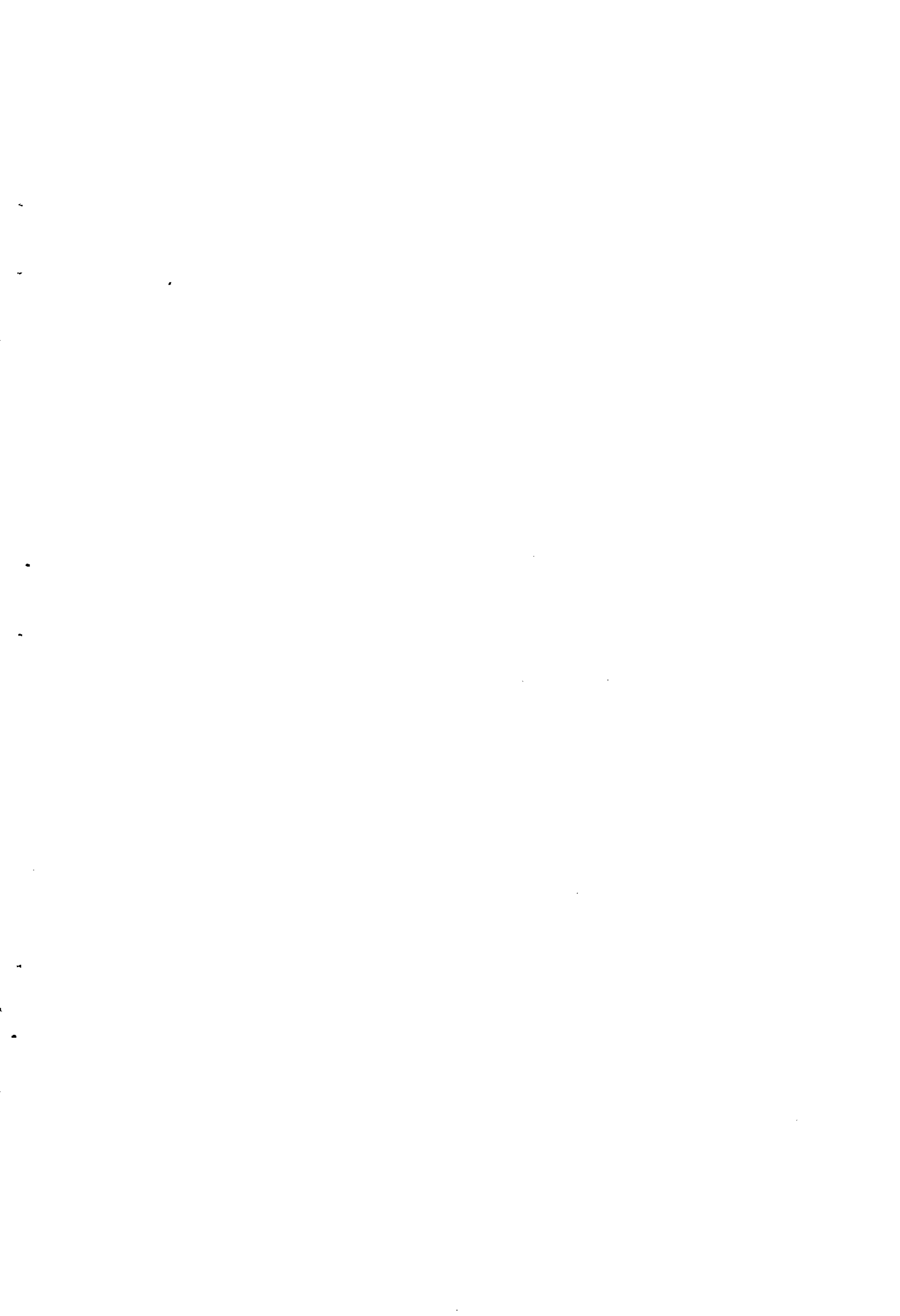
الإمـام شيخ الإسـلام ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ، ممن حمل راية العلم والجهاد، وتحمل في سبيل ذلك الأذى والاضطهاد وهو من المجددين المجتهدين. كان إماما من الراسخين في العلم، وكتبه ومنهجه يعتبر مدرسة لها أتباعها وأنصارها، وكان إلى جانب ذلك إماما جماهيريا، له مواقفه الجريئة في نصرة الحق وأهله، والذود عن دين الله، لا تأخذه في سبيل ذلك لومة لائم، ولا بطش ظالم.

وإذا كانت إسهامات ابن تيمية العلمية متعددة في شتى الفنون، وفي العلوم الفقهية على وجه الخصوص، فإن الإمام قد تميز بالكتابة الدقيقة المؤصلة في علم خاص، وفقه دقيق قليل من طرقه وأجاد، إنه علم طب القلوب - كما سبقت الإشارة - وهو باب من الأبواب الهامة، التي حظيت باهتمام الإمام فأسهم فيها بحظ يتناسب وأهميتها وخطورتها، وبات كلامه فيها أصلا من الأصول، وأساسا من أسس البحث في هذا المضمار الدقيق، بنى عليه اللاحقون واقتبسوا منه، وأكثر من استفاد منه تلميذه الإمام ابن القيم.

ويسعدنا أن نقرب كلام الإمام في هذا الخصوص إلى مثقفي عصرنا، ليسهم الشيخ بعلمه الوفير ودرايته وروايته بما يسر الله عليه من فتح مبين، فيخفف به من غلواء المادية المقيت الذي ران على قلوب كثير من الناس اليوم.

والإمام يأخذ بأيدينا لنفهم أمراض القلوب وكيف نتوصل إلى علاجها، وذلك من خلال فهم كتاب الله وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

وإن فتح صفحة اللقاء عبر التاريخ مع هذا الإمام لهو في حقيقته فرصة لا مثيل لها، حيث نلتقي مع الشيخ وجها لوجه، فقد كان طلاب العلم يضربون أكباد الإبل، ويقطعون الفيافي والصحارى، أملا في مجلس الشيخ ورغبة فيما عنده. **وكلام الشيخ بلا ريب يستحق الإنصات والإمعان، وإن لكل كلمة تخرج معناها ومدلولها وموقعها فليكن موقعها القلب فإن الحديث حديث القلوب.**



المجلـــس الأول

أمـــراض القـلـــوب

١- أمارة مرض البدن
٢- أمارات مرض القلب وعلاجها
٣- الفرق بين مرض البدن والقلب



المجلس الأول
أمراض القلوب

أخذ الشيخ الإمام المجتهد أحمد بن عبدالحليم بن تيمية مجلسه وسط حشود من أقرانه العلماء، وطلابه وتلاميذه الفضلاء، وعامة الجماهير المحبة، وقد أخذ كل قلمه وقرطاسه ليدون كلام الشيخ، وقد خيم على المجلس سحابة من الهيبة والوقار والسكون قطع ذلك صوت الشيخ قائلا:

الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما وبعد:

فقد قال الله تعالى عن المنافقين: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾[1] وقال تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾[2] وقال: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾[3] وقال: ﴿ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾[4] وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[5] وقال: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ

---

(١) سورة البقرة آية ١٠.

(٢) سورة الحج آية ٥٣.

(٣) سورة الأحزاب آية ٦٠.

(٤) سورة المدثر آية ٣١.

(٥) سورة يونس آية ٥٧.

﴿إِلَّا خَسَارًا﴾[1] وقال: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾[2].

أمارة مرض البدن:

ومرض البدن خلاف صحته وصلاحه، وهو فساد يكون فيه، يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية: فإدراكه إما أن يذهب كالعمى والصمم، وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه، كما يدرك الحلو مرا، وكما يخيل إليه أشياء لا حقيقة لها في الخارج. وأما فساد حركته الطبيعية فمثل أن تضعف قوته عن الهضم، أو مثل أن يبغض الأغذية التي يحتاج إليها، ويحب الأشياء التي تضره، ويحصل له من الآلام بحسب ذلك، ولكنه - مع ذلك المرض - لم يمت ولم يهلك به، ففيه نوع قوة على إدراك الحركة الإرادية في الجملة فيتولد من ذلك ألم يحصل في البدن إما بسبب فساد الكمية أو الكيفية: فالأول إما لنقص المادة فيحتاج إلى غذاء، وإما بسبب زيادتها فيحتاج إلى استفراغ، والثاني كقوة في الحرارة والبرود خارجة عن الإعتدال فيداوى.

أمارات مرض القلب وعلاجها:

قلت: يا إمامنا وشيخنا لا نختلف في أن مرض البدن له مظهر هو الإحساس بالألم، أو ما عبرتم عنه بفساد يحصل فيه، لكن كيف تكون مناظرة ومشابهة ذلك لمرض القلب؟

قال الإمام: يا أحبائي وأعزائي القراء الكرام إن مرض القلب كذلك هو نوع فساد يحصل له، يفسد به تصوره وإرادته، فتصوره بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق، أو يراه على خلاف ما هو عليه. وإرادته بحيث يبغض الحق النافع ويحب الباطل الضار. فلهذا يفسر «المرض» تارة بالشك والريب، كما فسر مجاهد وقتادة قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[3] أي شك وتارة يفسر بشهوة الزنا، كما فسر به قوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾[4]

---

(١) سورة الإسراء آية ٨٢.
(٢) سورة التوبة آية ١٤، ١٥.
(٣) سورة البقرة آية ١٠.
(٤) سورة الأحزاب آية ٣٢.

والمريض يؤذيه ما لا يؤذي الصحيح ، فيضره يسير الحر والبرد والعمل ونحو ذلك من الأمور التي لا يقوى عليها لضعفه بالمرض. والمرض ـ في الجملة ـ يضعف المريض بجعل قوته ضعيفة لا تطيق ما يطيقه القوي. والصحة تحفظ بالمثل، وتزال بالضد. والمرض يقوى بمثل سببه، ويزول بضده. فإذا حصل للمريض مثل سبب مرضه زاد مرضه، وزاد ضعف قوته، حتى ربما يهلك. وإن حصل له ما يقوي القوة ويزيل المرض كان بالعكس.

قلت: يا إمامنا إن كلامكم هذا يشير إلى أن مرض القلب هو نوع فساد يحصل فيه تارة بالشك والريبة وتارة بالشهوة تسيطر عليه. لكن تبقى المفارقة بينه وبين مرض البدن في أن مرض البدن فيه ألم يحسه صاحبه أما مرض القلب فلا ألم معه للقلب وأظن هذا فارقا جوهريا بينهما.

قال الإمام: لا يابني ويا أعزائي الكرام، فإن لمرض القلب أيضا ألما يحصل في القلب، وأضرب لكم على ذلك مثلا وشاهده من الكتاب الكريم الغيظ، مثلا مرض يحصل بالقلب وهو بمثابة عدو استولى عليك، فإن ذلك يؤلم القلب، قال الله تعالى: ﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾[1] فشفاؤهم بزوال ما حصل في قلوبهم من الألم، ويقال: فلان شفى غيظه، وفي القود استشفاء أولياء المقتول، ونحو ذلك. فهذا شفاء من الغم والغيظ والحزن. وكل هذه آلام تحصل في النفس. وكذلك الشك والجهل يؤلم القلب، قال النبي ﷺ «**هلا سألوا إذا لم يعلموا؟ فإن شفاء العي السؤال**»[2] والشاك في الشيء المرتاب فيه يتألم قلبه، حتى يحصل له العلم واليقين، ويقال للعالم الذي أجاب بما يبين الحق: قد شفاني بالجواب.

الفرق بين مرض القلب والبدن:

قلت: ليسمح لنا إمامنا الكريم أن نطرح قضية أخرى تحتاج إلى جواب مقنع مثل جوابكم هذا، كي تنتفي المخالفة بين مرض البدن ومرض القلب.

---

(١) سورة التوبة آية ١٤، ١٥.

(٢) جزء من حديث. أخرجه أبو داود (٣٣٦) وصححه الألباني (صحيح الجامع ٤٢٣٨).

وذلك أن البدن يمرض ويموت، والقلب يمرض ولكنه لا يموت.

قال الإمام: هذا استشكال في محله وأنا أرفع من أذهانكم هذا الإشكال،فأقول وبالله التوفيق: إن المرض دون الموت، فالقلب يموت بالجهل المطلق، ويمرض بنوع من الجهل: فله موت، ومرض. وحياة، وشفاء. وحياته وموته ومرضه وشفاؤه أعظم من حياة البدن وموته ومرضه وشفائه. فلهذا مرض القلب إذا ورد عليه شبهة أو شهوة قوت مرضه، وإن حصلت له حكمة وموعظة كانت من أسباب صلاحه وشفائه، قال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[1] لأن ذلك أورث شبهة عندهم، والقاسية قلوبهم ليبسها، فأولئك قلوبهم ضعيفة بالمرض، فصار ما ألقى الشيطان فتنة لهم، وهؤلاء كانت قلوبهم قاسية عن الإيمان، فصار فتنة لهم. وقال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾[2] كما تعالى: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[3] لم تمت قلوبهم كموت قلوب الكفار والمنافقين، وليست صحيحة صالحة كصالح قلوب المؤمنين، بل فيها مرض شبهة وشهوات. وكذلك قوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾[4] وهو مرض الشهوة، فإن القلب الصحيح لو تعرضت له المرأة لم يلتفت إليها، بخلاف القلب المريض بالشهوة فإنه لضعفه يميل الى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه، فإذا خضعن بالقول طمع الذي في قلبه مرض.

ثم قال الشيخ: أوضح الأمر وزال الإشكال؟ قلت: نعم وجزيتم خيرا.

قال الإمام: وإلى هنا أكتفي معكم بهذا وأحدثكم في المجلس القادم عن عوامل وأدوات شفاء القلوب بعون الله فأستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

---

(١) سورة الحج آية ٥٣.
(٢) سورة الأحزاب آية ٦٠.
(٣) سورة المدثر آية ٣١.
(٤) سورة الأحزاب آية ٣٢.

المجلس الثاني

الشهوة والهوى
أمراض تعمي القلب

شهوة النفس وهواها

تلازم الشهوة والهوى

الشح امر والهوى قائد

حقيقة الشح والحسد

فروق دقيقة

درجات الهوى

المجلس الثاني
الشهوة والهوى أمراض تعمي القلب

أخذ الشيخ الإمام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية مكانه في صدر المجلس وقد اكتمل الحضور، وضاق بهم المسجد وأفنيته على رحابته، ولا غرو فإن المتحدث ابن تيمية علم في الفقه والأصول والحديث والتفسير، وعلم في جهاد الكفار والظلمة، وعلم بين الناس على اختلاف مستوياتهم، يفزع إليه أهل العلم لحل معضلاتهم العلمية، ويفزع إليه من وقع عليه ظلم أو مسه سوء فردا كان أو جماعة، فيتصدر لهم ويصبح همهم همه حتى يقضي لهم بغيتهم، ويرفع ما وقع بهم، قدر مستطاعه.

حين أخذ الشيخ مجلسه كان نظره يجول في وجوه الحضور كأنه يشفق عليهم أن يحدثهم حديث مرض القلوب، وقد يكون منهم مبتلى بنوع من تلك الأمراض الكثيرة، بعشق أو هوى أو شهوة أو بخل أو شح أو حسد أو غير ذلك، إلا أن الذي يشجع الشيخ في المضي بهذا النمط الفريد من الحديث أن يجد لكلامه وقعا وقبولا، فمنهم من يتأثر به؛ لأنه يخاطب قلبه بما فيه من علة يضع لها علاجها، ومنهم من يتأثر به وقاية وحماية وصيانة لقلبه أن يمسه طرف من تلك الأمراض.

وبينما هذه الخواطر تجول في الذهن وتزدحم فيه، قطعها صوت الإمام الحجة: الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

أما بعد: فيأيها الأحباب الحضور والقراء الأعزاء. كنت قد حدثتكم في المجلس السابق عن الشهوات كيف تغمر القلب وتهزمه. وكيف السبيل إلى منعها من ذلك وهزيمتها، واليوم أكمل لكم خبر الشهوات مضيفا إليها الهوى، وعاقبة اتباعه أو اتباع أهله، أهل الغواية فأقول مستعينا بالله وحده، بادئا بقوله تعالى على لسان نوح عليه السلام:

﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾[1] فإن ما شاء الله كان وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الناس.

شهوة النفس وهواها:

والمقصود بالآية تحذيرهم من متابعة الذين يتبعون الشهوات. والمعنى: أني أريد لكم الخير الذي ينفعكم، وهؤلاء يريدون لكم الشر الذي يضركم، كالشيطان الذي يريد أن يغويكم، وأتباعه هم أهل الشهوات فلا تتخذوه وذريته أولياء من دوني، بل اسلكوا طرق الهدى والرشاد، وإياكم وطرق الغي والفساد. كما قال تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[2] وقوله: يتبعون الشهوات في الموضعين. فاتباع الشهوة من جنس اتباع الهوى، كما قال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[3] وقال: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾[4] وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ ﴾[5] وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴾[6] وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[7] وهذا في القرآن كثير.

و «الهوى» مصدر هوى يهوى هوى، ونفس المهوي يسمى هو ما يهوى، فاتباعه كاتباع السبيل. كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ ﴾[8] وكما في لفظ الشهوة، فاتباع الهوى يراد به نفس مسمى المصدر، أي اتباع إرادته ومحبته التي هي هواه واتباع الإرادة هو فعل ما تهواه النفس. كقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ

---

(١) سورة هود آية ٣٤.

(٢) سورة طه آية ١٢٣.

(٣) سورة القصص آية ٥٠.

(٤) سورة المؤمنون آية ٧١.

(٥) سورة المائدة آية ٧٧.

(٦) سورة محمد آية ١٤.

(٧) سورة الجاثية آية ١٨.

(٨) سورة المائدة آية ٧٧.

إِلَيَّ﴾[1] وقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[2] وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾[3] فلفظ الاتباع يكون للآمر الناهي، وللأمر والنهي، وللمأمور به والمنهي عنه، وهو الصراط المستقيم.

ثم سكت الشيخ يستجمع أنفاسه ويترك فرصة لمن يسأل، فقلت: يا إمامنا أيصح فهمنا من قوله تعالى ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل﴾ أن للهوى أمرا ونهيا؟

قال الإمام: نعم هذا فهم صحيح فإن للهوى أمرا ونهيا؛ وهو أمر النفس ونهيها. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[4]ولكن ما يأمر به من الأفعال المذمومة فأحدها مستلزم للآخر، فاتباع الأمر هو فعل المأمور، واتباع أمر النفس هو فعل ما تهواه فعلى هذا يعلم أن اتباع الشهوات واتباع الأهواء هو اتباع شهوة النفس وهواها، وذلك بفعل ما تشتهيه وتهواه.

بل قد يقال: هذا هو الذي يتعين في لفظ اتباع الشهوات والأهواء؛ لأن الذي يشتهى ويهوى إنما يصير موجودا بعد أن يشتهى ويهوى، وإنما يذم الإنسان إذا فعل ما يشتهي ويهوى عند وجوده، فهو حينئذ قد فعل؛ ولا ينهى عنه بعد وجوده، ولا يقال لصاحبه. لا تتبع هواك.

وأيضا فالفعل المراد المشتهى الذي يهواه الإنسان هو تابع لشهوته وهواه؛ فليست الشهوة والهوى تابعة له؛ فاتباع الشهوات هو اتباع شهوة النفس، وإذا جعلت الشهوة بمعنى المشتهى كان مع مخالفة الأصل يحتاج إلى أن يجعل في الخارج ما يشتهى، والإنسان يتبعه كالمرأة المطلوبة، أو الطعام المطلوب، وإن سميت المرأة شهوة والطعام أيضا كما في قوله ﷺ: «**كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، يدع**

---

(١) سورة لقمان آية ١٥.
(٢) سورة الأنعام آية ١٥٣.
(٣) سورة الأعراف آية ٣.
(٤) سورة يوسف آية ٥٢.

طعامه وشرابه وشهوته من أجلي»[1] أي يترك شهوته؛ وهو إنما يترك ما يشتهيه كما يترك الطعام؛ لا أنه يدع طعامه بترك الشهوة الموجودة في نفسه؛ فإن تلك مخلوقة فيه مجبول عليها؛ وإنما يثاب إذا ترك ما تطلبه تلك الشهوة.

تلازم الشهوة والهوى:

وحقيقة الأمر أنهما متلازمان: فمن اتبع نفس شهوته القائمة بنفسه اتبع ما يشتهيه؛ وكذلك من اتبع الهوى القائم بنفسه اتبع ما يهواه، فإن ذلك من آثار الإرادة، واتباع الإرادة هو امتثال أمرها، وفعل ما تطلبه، كالمأمور الذي يتبع أمر أميره، ولا بد أن يتصور مراده الذي يهواه ويشتهيه في نفسه ويتخيله قبل فعله. فيبقى ذلك المثال كالإمام مع المأموم يتبعه حيث كان، وفعله في الظاهر تبع لاتباع الباطن، فتبقى صورة المراد المطلوب المشتهى التي في النفس هي المحركة للإنسان الآمرة له.

ولهذا يقال: العلة الغائية علة فاعلية، فإن الإنسان بالعلة الغائية ـ بهذا التصور والإرادة ـ صار فاعلا للفعل، وهذه الصورة المرادة المتصورة في النفس هي التي جعلت الفاعل فاعلا، فيكون الإنسان متبعا لها، والشيطان يمده في الغي، فهو يقوي تلك الصورة ويقوي أثرها ويزين للناس اتباعها، وتلك الصورة تتناول صورة العين المطلوبة ـ كالمحبوب من الصور والطعام والشراب ـ ويتناول نفس الفعل الذي هو المباشرة لذلك المطلوب المحبوب، والشيطان والنفس تحب ذلك، وكلما تصور ذلك المحبوب في نفسه أراد وجوده في الخارج، فإن أول الفكر آخر العمل، وأول البغية آخر الدرك.

لهذا يبقى الإنسان عند شهوته وهواه أسيرا لذلك، مقهورا تحت سلطان الهوى، أعظم من قهر كل قاهر، فإن هذا القاهر الهوائي القاهر للعبد هو صفة قائمة بنفسه، لا يمكنه مفارقته البتة، والصورة الذهنية تطلبها النفس، فإن المحبوب تطلب النفس أن تدركه، وتمثله لها في نفسها فهو متبع للإرادة. وإن كانت الذهنية والتزين من الزين.

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة وهما حديثان متداخلان بألفاظ مختلفة. انظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٧٠٦، ٧٠٧.

والمراد التصور في نفسه. والمشتهى الموجود في الخارج له محركان: التصور والمشتهى هذا يحركه تحريك طلب وأمر، وهذا يأمره أن يتبع طلبه وأمره، فاتباع الشهوات والأهواء يتناول هذا كله؛ بخلاف كل قاهر ينفصل عن الإنسان فإنه يمكنه مفارقته مع بقاء نفسه على حالها، وهذا إنما يفارقه بتغير صفة نفسه.

ولهذا قال النبي ﷺ: **«ثلاث مهلكات: شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه. وثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الفقر والغنى، وكلمة الحق في الغضب والرضا»**[1].

الشح آمر والهوى قائد:

قلت: يا إمامنا أحاول أن أدرك الفرق بين الشح المطاع والهوى المتبع، لماذا استخدم النبي ﷺ كلمة مطاع في الشح، وكلمة متبع في الهوى فلا أستطيع ادراك ذلك؟

قال الإمام: قوله في الحديث: «هوى متبع». فيه دليل على أن المتبع هو ما قام في النفس. كقوله: في الشح المطاع، وجعل الشح مطاعا، لأنه هو الآمر، وجعل الهوى متبعا؛ لأن المتبع قد يكون إماما يقتدى به ولا يكون آمرا. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: **«إياكم والشح. فإن الشح أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»**[2]. فبين أن الشح يأمر بالبخل والظلم والقطيعة. «فالبخل» منع منفعة الناس بنفسه وماله، و «الظلم» هو الاعتداء عليهم.

فالأول هو التفريط فيما يجب فيكون قد فرط فيما يجب، واعتدى عليهم بفعل ما يحرم، وخص قطيعة الرحم بالذكر إعظاما لها؛ لأنها تدخل في الأمرين المتقدمين قبلها.

---

(١) الأحاديث الصحيحة للألباني حديث رقم ١٨٠٢.

(٢) أخرجه أبو داود والحاكم وإسناده صحيح كما في جامع الأصول ١/٦٠٨ وصححه الألباني (صحيح الجامع ٢٦٧٥).

قلت: إذا كان ذلك كذلك فما معنى قوله تعالى ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾؟[1].

قال الإمام: قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿ومن يوق شح نفسه﴾ هو ألا يأخذ شيئا مما نهاه الله عنه، ولا يمنع شيئا أمره الله بأدائه «فالشح» يأمر بخلاف أمر الله ورسوله، فإن الله ينهى عن الظلم ويأمر بالإحسان والشح يأمر بالظلم وينهي عن الإحسان.

حقيقة الشح والحسد:

وقد كان عبدالرحمن بن عوف يكثر - في طوافه بالبيت وبالوقوف بعرفة - أن يقول: اللهم قني شح نفسي، فسئل عن ذلك فقال: إذا وقيت شح نفسي وقيت الظلم والبخل والقطيعة. وفي رواية عنه قال: إني أخاف أن أكون قد هلكت قال: وما ذاك؟ قال: أسمع الله يقول: ﴿ومن يوق شح نفسه﴾ وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يدي شيء، فقال: ليس ذاك بالشح الذي ذكره الله في القرآن، إنما الشح أن تأكل مال أخيك ظلما. وإنما يكون بالبخل وبئس الشيء البخل[2].

وقد ذكر تعالى «الشح» في سياق ذكر الحسد والإيثار في قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[3] - ثم قال - ﴿ومن يوق شح نفسه فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[4] فمن وقي شح نفسه لم يكن حسودا باغيا على المحسود، و «الحسد» أصله بغض المحسود.

و «الشح» يكون في الرجل مع الحرص وقوة الرغبة في المال وبغض للغير وظلم له، كما قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ الآيات - إلى قوله - ﴿ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾[1] فشحهم على المؤمنين، وعلى الخير يتضمن كراهيته

(١، ٣، ٤) سورة الحشر آية ٩.

(٢) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٥ وقد نسب ابن كثير إني أخاف أن أكون قد هلكت إلى آخره لغير عبدالرحمن بن عوف.

(١) سورة الأحزاب آية ١٨، ١٩.

وبغضه، وبغض الخير يأمر بالشر،وبغض الإنسان يأمر بظلمه وقطيعته كالحسد؛ فإن الحاسد يأمر حاسده بظلم المحسود وقطيعته، كابني آدم، وإخوة يوسف.

فـروق دقيقـة:

قلت: يا إمامنا وشيخنا الكريم قد فهمنا عنك معنى الهوى والحسد والشح ولكن هل من فارق بين الهوى وبين الحسد والشح؟

قال الإمام: نعم يا أحبائي الحسد والشح يتضمنان بغضا وكراهية فيأمران بمنع الواجب وبظلم ذلك الشخص، فإن الفعل صدر فيه عن بغض، بخلاف الهوى فإن الفعل صدر فيه عن حب. أحب شيئا فاتبعه ففعله، وذلك مقصوده أمر عدمي، والعدم لا ينفع. ولكن ذاك القصد أمر وجودي، فأطيع أمره.

وابن مسعود جعل البخل خارجا عن الشح والنبي ﷺ جعل الشح يأمر بالبخل.

ومن الناس من يقول: «الشح، والبخل» سواء. كما قال ابن جرير: [1] الشح في كلام العرب هو البخل ومنع الفضل من المال.

فلما سكت الشيخ هنا. قلت: وما رأي فضيلتكم فيما قال ابن جرير؟

قال الإمام: الصواب ليس كما قال بل ما قاله النبي ﷺ وابن مسعود أحق أن يتبع؛ فإن «البخيل» قد يبخل بالمال محبة لما يحصل له به من اللذة والتنعم، وقد لا يكون متلذذا به ولا متنعما، بل نفسه تضيق عن إنفاقه وتكره ذلك، حتى يكون يكره أن ينفع نفسه منه مع كثرة ماله، وهذا قد يكون مع التذاذه بجمع المال ومحبته لرؤيته، وقد لا يكون هناك لذة أصلا، بل يكره أن يفعل إحسانا إلى أحد حتى لو أراد غيره أن يعطي كره ذلك منه بغضا للخير لا للمعطِي ولا للمعطَى، بل بغضا منه للخير وقد يكون

---

(١) محمد بن جرير بن يزيد الطبري ولد في طبرستان واستوطن بغداد، وعرض عليه القضاء فأبى. كان مجتهدا في أحكام الدين، لا يقلد أحدا، له تفسير مطبوع، وكتب في التاريخ والدين مات سنة ٣١٠هـ الأعلام ٦/ ٦٩ ط٤.

بغضا وحسد للمعطِي أو للمعطَى وهذا هو «الشح»، وهذا هو الذي يأمر بالبخل قطعا، ولكن كل بخل يكون عن شح. فكل شحيح بخيل وليس كل بخيل شحيحا.

قال الخطابي: الشح أبلغ في المنع من البخل، والبخل إنما هو من أفراد الأمور وخواص الأشياء، والشح عام فهو كالوصف اللازم للإنسان من قبل الطبع والحيلة.

وحكى الخطابي عن بعضهم أنه قال: البخل أن يضن الإنسان بماله، و «الشح» أن يضن بماله ومعروفه، وقيل «الشح» أن يشح بمعروف غيره على غيره، والبخل أن يبخل بمعروفه على غيره، والذين يتبعون الشهوات ويتبعون أهواءهم يحبون ذلك ويريدونه فاتبعوا محبتهم وإرادتهم من غير علم، فلم ينظروا هل ذلك نافع لهم في العاقبة أو ضار. ولهذا قال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾[1] ثم قال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾[2].

درجات الهوى:

قلت: قد أبان شيخنا معنى الهوى بما لا غموض معه لكن بقي جزء من الموضوع يحتاج بالضرورة إلى البيان وهو هل للهوى درجات؟

قال الإمام: نعم يا أعزائي إن للهوى درجات كما أن أتباع الهوى من الناس على درجات أيضا. فأتباع الهوى منهم المشركون، والذين يعبدون من دون الله ما يستحسنون بلا علم ولا برهان، كما قال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[3]: أي يتخذ إلهه الذي يعبده وهو ما يهواه من آلهة، ولم يقل إن هواه نفس إلهه فليس كل من يهوى شيئا يعبده، فإن الهوى أقسام بل المراد أنه جعل المعبود الذي يعبده هو ما يهواه فكانت عبادته تابعة لهوى نفسه في العبادة، فإنه لم يعبد ما يجب أن يعبد، ولا عبد العبادة التي أمر بها.

(١، ٢) سورة القصص آية ٥٠.

(٣) سورة الجاثية آية ٢٣.

وهذه حال «أهل البدع» فإنهم عبدوا غير الله، وابتدعوا عبادات زعموا أنهم يعبدون الله بها، فهم إنما اتبعوا أهواءهم، فإن أحدهم يتبع محبة نفسه وذوقها ووجدها وهواها من غير علم، ولا هدى ولا كتاب منير.

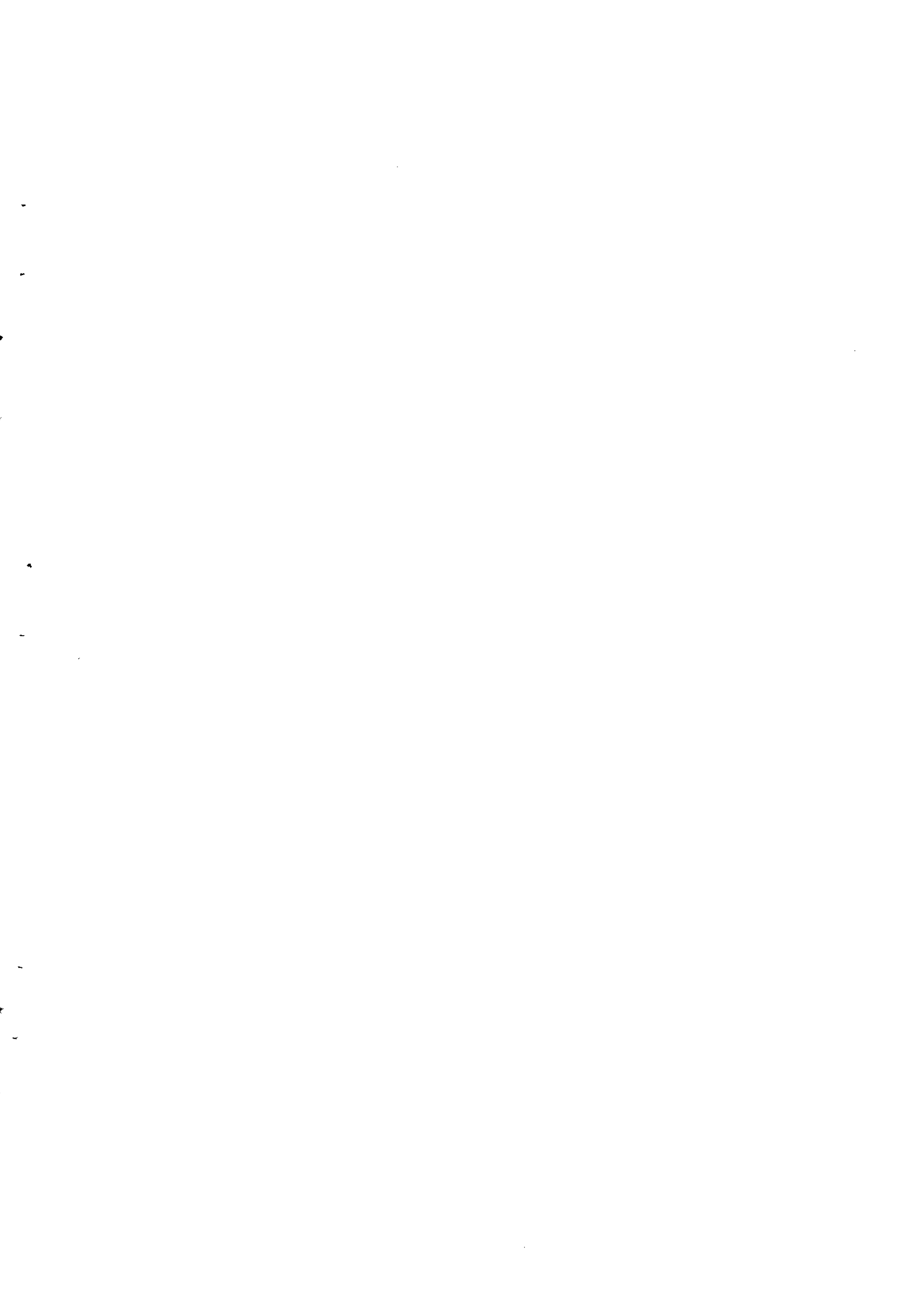
فلو اتبع العلم والكتاب المنير لم يعبد إلا الله بما شاء، لا بالحوادث والبدع.

وإلى هنا انتهى بنا مجلس الشيخ على أمل أن نسعد بلقياه في الغد إن شاء الله تعالى.

المجلـــس الثـالــث

الشهوة قد تغمر القلب فتهزمه

- القلب أسير ما يهوى
- حب الدنيا يغمر القلب فيضله
- حقيقة العبودية لله
- اتباع الهوى يحطم الانسان
- علاج القلب من فتنة الشهوات



الشهوات قد تغمر القلب فتهزمه

صلى الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية بالناس، وأخذ كل مجلسه في حلقة الشيخ، وكان المسجد كله حلقة الشيخ. ثم أخذ الشيخ مجلسه ودعا الله في نفسه، ثم قال بصوت جهوري مهيب: الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

أما بعد: فيأيها الأحباب الحضور والقراء الأعزاء، أحييكم بتحية الإسلام، داعيا المولى القدير أن يجعل مجلسنا هذا من مجالس الخير التي تحفها الملائكة آمين.

اليوم سأحدثكم عن الغمرة والمعركة الحامية التي تدور رحاها بين جنباتكم، وفي ساحات قلوبكم، إنها حرب الشهوات والمكروهات على القلب، والتي قد تسفر عن هزيمته وخسرانه في الدنيا والآخرة، أو عن فوزه وانتصاره في الدنيا والآخرة، فأعيروني انتباهكم وحضور قلوبكم.

القلب أسير ما يهوى:

فأقول وبالله التوفيق: إن المتبعين لشهواتهم من الصور والطعام والشراب واللباس يستولي على قلب أحدهم ما يشتهيه حتى يقهره ويملكه، ويبقى أسيرا لما يهواه يصرفه كيف تصرف ذلك المطلوب، ولهذا قال بعض السلف: ما أنا على الشاب الناسك بأخوف مني عليه من سبع ضار يثب عليه من صبي حدث يجلس إليه. ـ أو امرأة من باب أولى ـ

وذلك أن النفس الصافية التي فيها رقة «الرياضة» ولم تنجذب إلى محبة الله وعبادته انجذابا تاما، ولا قام بها من خشية الله التامة ما يصرفها عن هواها متى صارت تحت صورة من الصور استولت تلك الصورة عليها، كما يستولي السبع على ما يفترسه؛ فالسبع يأخذ فريسته بالقهر، ولا تقدر الفريسة على الامتناع منه، كذلك ما يمثله الإنسان في قلبه من الصور المحبوبة تبتلع قلبه وتقهره، فلا يقدر قلبه على الامتناع منه، فيبقى قلبه مستغرقا في تلك الصور أعظم من استغراق الفريسة في جوف الأسد، لأن المحبوب المراد هو غاية النفس، له عليها سلطان قاهر.

والقلب يغرق فيما يستولي عليه: إما من محبوب وإما من مخوف، كما يوجد من محبة المال والجاه والصور، والخائف من غيره يبقى قلبه وعقله مستغرقا فيه كما يغرق الغريق في الماء، فلا بد أن يستولي عليها ما يحيط بها من الأجسام، والقلوب يستولي عليها ما يتمثل لها من المخاوف، والمحبوبات والمكروهات، فالمحبوب يطلبه والمكروه يدفعه، والرجاء يتعلق بالمحبوب والخوف يتعلق بالمكروه، ولا يأتي بالحسنات إلا الله، ولا يذهب السيئات إلا الله ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1]

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾[2]

وإذا دعا العبد ربه بإعطاء المطلوب ودفع المرهوب، جعل له من الإيمان بالله ومحبته ومعرفته وتوحيده، ورجائه وحياة قلبه، واستنارته بنور الإيمان، ما قد يكون أنفع له من ذلك المطلوب، إن كان عرضا من الدنيا وأما إذا طلب منه أن يعينه على ذكره وشكره وحسن عبادته، وما يتبع ذلك. فهنا المطلوب قد يكون أنفع من الطلب، وهو الدعاء والمطلوب الذكر والشكر، وقيام العبادة على أحسن الوجوه وغير ذلك.

(١) يونس آية ١٠٧.
(٢) النحل آية ٥٣.

حب الدنيا يغمر القلب فيضله:

ثم سكت الإمام قليلا كعادته ليترك الفرصة لمن يستوضح أو يسأل، فقلت: يا أمامنا نفهم من كلام فضيلتكم أن الصراع والحرب تقوم بين القلب وبين من يريد أن يستولي عليه مما يحبه أو يكرهه، فإذا انتصر عليه كان مغمورا مهزوما. وإذا كان ذلك كذلك فهل لفظ الغمرة خاص ببيان هزيمة القلوب؟ ولا يخفى على فضيلتكم أن لفظ الغمرة ورد في القرآن الكريم في أربعة مواضع.

قال الإمام وقد بدا عليه الارتياح من التعقيب والسؤال: نعم يا أحبائي وأعزائي الكرام إن القلب قد يغمره فيستولي عليه ما يريده العبد ويحبه وما يخافه ويحذره كائنا من كان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾[1] فهي فيما يغمرها عما أنذرت به، فيغمرها ذلك عن ذكر الله والدار الآخرة وما فيها من النعيم، والعذاب الأليم. قال الله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾[2]: أي فيما يغمر قلوبهم من حب المال والبنين المانع لهم من المسارعة في الخيرات والأعمال الصالحة. وقال تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾[3] الآيات: أي ساهون عن أمر الآخرة، فهم في غمرة عنها، أي فيما يغمر قلوبهم من حب الدنيا ومتاعها ساهون عن أمر الآخرة، وما خلقوا له.

قلت في نفسي قد أتى الشيخ على ثلاث آيات وردت فيها كلمة «الغمرة» وبقيت آية تركها الشيخ لاختلاف المعنى فيها عن هذه الآيات الثلاث وهي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾[4]

ونواصل مع الشيخ كلامه قال: وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[5] فالغمرة تكون من اتباع الهوى، والسهو من جنس

---

(١) سورة المؤمنون آية ٦٣.
(٢) سورة المؤمنون آية ٥٤.
(٣) سورة الذاريات آية ١٠، ١١.
(٤) سورة الأنعام آية ٩٣.
(٥) سورة الكهف آية ٢٨.

الغفلة؛ ولهذا قال من قال: «السهو» الغفلة عن الشيء، وذهاب القلب عنه، وهذا جماع الشر «الغفلة» و «الشهوة».

«فالغفلة» عن الله والدار الآخرة تسد باب الخير الذي هو الذكر واليقظة.

والشهوةتفتح باب الشر والسهو والخوف، فيبقى القلب مغمورا فيما يهواه ويخشاه، غافلا عن الله، رائدا غير الله، ساهيا عن ذكره، قد اشتغل بغير الله، قد انفرط أمره، قد ران حب الدنيا على قلبه، كما روي في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، إن أعطى رضي، وإن منع سخط**»[(١)]

جعله عبد ما يرضيه وجوده ويسخطه فقده، حتى يكون عبد الدرهم وعبد ما وصف في هذا الحديث، و«القطيفة» هي التي يجلس عليها فهو خادمها كما قال بعض السلف: البس من الثياب ما يخدمك، ولا تلبس منها ما تكن أنت تخدمه، وهي كالبساط الذي تجلس عليه، و«الخميصة» هي التي يرتدي بها، وهذا من أقل المال. وإنما نبه به النبي ﷺ على ما هو أعلى منه، فهو عبد لذلك؛ فيه أرباب متفرقون؛ وشركاء متشاكسون.

ولهذا قال: «إن أعطي رضي، وإن منع سخط». فما كان يرضي الإنسان حصوله ويسخطه فقده فهو عبده، إذ العبد يرضى باتصاله بهما، ويسخط لفقدهما. و«المعبود الحق» الذي لا إله إلا هو إذا عبده المؤمن وأحبه حصل للمؤمن بذلك في قلبه إيمان، وتوحيد ومحبة، وذكر، وعبادة، فيرضى بذلك، وإذا منع من ذلك غضب.

حقيقة العبودية لله:

وكذلك من أحب شيئا فلا بد أن يتصوره في قلبه، ويريد اتصاله به بحسب الإمكان.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد باب الحراسة في الغزو في سبيل الله مع اختلاف يسير في اللفظ، وانظر جامع الأصول ٩/٤٩٤.

قال الجنيد:[1] لا يكون العبد عبدا حتى يكون مما سوى الله تعالى حرا. وهذا مطابق لهذا الحديث، فإنه لا يكون عبدا لله خالصا مخلصا دينه لله كله حتى لا يكون عبدا لما سواه، ولا فيه شعبة، ولا أدنى جزء من عبودية ما سوى الله، فإذا كان يرضيه ويسخطه غير الله فهو عبد لذلك الغير، ففيه من الشرك بقدر محبته، وعبادته لذلك الغير زيادة.

قال «الفضيل بن عياض»[2] والله ما صدق الله في عبوديته من لأحد من المخلوقين عليه ربانية. وقال زيد بن عمرو بن نفيل:[3]

أربا واحدا، أم ألف رب ... أدين إذا تقسمت الأمور؟!

روى الإمام أحمد والترمذي والطبراني من حديث أسماء بنت عميس قالت: قال رسول الله ﷺ: **«بئس العبد عبد تخيل واختال، ونسي الكبير المتعال، بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسي الجبار الأعلى، بئس العبد عبد سها ولها ونسي المقابر والبلى، بئس العبد عبد بغى واعتدى ونسي المبدأ والمنتهى، بئس العبد عبد يختل الدنيا بالدين، بئس العبد عبد يختل الدين بالشبهات، بئس العبد عبد رغب يذله ويزيله عن الحق، بئس العبد عبد طمع يقوده، بئس العبد عبد هوى يضله»**[4] قال الترمذي: غريب. وفي الحديث الصحيح المتقدم ما يقويه. والله أعلم.

---

(١) الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي، صوفي من العلماء عده العلماء شيخ مذهب التصوف لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة ولكونه مصونا من العقائد الذميمة، سالما من كل ما يوجب اعتراض الشرع، من كلامه: طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة؛ من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به. مات ببغداد سنة ٢٩٧هـ الأعلام ٢/١٤١ط٤.

(٢) الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي. شيخ الحرم المكي من أكابر العباد الصلحاء كان ثقة في الحديث. أخذ عنه خلق كثيرون منهم الإمام الشافعي. مات سنة ١٨٧هـ. الأعلام ٥/٣٦٠ ط٣.

(٣) زيد بن عمرو بن نفيل، أحد الحكماء ابن عم عمر بن الخطاب، كان يكره عبادة الأوثان عبد الله في الجاهلية على دين إبراهيم، وكان عدوا لوأد البنات، قال عنه الرسول ﷺ «يبعث يوم القيامة أمة وحده» مات قبل البعثة النبوية. الأعلام ٣/١٠٠ ط٣

(٤) ضعيف. انظر ضعيف الجامع الصغير ٢٣٤٩.

وكذلك أحاديث وآثار كثيرة، رويت في معنى ذلك. كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[1]

اتباع الهوى يحطم الانسان:

ولما أتم الشيخ الكلام في هذا أراد أن يبين ويربط ـ كعادته ـ الأمور التي هي في عداد النظر والفكر لدى خاصة الأفراد بالواقع السياسي والاقتصادي. فانتقل بنا نقلة أحسسنا بها بسرعة فائقة، لأنها تحدثنا عن وقائع ملموسة.

قال الإمام: هذا الذي أقوله تجدونه أيضا في طالب الرئاسة ـ ولو بالباطل ـ ترضيه الكلمة التي فيها تعظيمه وإن كان باطلا، وتغضبه الكلمة التي فيها ذمه وإن كانت حقا والمؤمن ترضيه كلمة الحق له وعليه، وتغضبه كلمة الباطل له وعليه؛ لأن الله تعالى يحب الحق والصدق والعدل، ويبغض الكذب والظلم.

فإذا قيل الحق والصدق والعدل الذي يحبه الله أحبه، وإن كان فيه مخالفة هواه؛ لأن هواه قد صار تبعا لما جاء به الرسول. وإذا قيل الظلم والكذب فالله يبغضه، والمؤمن يبغضه، ولو وافق هواه.

وكذلك طالب المال ـ ولو بالباطل ـ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ ، وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[2] وهؤلاء هم الذين قال فيهم: «تعس عبد الدينار» الحديث. فكيف إذا استولى على القلب ما هو أعظم استعبادا من الدرهم والدينار من الشهوات والأهواء، والمحبوبات التي تجذب القلب عن كمال محبته لله وعبادته؟! لما فيها من المزاحمة والشرك بالمخلوقات، كيف تدفع القلب وتزيغه عن كمال محبته لربه وعبادته وخشيته؛ لأن كل محبوب يجذب قلب محبه إليه، ويزيغه عن محبة غير محبوبه، وكذلك المكروه يدفعه ويزيله ويشغله عن عبادة الله تعالى.

---

(١) سورة البقرة آية ١٦٥.

(٢) سورة التوبة آية ٥٨.

ولهذا روى الإمام أحمد في «مسنده» وغيره. أن النبي ﷺ قال لأصحابه: «الفقر تخافون؟ لا أخاف عليكم الفقر. وإنما أخاف عليكم الدنيا، حتى إن قلب أحدكم إذا زاغ لايزيغه إلا هي»[1].

وكذلك الذين يحبون العبد كأصدقائه، والذين يبغضونه كأعدائه، فالذين يحبونه يجذبونه إليهم، فإذا لم تكن المحبة منهم له لله كان ذلك مما يقطعه عن الله، والذين يبغضونه يؤذونه ويعادونه فيشغلونه بأذاهم عن الله، ولو أحسن إليه أصدقاؤه الذين يحبونه لغير الله أوجب إحسانهم إليه محبته لهم، وانجذاب قلبه إليهم، ولو كان على غير الاستقامة، وأوجب مكافأته لهم، فيقطعونه عن الله وعبادته.

علاج القلب من فتنة الشهوات:

قلت: إذا ابتلي القلب بالفتنة من شهوة أو منصب أو مال، أو ابتلي فيما يخافه فكيف السبيل إلى زواله؟

قال الإمام: لا تزول الفتنة عن القلب إلا إذا كان دين العبد كله لله عز وجل، فيكون حبه لله ولما يحبه الله، وبغضه لله ولما يبغضه الله، وكذلك موالاته ومعاداته، وإلا فمحبة المخلوق تجذبه، وحب الخلق له سبب يجذبهم به إليه، ثم قد يكون هذا أقوى، وقد يكون هذا أقوى، فإذا كان هو غالبا لهواه لم يجذبه مغلوب مع هواه، ولا محبوباته إليها؛ لكونه غالبا لهواه ناهيا لنفسه عن الهوى، لما في قلبه من خشية الله ومحبته التي تمنعه عن انجذابه إلى المحبوبات.

وأما حب الناس له فإنه يوجب أن يجذبوه هم بقوتهم إليهم، فإن لم يكن فيه قوة يدفعهم بها عن نفسه من محبة الله وخشيته، وإلا جذبوه وأخذوه إليهم، كحب امرأة العزيز ليوسف؛ فإن قوة «يوسف» ومحبته لله وإخلاصه وخشيته كانت أقوى من جمال امرأة العزيز وحسنها وحبه لها، هذا إذا أحب أحدهم صورته، مع أن هنا الداعي قوي

---

(١) أخرجه ابن ماجه مع زيادة في اللفظ. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (حديث رقم ٦٨٨).

منه ومنهم، فهنا المعصوم من عصمه الله، وإلا فالغالب على الناس في المحبة من الطرفين أنه يقع بعض الشر بينهم.

ولهذا قال رسول الله ﷺ: **«لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان»**[1].

ثم شرع الإمام في بيان هذا الأمر في الممارسات والمعاملات اليومية بين الناس وتحدث حديث الخبير المجرب الواعي الفطن الذي يعيش بين الناس بالقرآن والسنة ويتفاعل معهم من منطلقهما وفي ضوء توجيههما.

فيقول الإمام مواصلا كلامه: وقد يحبونه لعلمه أو دينه أو إحسانه أو غير ذلك؛ فالفتنة في هذا أعظم؛ إلا إذا كانت فيه قوة إيمانية، وخشية وتوحيد تام؛ فإن فتنة العلم والجاه والصور فتنة لكل مفتون. وهم مع ذلك يطلبون منه مقاصدهم، إن لم يفعلها وإلا نقص الحب، أو حصل نوع بغض، وربما زاد أو أدى إلى الانسلاخ من حبه، فصار مبغوضا بعد أن كان محبوبا، فأصدقاء الإنسان يحبون استخدامه واستعماله في أغراضهم، حتى يكون كالعبد لهم، وأعداؤه يسعون في أذاه وإضراره، وأولئك يطلبون منه انتفاعهم، وإن كان مضرا له مفسدا لدينه لايفكرون في ذلك. وقليل منهم الشكور.

فالطائفتان في الحقيقة لا يقصدون نفعه ولا دفع ضرره، وإنما يقصدون أغراضهم به، فإن لم يكن الإنسان عابدا الله، متوكلا عليه مواليا له ومواليا فيه ومعاديا، وإلا أكلته الطائفتان، وأدى ذلك إلى هلاكه في الدنيا والآخرة.

وهذا هو المعروف من أحوال بني آدم، وما يقع بينهم من المحاربات والمخاصمات والاختلاف والفتن. قوم يوالون زيدا ويعادون عمرا.. وآخرون بالعكس؛ لأجل أغراضهم، فإذا حصلوا على أغراضهم ممن يوالونه وما هم طالبونه من زيد انقلبوا إلى عمرو، وكذلك أصحاب عمرو كما هو الواقع بين أصناف الناس.

وكذلك الرأس من الجانبين، يميل إلى هؤلاء الذين يوالونه وهم ـ إذا لم تكن

---

(١) أخرجه أحمد (١/٢٦) والطيالسي (٧) والترمذي (٢١٦٦) والحميدي (٣٢) وصححه الحاكم (١/١١٢).

الموالاة لله ـ أضر عليه من أولئك؛ فإن أولئك إنما يقصدون إفساد دنياه: إما بقتله، أو بأخذ ماله، وإما بإزالة منصبه، وهذا كله ضرر دنيوي لايعتد به إذا سلم العبد، وهو عكس حال أهل الدنيا ومحبيها الذين لا يعتدون بفساد دينهم مع سلامة دنياهم. فهم لا يبالون بذلك. وأما «دين العبد» الذي بينه وبين الله فهم لا يقدرون عليه.

وأما أولياؤه الذين يوالونه للأغراض، فإنما يقصدون منه فساد دينه بمعاونته على أغراضه وغير ذلك، فإن لم يفعلوا انقلبوا أعداء. فدخل بذلك عليه الأذى من جهتين: من جهة مفارقتهم، ومن جهة عداوتهم.

وعداوتهم أشد عليه من عداوة أعدائه؛ لأنهم قد شاهدوا منه. وعرفوا ما لم يعرفه أعداؤه. فاستجلبوا بذلك عداوة غيرهم فتتضاعف العداوة.

وإن لم يحب مفارقتهم احتاج إلى مداهنتهم ومساعدتهم على ما يريدونه، وإن كان فيه فساد دينه. فإن ساعدهم على نيل مرتبة دنيوية ناله مما يعملون فيها نصيبا وافرا وحظا تاما من ظلمهم وجورهم، وطلبوا منه أيضا أن يعاونهم على أغراضهم، ولو فاتت أغراضه الدنيوية. فكيف بالدينية إن وجدت فيه أو عنده!! فإن الإنسان ظالم جاهل لا يطلب إلا هواه.

فإن لم يكن هذا في الباطن يحسن إليهم، ويصبر على أذاهم. ويقضي حوائجهم لله، وتكون استعانته عليهم بالله تامة، وتوكله على الله تاماً. وإلا أفسدوا دينه ودنياه، كما هو الواقع المشاهد من الناس ممن يطلب الرئاسة الدنيوية، فإنه يطلب منه من الظلم والمعاصي ما ينال به تلك الرئاسة، ويحسن له هذا الرأي، ويعاديه إن لم يقم معه، كما قد جرى ذلك مع غير واحد.

وذلك يجري فيمن يحب شخصا لصورته، فإنه يخدمه ويعظمه ويعطيه ما يقدر عليه، ويطلب منه من المحرم ما يفسد دينه.

وفيمن يحب صاحب «بدعة» لكونه له داعية إلى تلك البدعة، يحوجه إلى أن ينصر الباطل الذي يعلم أنه باطل. وإلا عاداه، ولهذا صار علماء الكفار وأهل البدع

مع علمهم بأنهم على الباطل ينصرون ذلك الباطل؛ ولأجل الأتباع والمحبين، ويعادون أهل الحق ويهجنون طريقهم.

فمن أحب غير الله ووالى غيره كره محب الله ووليه، ومن أحب أحدا لغير الله كان ضرر أصدقائه عليه أعظم من ضرر أعدائه؛ فإن أعداءه غايتهم أن يحولوا بينه وبين هذا المحبوب الدنيوي، والحيلولة بينه وبينه رحمة في حقه، وأصدقاؤه يساعدونه على نفي تلك الرحمة وذهابها عنه، فأي صداقة هذه؟! ويحبون بقاء ذلك المحبوب ليستعملوه في أغراضهم، وفيما يحبونه، وكلاهما ضرر عليه.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[1] قال الفضيل بن عياض عن ليث عن مجاهد: هي المودات التي كانت لغير الله، والوصلات التي كانت بينهم في الدنيا ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[2] فالأعمال التي أراهم الله حسرات عليهم: هي الأعمال التي يفعلها بعضهم مع بعض في الدنيا كانت لغير الله، ومنها الموالاة والصحبة والمحبة لغير الله. فالخير كله في أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وحين وصول الإمام إلى هذه الحوقلة سكت وأخذ يتطلع إلى وجوه القوم، وكلنا فاغر فاه عجبا مما يسمع من هذا المنطق والتحليل البديع والربط بالآيات والأحاديث.

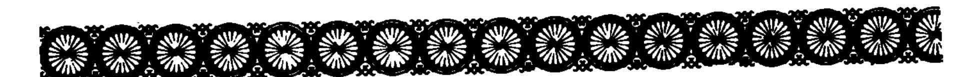
ثم قال: أسأل الله أن ينفعنا بما سمعنا والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وإلى لقاء الغد إن شاء الله أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

---

(١) سورة البقرة آية ١٦٦.

(٢) سورة البقرة آية ١٦٧.

المجلس الرابع



البخل والهوى والعشق

- البغضاء والظلم من ثمار الحسد
- مقاومة مرض الشهوة والعشق
- مفاسد العشق والوقاية منها
- الفطرة وأمراض القلوب
- علاج ناجع ودواء شاف

المجلس الرابع
البخل والهوى والعشق

سلم الشيخ من صلاته إماما بالمصلين الذين وفدوا من أنحاء متفرقة من بلاد الشام من داخلها وخارجها. ثم تحلق طلاب العلم والعامة حول الشيخ يتصدر حلقته بعض أقران الشيخ من العلماء، ويليهم تلاميذه المقربون الملازمون له في كل مجلس. وقد أخذ الشيخ مجلسه بتواضع وهيبة ووقار، فلما هدأت الحركة وسكنت الأصوات سرى صوت الشيخ الرخيم المعهود الجهوري: «الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى وآله وصحبه وسلم تسليما.

أما بعد: فيأيها الأحباب الكرام إني أحبكم في الله، من لقيته ومن عرفته، ومن لم ألقه ولم أعرفه، فإن الأرواح جنود مجندة ما تعارف منهاائتلف، وما تنافر منها اختلف.
وحبي لكم يجعلني أحدثكم عن قلوبكم فأفتحها لكم طواعية، لتنظروا ما بها من صحة أو مرض، فتحمدوا الله على ما بها من صحة، وتعملوا على إصلاح ما بها من علة ومرض، وكم من القلوب يظنها أصحابها سليمة، والمرض ينخرها نخرا لو كان في جبل لانهد.
وإني بعون الله وتسديده واضع أيديكم على ما خفي من الأمراض، فاسمعوا مني وفقكم الله ورعاكم.
إن من أمراض القلب البغضاء والعشق والبخل.

البغضاء والظلم من ثمار الحسد:

أما البغضاء فهو مرض يصاحب مرض الحسد، ولذا فقد قرن في الحديث الحسد بالبغضاء. فقال ﷺ «دب إليكم داء الأمم قبلكم: **الحسد والبغضاء...**»[1]. لأن الحاسد يكره أولا فضل الله على ذلك الغير، ثم ينتقل إلى بغضه، فإن بغض اللازم يقتضي بغض الملزوم، فإن نعمة الله إذا كانت لازمة - وهو يحب زوالها وهي لا تزول إلا بزواله - أبغضه وأحب عدمه.

والحسد يوجب البغي، كما أخبر الله تعالى عمن قبلنا أنهم اختلفوا ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾[2]، فلم يكن اختلافهم لعدم العلم، بل علموا الحق، ولكن بغي بعضهم على بعض، كما يبغي الحاسد على المحسود. وفي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانا. ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال: يلتقيان، فيصد هذا ويصد هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام**»[3]، وقد قال ﷺ في الحديث المتفق على صحته من رواية أنس أيضا «**والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[4]. وقد قال تعالى ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[5]

فهؤلاء المبطئون لم يحبوا لإخوانهم المؤمنين ما يحبون لأنفسهم، بل إن أصابتهم مصيبة فرحوا باختصاصهم، وإن أصابتهم نعمة لم يفرحوا لهم بها، بل أحبوا أن يكون لهم منها حظ، فهم لا يفرحون إلا بدنيا تحصل لهم، أو شر دنيوي ينصرف عنهم؛ إذ كانوا

---

(١) أخرجه الترمذي في باب سوء ذات البين، وفي سنده جهالة مولى الزبير رضي الله عنه كما في جامع الأصول ٣/٦٢٦. وقال الألباني: ضعيف (ضعيف الجامع٢٩٥٧).

(٢) سورة آل عمران آية ١٩.

(٣) هما حديثان في اللؤلؤ والمرجان رقم ١٦٥٨ و١٦٥٩.

(٤) اللؤلؤ والمرجان دون لفظ «والذي نفسي بيده» حديث رقم ٢٨.

(٥) سورة النساء آية ٧٢، ٧٣.

لا يحبون الله ورسوله والدار الآخرة، ولو كانوا كذلك لأحبوا إخوانهم وأحبوا ما وصل إليهم من فضله، وتألموا بما يصيبهم من المصيبة، ومن لم يسره ما يسر المؤمنين ويسوؤه ما يسوء المؤمنين فليس منهم. ففي الصحيحين عن عامر (الشعبي) قال «سمعت النعمان ابن بشير يخطب ويقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**»،[1] وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا، وشبك بين أصابعه**»[2]

قلت: يا إمامنا الجليل أيهما شر من الآخر الحسد أم البخل؟

قال الإمام: الحسد شر من البخل كما في الحديث الذي رواه أبو داود عن النبي ﷺ أنه قال: **الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، والصدقة تطفىء الخطيئة كما تطفىء الماء النار**»[3] وذلك أن البخيل يمنع نفسه، والحسود يكره نعمة الله على عباده. وقد يكون في الرجل إعطاء لمن يعينه على أغراضه، وحسد لنظرائه. وقد يكون فيه بخل بلا حسد لغيره. والشح أصل ذلك قال تعالى: ﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ**﴾[4] وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «**إياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم: أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا**»[5].

وكان عبدالرحمن بن عوف يكثر من الدعاء في طوافه يقول «اللهم قني شح نفسي» فقال له رجل: **ما أكثر ما تدعو بهذا؟** فقال: إذا وقيت شح نفسي وقيت الشح والظلم والقطيعة[6]. والحسد يوجب الظلم.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه. انظر مختصر صحيح مسلم رقم ١٧٧٤.

(٢) متفق عليه.

(٣) هذا جزء من حديث رواه ابن ماجة عن أنس بن مالك وروى أبو داود جزءا منه «لم يذكر الصدقة..» الخ وهو ضعيف. انظر جامع الأصول ٣/٦٢٥ وضعيف الجامع حديث رقم ٢٧٨٠.

(٤) سورة الحشر آية ٩.

(٥) **تقدم تخريجه**

(٦) رواه ابن جرير مع اختلاف بعض الألفاظ. مختصر تفسير ابن كثير ٣/٤٧٥.

فالبخل والحسد مرض يوجب بغض النفس لما ينفعها، بل وحبها لما يضرها، ولهذا يقرن الحسد بالحقد والغضب.

مقاومة مرض الشهوة والعشق:

قلت: هذا يا إمامنا عن البخل والحسد. فماذا عن مرض الشهوة والعشق؟ وما حقيقتها؟ وكيف يكون تعامل المسلم معهما؟

قال الإمام: يا أعزائي هذا مبحث دقيق والخوض فيه يحتاج إلى مزيد حذر، **أسأل الله** التسديد والتوفيق. فأقول ومن الله وحده العون: مرض الشهوة والعشق هو حب النفس لما يضرها، وقد يقترن به بغضها لما ينفعها.

ثم سكت الشيخ قليلا فقلت: ألا يؤثر هذا المرض النفسي في البدن؟

قال الإمام: بلى إذا قوى أثر في البدن فصار مرضا في الجسم: إما من أمراض الدماغ كالماليخوليا، ولذلك قيل فيه هو مرض وسواسي شبيه بالماليخوليا. وإما من أمراض البدن كالضعف والنحول ونحو ذلك، والمقصود هنا مرض القلب، فإنه أصل محبة النفس لما يضرها، كمريض البدن الذي يشتهي ما يضره، وإذا لم يطعم ذلك تألم، وإن أطعم قوى به المرض وزاد. كذلك العاشق يضره اتصاله بالمعشوق مشاهدة وملامسة وسماعا، بل ويضره التفكر فيه والتخيل له وهو يشتهي ذلك، فإن منع من مشتهاه تألم وتعذب، وإن أعطي مشتهاه قوي مرضه، وكان سببا لزيادة الألم.

وفي الحديث «**إن الله يحمي عبده المؤمن الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه الطعام والشراب**»[1]. وفي مناجاة موسى المأثورة عن وهب «يقول الله تعالى: إني لأذود أوليائي عن نعيم الدنيا ورخائها، كما يذود الراعي الشفيق إبله عن مراتع الهلكة. وإني لأجنبهم سكونها وعيشها، كما يجنب الراعي الشفيق إبله عن مبارك الغرة، وما ذلك لهوانهم

---

(١) رواه الترمذي في أبواب الطب حديث رقم ٢١٠٧ بلفظ «إذا أحب الله عبدا حماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمى سقيمه الشراب» ورواه الحاكم والبيهقي في «الشعب» وصححه الألباني (صحيح الجامع ٢٧٩).

علي، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالما موفرا، لم تكلمه الدنيا، ولم يطفئه الهوى»[1]. وإنما شفاء المريض بزوال مرضه، بل بزوال ذلك الحب المذموم من قلبه.

مفاسد العشق والوقاية منها:

قلت: هل العشق نوع من الإرادة، أم هو مجرد تصور؟

قال الإمـام: الناس في العشق على قولين: قيل إنه من باب الإرادات، وهذا هو المشهور. وقيل من باب التصورات، وإنه فساد في التخييل، حيث يتصور المعشوق على غير ما هو به. قال هؤلاء: ولهذا لا يوصف الله بالعشق ولا أنه يعشق لأنه منزه عن ذلك، ولا يحمد من يتخيل فيه خيالا فاسدا.

وأما الأولون فمنهم من قال: يوصف بالعشق، فإنه المحبة التامة، والله يحب ويحب. وروي في أثر عن عبدالواحد بن زيد أنه قال: لا يزال عبدي يتقرب إلي، يعشقني وأعشقه. وهذا قول بعض الصوفية. والجمهور لا يطلقون هذا اللفظ في حق الله، لأن العشق هو المحبة المفرطة، الزائدة على الحد الذي ينبغي، والله تعالى محبته لا نهاية لها فليست تنتهي إلى حد لا تنبغي مجاوزته. قال هؤلاء: والعشق مذموم مطلقا، لا يمدح في محبة الخالق ولا المخلوق، لأنه المحبة المفرطة الزائدة على الحد المحدود. وأيضا فإن لفظ العشق إنما يستعمل في العرف في محبة الإنسان لامرأة أو صبي، ولا يستعمل في محبة كمحبة الأهل والمال والجاه، ومحبة الأنبياء والصالحين. وهو مقرون كثيرا بالفعل المحرم: إما بمحبة امرأة أجنبية، أو صبي يقترن به النظر المحرم واللمس المحرم، وغير ذلك من الأفعال المحرمة.

وأما محبة الرجل لامرأته محبة تخرجه عن العدل بحيث يفعل لأجلها ما لا يحل ويترك ما يجب ـ كما هو الواقع كثيرا ـ حتى يظلم ابنه من امرأته العتيقة لمحبته الجديدة، وحتى يفعل من مطالبها المذمومة ما يضره في دينه ودنياه، مثل أن يخصها بميراث لا تستحقه، أو يعطي أهلها من الولاية والمال ما يتعدى به حدود الله، أو يسرف في الإنفاق

---

(١) الزهد للإمام أحمد بن حنبل.

عليها، أو يمكنها من أمور محرمة تضره في دينه ودنياه ـ وهذا في عشق من يباح له وطؤها، فكيف عشق الأجنبية والذكران من العالمين ـ ففيه من الفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد، وهو من الأمراض التي تفسد دين صاحبها وعرضه، ثم قد تفسد عقله ثم جسمه، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾[1]، ومن في قلبه مرض الشهوة وإرادة الصورة متى خضع المطلوب طمع المريض، والطمع يقوي الإرادة والطلب، ويقوى المرض بذلك، بخلاف ما إذا كان آيسا من المطلوب.

قلت: أو يكون اليأس دواء حينئذ؟

قال الإمام: نعم. فإن اليأس يزيل الطمع فتضعف الإرادة فيضعف الحب، فإن الإنسان لا يريد أن يطلب ما هو آيس منه، فلا يكون مع الإرادة عمل أصلا، بل يكون حديث نفس، إلا أن يقترن بذلك كلام أو نظر ونحو ذلك. فأما إذا ابتلى بالعشق وعف وصبر فإنه يثاب على تقواه لله؛ وقد روي في الحديث «**أن من عشق فعف وكتم وصبر ثم مات كان شهيدا**»[2] وهو معروف من رواية أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعا، وفيه نظر، ولا يحتج بهذا. لكن من المعلوم بأدلة الشرع أنه إذا عف عن المحرمات نظرا وقولا وعملا وكتم ذلك فلم يتكلم به حتى لا يكون في ذلك كلام محرم ـ إما شكوى إلى المخلوق، وإما إظهار فاحشة، وإما نوع طلب للمعشوق ـ وصبر على طاعة الله وعن معصيته وعلى ما في قلبه من ألم العشق كما يصبر المصاب عن ألم المصيبة، فإن هذا يكون ممن اتقى الله وصبر، و ﴿مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3]. وهكذا «مرض الحسد» وغيره من أمراض النفوس.

قلت: إذا كانت نفوسنا تطلب وترغب فيما يغضب الله تبارك وتعالى. فماذا نفعل؟ وبماذا نجيبها؟

قال الإمام: إذا كانت النفس تطلب ما يبغضه الله، فيجب أن ينهاها المسلم خشية

---

(١) سورة الأحزاب آية ٣٢.

(٢) موضوع. انظر «ضعيف الجامع» الحديثين ٥٧٠٩ و٥٧١٠ والسلسلة الضعيفة حديث رقم ٤٠٩.

(٣) سورة يوسف آية ٩٠.

من الله، ليكون ممن دخل في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾[1].

فالنفس إذا أحبت شيئا سعت في حصوله بما يمكن، حتى تسعى في أمور كثيرة تكون كلها مقامات لتلك الغاية، فمن أحب محبة مذمومة أو أبغض بغضا مذموما وفعل ذلك كان آثما، مثل أن يبغض شخصا لحسده له فيؤذي من له به تعلق، إما بمنع حقوقه، أو بعدوان عليهم، أو لمحبة له لهواه معه فيفعل لأجله ما هو محرم، أو ما هو مأمور به لله فيفعله لأجل هواه لا لله. وهذه أمراض كثيرة في النفوس، والإنسان قد يبغض شيئا فيبغض لأجله أمورا كثيرة بمجرد الوهم والخيال، وكذلك يحب شيئا فيحب لأجله أمورا كثيرة لأجل الوهم والخيال. كما قال شاعرهم:

أحب لحبها السودان حتى ... أحب لحبها سود الكلاب

فقد أحب سوداء، فأحب جنس السواد حتى في الكلاب. وهذا كله مرض في القلب في تصوره وإرادته. فنسأل الله أن يعافي قلوبنا من كل داء. ونعوذ بالله من منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء.

الفطرة وأمراض القلب:

قلت: يا إمامنا كثرت أمامنا تفريعات وتشقيقات القلوب وما فيها من أمراض الحسد والبغض والبخل والعشق وما إلى ذلك، الأمر الذي يجعلنا نسأل عن فطرة القلب الأصيلة التي فطره الله عليها وخلقه على وفقها.

قال الإمام: هذا سؤال في محله سيغنيني الجواب عليه عن الخوض في كثير من مسائل القلوب، فأقول وبالله التوفيق: القلب إنما خلق لأجل حب الله تعالى، وهذه الفطرة التي فطر الله عليها عباده كما قال النبي ﷺ **«كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء»**.

ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: اقرءوا إن شئتم: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها

(١) سورة النازعات آية ٣٩.

لا تبديل لخلق الله﴾[1]. فالله سبحانه فطر عباده على محبته وعبادته وحده، فإذا تركت الفطرة بلا فساد كان القلب عارفا بالله محبا له وحده، لكن تفسد فطرته من مرضه ـ كأبويه يهودانه أو ينصرانه ـ وهذه كلها تغير فطرته التي فطره الله عليها، وإن كانت بقضاء الله وقدره كما يغير البدن بالجدع[2]، ثم قد يعود إلى الفطرة إذا يسر الله تعالى له من يسعى في إعادته إلى الفطرة.

والرسل ـ صلى الله عليهم وسلم ـ بعثوا لتقرير الفطرة وتكميلها، لا لتغيير الفطرة وتحويلها. وإذا كان القلب محبا لله وحده مخلصا له الدين لم يبتل بحب غيره، فضلا أن يبتلى بالعشق، وحيث ابتلى بالعشق فلنقص محبته لله وحده. ولهذا لما كان يوسف محبا لله مخلصا له الدين لم يبتل بذلك، بل قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[3]. وأما امرأة العزيز فكانت مشركة هي وقومها، فلذلك ابتليت بالعشق، وما يبتلى بالعشق أحد إلا لنقص توحيده وإيمانه، وإلا فالقلب المنيب إلى الله الخائف منه، فيه صارفان يصرفانه عن العشق:

أحدهما إنابته إلى الله ومحبته له، فإن ذلك ألذ وأطيب من كل شيء، فلا تبقى مع محبة الله محبة مخلوق تزاحمه.

والثاني خوفه من الله؛ فإن الخوف المضاد للعشق يصرفه.

وكل من أحب شيئا ـ بعشق، أو بغير عشق ـ فإنه يصرف عن محبته بمحبة ما هو أحب إليه منه إذا كان يزاحمه، وينصرف عن محبته بخوف حصول ضرر يكون أبغض إليه من ترك ذاك الحب، فإذا كان الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأخوف عنده من كل شيء، لم يحصل معه عشق ولا مزاحمة إلا عند غفلة، أو عند ضعف هذا الحب والخوف، بترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات، فإن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فكلما فعل العبد الطاعة محبة لله وخوفا منه، وترك المعصية حبا له وخوفا منه، قوى حبه له وخوفه منه، فيزيل ما في القلب من محبة غيره، ومخافة غيره.

---

(١) متفق عليه وبدؤه (ما من مولود إلا يولد على الفطرة) والآية من سورة الروم رقم ٣٣٠ انظر جامع الأصول ١/٢٦٨.

(٢) الجدع كالمنع: الحبس، والسجن وقطع الأنف. انظر القاموس المحيط (جدع).

(٣) سورة يوسف آية ٢٤.

علاج ناجع ودواء شـافٍ:

قلت: وهل يماثل ما ذكرتم في أمراض القلوب أمراض الأبدان؟

قال الإمام: نعم مثل ذلك أمراض الأبدان: فإن الصحة تحفظ بالمثل، والمرض يدفع بالضد. فصحة القلب بالإيمان تحفظ بالمثل، وهو ما يورث القلب إيمانا من العلم النافع والعلم الصالح، فتلك أغذية له، كما في حديث ابن مسعود مرفوعا وموقوفا «**إن كل آدب يحب أن تؤتى مأدبته، وإن مأدبة الله هي القرآن**»[1] والآدب المضيف؛ فهو ضيافة الله لعبـاده. **فعلى العبد المسلم أن يدعو الله خصوصا آخر الليل**، وأوقات الأذان والإقامة، وفي سجوده، وفي أدبار الصلوات. ويضم إلى ذلك الاستغفار، فإنه من استغفر الله ثم تاب إليه متعه متاعا حسنا إلى أجل مسمى. وليتخذ وردا من الأذكار في النهار ووقت النوم، وليصبر على ما يعرض له من الموانع والصوارف، فإنه لا يلبث أن يؤيده الله بروح منه، ويكتب الإيمان في قلبه. وليحرص على إكمال الفرائض من الصلوات الخمس باطنة وظاهرة، فإنها عمود الدين. وليكن هجِّيْرَاه[2] «لا حول ولا قوة إلا بالله» فإنها بها تحمل الأثقال، وتكابد الأهوال، وينال رفيع الأحوال. ولا يسأم من الدعاء والطلب، فإن العبد يستجاب له ما لم يعجل فيقول: قد دعوت ودعوت فلم يستجب لي، وليعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا، ولم ينل أحد شيئا من ختم الخير - نبي فمن دونه - إلا بالصبر.

والحمد لله رب العالمين، وله الحمد والمنة على الإسلام والسنة، حمدا يكافىء نعمه الظاهرة والباطنة، وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليما كثيرا.

وإلى لقاء المجلس القادم إن شاء الله تعالى أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

---

(١) رواه الدارمي في فضائل القرآن.

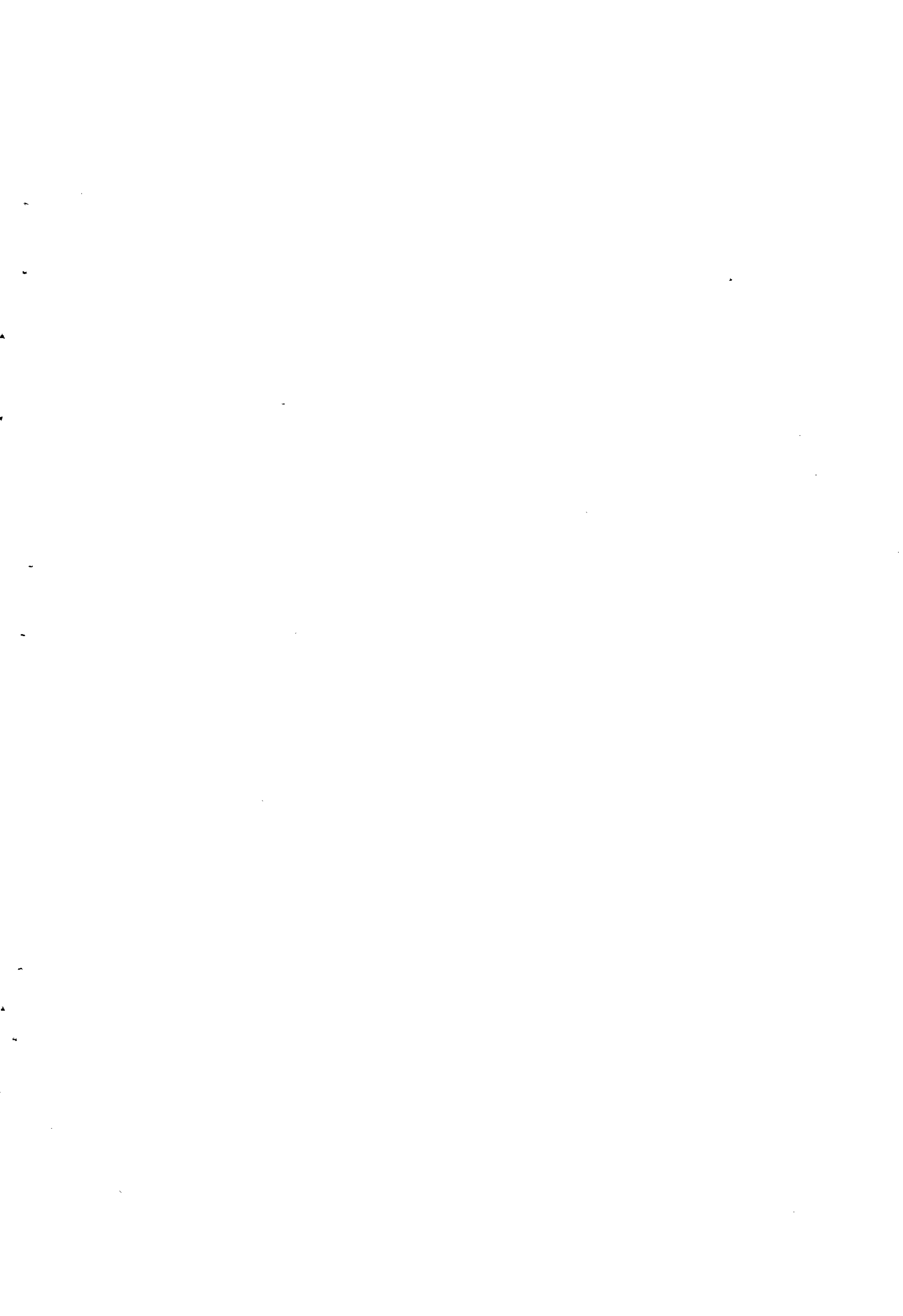
(٢) هجيراه: دأبه وشأنه. القاموس المحيط (هجر).

المجلس الخامس



الحسد والغبطة

- حقيقة الحسد ونوعاه
- التنافس في الخير ليس من الحسد
- بواعث الحسد
- التعفف عما في أيدي الناس يرفع صاحبه



المجلس الخامس
الحسـد والغبطـة

إن حديث القلوب ليس بالأمر الهين الميسور، ولا يحسن ركوب صعابه، وتذليل مسالكه كل أحد، فإنما يحتاج إلى علم رباني خبير اتخذ من القرآن والسنة منهج حياته وسراجه الذي به يستكشف القلوب، ويسبر أغوارها فيشخص أمراضها وعللها، ويستخرج لكل مرض ما يخصه من علاج القرآن والسنة، فهما صيدلية الإسلام على الدوام.

وكان مجلس اليوم حول موضوع من تلك المواضيع الهامة الدقيقة التي تحتاج لتجليتها أمثال الإمام الشيخ ابن تيمية، إنه موضوع علة ومرض يصيب القلوب فيمرضها وقد يميتها، إنه مرض الحسد أعاذنا الله منه.

وبعد أن اكتمل الحضور في مجلس الشيخ المهيب، وأخذ العلماء وطلاب العلم مجالسهم وتأهب لتدوين كلام الشيخ التلاميذ وطلاب العلم الذين تحملوا المشاق والأسفار لحضور مجالس الشيخ فأمسكوا قراطيسهم وأقلامهم.

ثم سمع صوت الشيخ رخيما يسري إلى القلوب مباشرة «الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا. من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما.

أما بعد: فيا أحبائي الكرام وأعزائي القراء أحييكم بتحية الإسلام وأشرع معكم في بيان وشرح هذا المرض المعضل الذي تكره النفس الحديث عنه، ولكن لا بد لها من أن تسمعه ليدخل القلوب ويكشف عما إذا كان هذا المرض موجودا فينزع، أو يخلو القلب منه فيحصن ويوقى. فأقول وبالله وحده التوفيق.

. حقيقة الحسد ونوعاه:

إن الحسد أذى يلحق بسبب العلم بحسن حال الأغنياء. فلا يجوز أن يكون الفاضل حسودا، لأن الفاضل يجري على ما هو الجميل. وقد قال طائفة من الناس: إنه تمني زوال النعمة عن المحسود، وإن لم يصر للحاسد مثلها. بخلاف الغبطة فإنه تمني مثلها، من غير حب زوالها عن المغبوط. والتحقيق أن الحسد هو البغض، والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود.

وهو نوعان: أحدهما كراهة للنعمة عليه مطلقا، فهذا هو الحسد المذموم، وإذا أبغض ذلك فإنه يتألم ويتأذى بوجود ما يبغضه، فيكون ذلك مرضافي قلبه، ويلتذ بزوال النعمة عنه وإن لم يحصل له نفع بزوالها.

قلت: إنه يكفيه أن ألم قلبه قد زال، وذلك نفعه.

قال الشيخ: نعم نفعه بزوال الألم الذي كان في نفسه، ولكن تلك النعمة قد تعود على المحسود وأعظم منها.

والنوع الثاني أن يكره فضل ذلك الشخص عليه، فيجب أن يكون مثله أو أفضل منه، فهذا حسد، وهو الذي سموه الغبطة، وقد سماه النبي ﷺ حسدا في الحديث المتفق عليه من حديث ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهما قال «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها ويعلمها. ورجل آتاه الله مالا وسلطه على هلكته في الحق**»[1] هذا لفظ ابن مسعود. ولفظ ابن عمر «**رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل والنهار، ورجل آتاه الله مالا، فهو ينفق منه في الحق آناء الليل والنهار**»[2].

ورواه البخاري من حديث أبي هريرة ولفظه «**لا حسد إلا في اثنين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يتلوه الليل والنهار، فسمعه رجل فقال: يا ليتني أوتيت مثل ما أوتي هذا، فعملت فيه مثل ما يعمل هذا. ورجل آتاه الله مالا فهو يهلكه في الحق، فقال رجل: يا ليتني أوتيت مثل ما أوتي هذا، فعملت فيه مثل ما يعمل هذا**»[3]. فهذا الحسد

(١) اللؤلؤ والمرجان حديث رقم ٤٦٧ بلفظ مختلف.

(٢) اللؤلؤ والمرجان حديث رقم ٤٦٦.

(٣) أخرجه البخاري في باب اغتباط صاحب القرآن انظر جامع الأصول ٣/٦٢٥.

الذي نهى عنه النبي ﷺ إلا في موضعين هو الذي سماه أولئك الغبطة، وهو أن يحب مثل حال الغير ويكره أن يفضل عليه.

قلت: ألا يشكل هنا تسميته حسدا مادام همه أن ينعم الله عليه بمثل ما أنعم على صاحبه؟

قال الإمام: بلى قد يقال: لم سمي حسدا وإنما أحب أن ينعم الله عليه؟ فيقال: مبدأ هذا الحب هو نظره إلى إنعامه على الغير، وكراهته أن يفضل عليه. ولولا وجود ذلك الغير لم يحب ذلك، فلما كان مبدأ ذلك كراهته أن يفضل عليه الغير كان حسدا لأنه كراهة تتبعها محبة، وأما من أحب أن ينعم الله عليه مع عدم التفاته إلى أحوال الناس فهذا ليس عنده من الحسد شيء. ولهذا يبتلى غالب الناس بهذا القسم الثاني.

. التنافس في الخير ليس من الحسد:

قلت: إذاً يخرج من الحسد أن يتنافس ويتسابق الناس في الخير.

قال الإمام: إذا لم ينظر إلى أحوال الناس فهذا منافسة في الخير لا شيء فيها فيتنافس الاثنان في الأمر المحبوب المطلوب، كلاهما يطلب أن يأخذه، وذلك لكراهية أحدهما أن يتفضل عليه الآخر، كما يكره المستبقان كل منهما أن يسبقه الآخر.

والتنافس ليس مذموما مطلقا، بل هو محمود في الخير. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ، عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ، تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾،[1] فأمر المنافس أن ينافس في هذا النعيم، لا ينافس في نعيم الدنيا الزائل. وهذا موافق لحديث النبي ﷺ، فإنه نهى عن الحسد إلا فيمن أوتي العلم، فهو يعمل به ويعلمه. ومن أوتي المال، فهو ينفقه. فأما من أوتي علما ولم يعمل به ولم يعلمه، أو أوتي مالا ولم ينفقه في طاعة الله، فهذا لا يحسد، ولا يتمنى مثل حاله، فإنه ليس في خير يرغب فيه، بل هو معرض للعذاب.

---

(١) سورة المطففين آيات ٢٢-٢٦.

ومن ولى ولاية فيأتيها بعلم وعدل، وأدى الأمانات إلى أهلها، وحكم بين الناس بالكتاب والسنة، فهذا درجته عظيمة، لكن هذا في جهاد عظيم، كذلك المجاهد في سبيل الله.

قلت: لِمَ لَمْ يذكر النبي ﷺ من أصناف الحسد الجهاد في سبيل الله، وأمثاله من الحج والصوم والصلاة وما إليها من الأعمال الخيرة؟

قال الإمام: يا أبنائي، النفوس لا تحسد من هو في تعب عظيم، فلهذا لم يذكره النبي ﷺ وإن كان المجاهد في سبيل الله أفضل من الذي ينفق المال، بخلاف المنفق والمعلم فإن هذين ليس لهما في العادة عدو من خارج، فإن قدر أنهما لهما عدو يجاهدانه فذلك أفضل لدرجتهما. وكذلك لم يذكر النبي ﷺ المصلي والصائم والحاج، لأن هذه الأعمال لا يحصل منها في العادة من نفع الناس الذي يعظمون به الشخص ويسودونه ما يحصل بالتعليم والإنفاق.

. بواعث الحسد:

قلت: يا إمامنا الجليل هل الحسد يكثر في المناصب والأموال؟

قال الإمام: نعم الحسد في الأصل إنما يقع لما يحصل للغير من السؤدد والرياسة، وإلا فالعامل لا يحسد في العادة، ولو كان تنعمه بالأكل والشرب والنكاح أكثر من غيره، بخلاف هذين النوعين فإنهما يحسدان كثيرا، ولهذا يوجد بين أهل العلم الذين لهم أتباع من الحسد ما لا يوجد فيمن ليس كذلك، وكذلك فيمن له أتباع بسبب إنفاق ماله، فهذا ينفع الناس بقوت القلوب، وهذا ينفعهم بقوت الأبدان، والناس كلهم محتاجون إلى ما يصلحهم من هذا وهذا، ولهذا ضرب الله سبحانه مثلين: مثلا بهذا فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؟[1]

(١) سورة النحل آية ٧٥، ٧٦.

والمثلان ضربهما الله سبحانه لنفسه المقدسة ولما يعبد من دونه، فإن الأوثان لا تقدر لا على عمل ينفع، ولا على كلام ينفع.
فإذا قدر عبد مملوك لا يقدر على شيء، وآخر قد رزقه الله رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا، هل يستوي هذا المملوك العاجز عن الإحسان وهذا القادر على الإحسان المحسن إلى الناس سرا وجهرا؟ وهو سبحانه قادر على الإحسان إلى عباده، وهو محسن إليهم دائما، فكيف يشبه به العاجز المملوك الذي لا يقدر على شيء حتى يشرك به معه؟ وهذا مثل الذي أعطاه الله مالا، فهو ينفق منه آناء الليل والنهار.

والمثل الثاني: إذا قدر شخصان، أحدهما أبكم لا يعقل ولا يتكلم ولا يقدر على شيء، وهو مع هذا كلّ على مولاه، أينما يوجهه لا يأت بخير، فليس فيه من نفع قط، بل هو كلّ على من يتولى أمره. وآخر عالـمٌ عادل يأمر بالعدل ويعمل بالعدل فهو على صراط مستقيم.
وهذا نظير الذي أعطاه الله الحكمة فهو يعمل بها ويعلمها للناس.

وقد ضرب ذلك مثلا لنفسه، فإنه سبحانه عالم عادل قادر يأمر بالعدل، وهو قائم بالقسط على صراط مستقيم، كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1] وقال هود: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2]. ولهذا كان الناس يعظمون دار العباس: كان عبدالله يعلم الناس، وأخوه يطعم الناس، فكانوا يعظمون على ذلك. ورأى معاوية الناس يسألون ابن عمر عن المناسك وهو يفتيهم فقال: هذا والله الشرف. أو نحو ذلك.

هذا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه نافس أبا بكر رضي الله عنه الإنفاق كما ثبت في الصحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال «أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق، فوافق ذلك مالا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما. قال فجئت بنصف مالي، قال فقال لي رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله.

---

(١) سورة آل عمران آية ١٨.
(٢) سورة هـود آية ٥٦.

وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله. فقلت: لا أسابقك إلى شيء أبدا»[1]. فكان ما فعله عمر من المنافسة والغبطة المباحة.

قلت: إذا كان هذا من المنافسة المباحة فهل هنا مفاصلة بين الصاحبين في حالها هذه؟

قال الإمام: حال الصديق رضي الله عنه أفضل، فهو خال من المنافسة مطلقا، لا ينظر إلى حال غيره. وكذلك موسى ﷺ في حديث المعراج: حصل له منافسة وغبطة للنبي ﷺ حتى «بكى لما تجاوزه النبي ﷺ، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أبكي لأن غلاما بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي»[2].

ـ التعفف عما في أيدي الناس يرفع صاحبه:

قلت: هل نستطيع بناء على ذلك أن نعتبر في حكم القاعدة: أن من عنده همة الخير وليست لديه منافسة وغبطة أفضل ممن لديه تلك المنافسة والغبطة؟

قال الإمام: نعم لكم أن تعتبروا ذلك مطمئنين وأنا أسوق لكم ما يؤازر ويؤيد هذا فقد كان في الصحابة أبو عبيدة بن الجراح ونحوه، وكانوا سالمين من جميع هذه الأمور، فكانوا أرفع درجة ممن عنده منافسة وغبطة وإن كان ذلك مباحا، ولهذا استحق أبو عبيدة رضي الله عنه أن يكون «أمين هذه الأمة»، فإن المؤتمن إذا لم يكن في نفسه مزاحمة على شيء مما ائتمن عليه كان أحق بالأمانة ممن يخاف مزاحمته، ولهذا يؤتمن على النساء والصبيان الخصيان، ويؤتمن على الولاية الصغرى من يعرف أنه لا يزاحم على الكبرى، ويؤتمن على المال من يعرف أنه ليس له غرض في أخذ شيء منه، وإذا ائتمن من في نفسه خيانة شبه بالذئب المؤتمن على الغنم، فلا يقدر أن يؤدي الأمانة في ذلك، لما في نفسه من الطلب لما ائتمن عليه.

---

(١) أخرجه الترمذي في مناقب أبي بكر وأبو داود في الزكاة برقم ١٦٧٨، انظر صفة الصفوة للإمام جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي وهامشه ١/٢٤١ طبع دار المعرفة بيروت ١٣٩٩-١٩٧٩.
(٢) اللؤلؤ والمرجان حديث رقم ١٠٣.

وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال «كنا يوما جلوسا عند رسول الله ﷺ، فقال: يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة. قال فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوء، قد علق نعليه في يده الشمال، فسلم. فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك؛ فطلع ذلك الرجل على مثل حاله. فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مقالته، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله. فلما قام النبي ﷺ اتبعه عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه فقال: إني لاحيت أبي (أغضبته)، فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثا، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي الثلاث فعلت. قال: نعم. قال أنس رضي الله عنه: فكان عبدالله يحدث أنه بات عنده ثلاث ليال، فلم يره يقوم من الليل شيئا، غير أنه إذا تعار وانقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبر حتى يقوم إلى صلاة الفجر.

فقال عبدالله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيرا. فلما فرغنا من الثلاث ـ وكدت أن أحقر عمله ـ قلت: يا عبدالله، لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول ثلاث مرات: يطلع عليكم رجل من أهل الجنة، فطلعت أنت الثلاث المرات، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك، فأقتدي بذلك، فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ قال: ما هو إلا ما رأيت، غير أنني لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشا، ولا حسدا على خير أعطاه الله إياه.
قال عبدالله: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق»[1].

فقول عبدالله بن عمرو له «هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق» يشير إلى خلوه وسلامته من جميع أنواع الحسد، وبهذا أثنى الله تعالى على الأنصار فقال: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[2]

---

(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (٣/١٦٦) عن عبدالرزاق ثنا معمر عن الزهري قال اخبرني أنس بن مالك قال: فذكره وهذا اسناد صحيح.
(٢) سورة الحشر آية ٩.

أي مما أوتي إخوانهم المهاجرون قال المفسرون: لا يجدون في صدورهم حاجة أي حسدا وغيظا مما أوتي المهاجرون.

ثم قال بعضهم: من مال الفيء. وقيل: من الفضل والتقدم. فهم لا يجدون حاجة مما أوتوا من المال ولا من الجاه، والحسد يقع على هذا. وكان بين الأوس والخزرج منافسة على الدين، فكان هؤلاء إذا فعلوا ما يفضلون به عند الله ورسوله أحب الآخرون أن يفعلوا نظير ذلك، فهو منافسة فيما يقربهم إلى الله، كما قال: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[1].

قلت: تلخص من كلام فضيلتكم أن بعض الحسد ليس مذموما، فما بال الحسد المذموم كله؟

قال الإمام: هذا ما أبينه لكم تفصيلا في المجلس اللاحق بإذن الله.

---

(١) سورة المطففين آية ٢٦.

المجلس السادس



الحسد المذموم كله

- الحسد داء يصيب الكثيرين
- الصبر الاختياري والصبر الاضطراري
- علاج الحسد
- تحاسد أهل الرئاسات

المجلس السادس
الحسد المذموم كله

كان معظم حديث الشيخ في المجلس السابق عن النوع الأول من أنواع الحسد، وهو الغبطة، واليوم موعدنا مع الشيخ ليحدثنا عن النوع الثاني منه، وهو الحسد المذموم كله،وهو المرض الخطير الذي إن وجد له مكانا في القلب عاث فيه فسادا وأحاله إلى خراب، وصعب علاجه وإصلاحه.

ولأهمية هذا الموضوع ـ ومواضيع الشيخ كلها هامة ـ كان المسجد بساحاته وأفنيته يضيق بالحضور. ولما أخذ الشيخ مجلسه وانفتحت الآذان وانبسطت القلوب واستسلمت لمجلس الشيخ وكلامه العذب النقي المتدفق من قلب مؤمن زكي. قال: الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلا هادي له،وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله و أصحابه وسلم تسليما.

أما بعد: فاعلموا وفقكم الله وعافاكم أن النوع الثاني من أنواع الحسد ـ بعد بيان الأول وهو الحسد بمعنى الغبطة ـ هو الحسد المذموم كله .

ـ الحسد داء يصيب الكثيرين:

إن من الحسد ما هو مذموم كله فقد قال تعالى في حق اليهود : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾[1] يودون أي يتمنون ارتدادكم حسدا ، فجعل الحسد هو الموجب

---

(١) سورة البقرة آية ١٠٩ .

لذلك الود، من بعد ما تبين لهم الحق، لأنهم لما رأوا أنكم قد حصل لكم من النعمة ما حصل - بل مالم يحصل لهم مثله - حسدوكم. وكذلك في الآية الأخرى ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [1] وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [2].

وقد ذكر طائفة من المفسرين أنها نزلت بسبب حسد اليهود للنبي ﷺ حتى سحروه، سحره لبيد بن الأعصم اليهودي. فالحاسد المبغض للنعمة على من أنعم الله عليه بها ظالم معتد، والكاره لتفضيله المحب لماثلته منهي عن ذلك إلا فيما يقربه إلى الله، فإذا أحب أن يعطي مثل ما أعطى مما يقربه به إلى الله فلهذا لابأس به، وإعراض قلبه عن هذا بحيث لا ينظر إلى حال الغير أفضل.

ثم هذا الحسد إن عمل بموجبه صاحبه كان ظالما معتديا مستحقا للعقوبة إلا أن يتوب؛ وكان المحسود مظلوما مأمورا بالصبر والتقوى، فيصبر على أذى الحاسد، ويعفو ويصفح عنه، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [3]

وقد ابتلي يوسف بحسد إخوة له حيث قالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [4] فحسدوهما على تفضيل الأب لهما، ولهذا قال يعقوب ليوسف: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [5] ثم إنهم ظلموه بتكلمهم في قتله، وإلقائه في الجب، وبيعه رقيقا لمن ذهب به إلى بلاد الكفر فصار مملوكا لقوم كفار.

---

(١) سورة النساء آية ٥٤، ٥٥.

(٢) سورة العلق.

(٣) سورة البقرة آية ١٠٩.

(٤) سورة يوسف آية ٨.

(٥) سورة يوسف آية ٥.

ثم إن يوسف ابتلي ـ بعد أن ظلم ـ بمن يدعوه إلى الفاحشة ويراوده عليها ويستعين عليه بمن يعينه على ذلك، فاستعصم، واختار السجن على الفاحشة، وآثر عذاب الدنيا على سخط الله، فكان مظلوما من جهة من أحبه، لهواه وغرضه الفاسد.

الصبر الاختياري والصبر الاضطراري:

فهذه المحبة أحبته لهوى محبوبها، شفاؤها وشقاؤها إن وافقها، وأولئك المبغضون أبغضوه بغضة أوجبت أن يصير ملقى في الجب، ثم أسيراً مملوكا بغير اختياره، فأولئك أخرجوه من انطلاق الحرية إلى رق العبودية الباطلة بغير اختياره، وهذه ألجأته إلى أن اختار أن يكون محبوسا مسجونا باختياره، فكانت هذه أعظم في محبته، وكان صبره هنا صبرا اختياريا اقترن به التقوى، بخلاف صبره على ظلمهم فإن ذلك كان من باب المصائب التي من لم يصبر عليها صبر الكرام سلا سلو البهائم، والصبر الثاني أفضل الصبرين، ولهذا قال: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1]

وهكذا إذا أوذي المؤمن على إيمانه وطلب منه الكفر أو الفسوق أو العصيان وإن لم يفعل أوذي وعوقب ـ فاختار الأذى والعقوبة على فراق دينه، إما بالحبس وإما الخروج من بلده، كان من المتقين الصابرين. كما جرى للمهاجرين حين اختاروا فراق الأوطان على فراق الدين، وكانوا يعذبون ويؤذون.

وقد أوذي النبي ﷺ بأنواع من الأذى. فكان يصبر عليها صبرا اختياريا، فإنه إنما يؤذى لئلا يفعل ما يفعله باختياره، وكان هذا أعظم من صبر يوسف.

قلت: وكيف يكون ذلك؟

قال الإمام: لأن يوسف إنما طلب منه الفاحشة، وإنما عوقب ـ إذ لم يفعل ـ بالحبس، والنبي ﷺ وأصحابه طلب منهم الكفر، وإذا لم يفعلوا طلبت عقوبتهم بالقتل فما دونه، وأهون ما عوقب به الحبس، فإن المشركين حبسوه وبني هاشم بالشعب مدة، ثم لما

---

(١) سورة يوسف آية ٩٠.

مات أبو طالب اشتدوا عليه، فلما بايعت الأنصار وعرفوا بذلك صاروا يقصدون منعه من الخروج، ويحبسونه هو وأصحابه عن ذلك، ولم يكن أحد يهاجر إلا سرا، إلا عمر ابن الخطاب ونحوه، فكانوا قد ألجئوهم إلى الخروج من ديارهم، ومع هذا منعوا من منعوه منهم عن ذلك وحبسوه، فكان ما حصل للمؤمنين من الأذى والمصائب هو باختيارهم طاعة لله ورسوله، لم يكن من المصائب السماوية التي تجرى بدون اختيار العبد من جنس حبس يوسف، ولا من جنس التفريق بينه وبين أبيه، وهذا أشرف النوعين، وأهلها أعظم درجة، وإن كان صاحب المصائب يثاب على صبره ورضاه وتكفر عنه الذنوب بمصائبه، فإن هذا الذي أصيب وأوذي باختياره طاعة لله يثاب على نفس المصائب ويكتب له بها عمل صالح. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1] بخلاف المصائب التي تجرى بلا اختيار العبد ـ كالمرض، وموت العزيز عليه، وأخذ اللصوص لماله ـ فإن تلك يثاب على الصبر عليها، لا على نفس ما يحدث من المصيبة وما يتولد عنها. والذين يؤذون على الإيمان وطاعة الله ورسوله، ويحدث لهم بسبب ذلك حرج، أو مرض، أو حبس أو فراق وطن وذهاب مال وأهل، أو ضرب أو شتم أو نقص رياسة ومال، وهم في ذلك على طريقة الأنبياء، وأتباعهم كالمهاجرين الأولين، فهؤلاء يثابون على ما يؤذون به، ويكتب لهم به عمل صالح، كما يثاب المجاهد على ما يصيبه من الجوع والعطش والتعب، وعلى غيظه الكفار، وإن كانت هذه الآثار ليست عملا فعله ويقوم به، لكنها متسببة عن فعله الاختياري، وهي التي يقال لها متولدة.

وقد اختلف الناس: هل يقال إنها فعل لفاعل السبب، أو لله، أو لا فاعل لها؟ والصحيح أنها مشتركة بين فاعل السبب وسائر الأسباب، ولهذا كتب له بها عمل صالح.

---

(١) سورة التوبة آية ١٢٠.

علاج الحسد:

والمقصود من هذا كله: أن الحسد مرض من أمراض النفس، وهو مرض غالب فلا يخلص منه إلا القليل من الناس، ولهذا يقال: ما خلا جسد من حسد، لكن اللئيم يبديه، والكريم يخفيه. وقد قيل للحسن البصري [1] أيحسد المؤمن؟ فقال: ما أنساك إخوة يوسف لا أبالك؟ ولكن عمه في صدرك فإنه لايضرك مالم تعد به يدا ولسانا.

قلت: يا إمامنا الكريم يلح علينا سؤال ها هنا لمعرفة موقف المسلم إذا وجد في نفسه حسدا لأحد ماذا عليه أن يفعل؟

قال الإمام: يا أعزائي الكرام من وجد في نفسه حسدا لغيره فعليه أن يستعمل معه التقوى والصبر، فيكره ذلك من نفسه.

وكثير من الناس الذين عندهم دين لا يعتدون على المحسود، فلا يعينون من ظلمه، ولكنهم أيضا لا يقومون بما يجب من حقه، بل إذا ذمه أحد لم يوافقوه على ذمه، ولا يذكرون محامده، وكذلك لو مدحه أحد لسكتوا. وهؤلاء مدينون في ترك المأمور في حقه، مفرطون في ذلك لامعتدون عليه، وجزاؤهم أنهم يبخسون حقوقهم فلا ينصفون أيضا في مواضع، ولا ينصرون على من ظلمهم كما لم ينصروا هذا المحسود.

أما من اعتدى بقول أو فعل فذلك يعاقب، ومن اتقى الله وصبر فلم يدخل في الظالمين نفعه الله بتقواه. كما جرى لزينب بنت جحش رضي الله عنها، فإنها كانت هي التي تسامي عائشة من أزواج النبي ﷺ، وحسد النساء بعضهن لبعض كثير غالب لا سيما المتزوجات بزوج واحد، فإن المرأة تغار على زوجها لحظها منه، فإنه بسبب المشاركة يفوت بعض حظها.

---

(١) الحسن بن يسار البصري تابعي كان إمام أهل البصرة، وهو أحد العلماء الشجعان النساك، ولد بالمدينة وسكن البصرة وكان له شأن مع الحجاج، وقد سلم من أذاه، وكلامه أشبه بالحكم السائرة مات سنة ١١٠هـ. الأعلام ٢/٢٢٦ ط٤.

- **تحاسد أهل الرئاسات:**

قلت: أو يقع الحسد بين المحسودين أنفسهم؟

قال الإمام: الحسد يقع كثيرا بين المتشاركين في رئاسة أو مال إذا أخذ بعضهم قسطا من ذلك وفات الآخر. ويكون بين النظراء لكراهة أحدهم أن يفضل الآخر عليه، كحسد إخوة يوسف، وكحسد ابني آدم أحدهما لأخيه، فإنه حسده لكون أن الله تقبل قربانه ولم يتقبل قربان هذا، فحسده على ما فضله الله من الإيمان والتقوى كحسد اليهود للمسلمين، وقتله على ذلك. ولهذا قيل: أول ذنب عصى الله به ثلاثة، الحرص والكبر والحسد. فالحرص من آدم، والكبر من إبليس، والحسد من قابيل حيث قتل هابيل.

وفي الحديث «**ثلاث لاينجو منهن أحد: الحسد، والظن، والطيرة. وسأحدثكم بما يخرج من ذلك :إذا حسدت فلا تبغض،إذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض**»[1] رواه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة.

وفي السنن عن النبي ﷺ «**دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد، والبغضاء - وهي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين**»[2] فسماه «داء» كما سمى البخل داء في قوله «وأي داء أدوأ من البخل»[3] فعلم أن هذا «مرض».

وقد جاء في حديث آخر «**أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء**»[4]

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٣٢٢٧) قال الهيثمي في «المجمع» (٨/٧٨) وفيه اسماعيل بن قيس الأنصاري وهو ضعيف وله شاهد من حديث أبي هريرة ذكره الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٦٤) وقال: ضعيف جدا.

(٢) أخرجه الترمذي وسبق تخريجه ص

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد باب البخل (حديث رقم ٢٩٦) والبزار (كشف ٢٧٠٥) وأبو الشيخ في «الأمثال» (٩٢، ٩٣) من طريق حجاج بن أبي عثمان الصواف ثنى أبو الزبير ثنا جابر به مرفوعا. واسناده صحيح، رجاله ثقات.

(٤) أخرجه الطبراني والحاكم وابن حبان والترمذي في الدعوات رقم ٣٥٨٥ وحسنه، وهو بلفظ (الأعمال) بدل (الأدواء). انظر جامع الأصول ٤/٣٦٤).

فعطف «الأدواء» على الأخلاق والأهواء، فإن الخلق ما صار «عادة للنفس وسجية» قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [1] قال ابن عباس [2] وابن عيينة [3] وأحمد [4] بن حنبل رضي الله عنهم: على دين عظيم. وفي لفظ عن ابن عباس: على دين الإسلام. وكذلك قالت عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن. وكذلك قال الحسن البصري: أدب القرآن هو الخلق العظيم.

وإلى هنا أنهى الإمام المجتهد ابن تيمية مجلس اليوم على أمل اللقاء في المجلس القادم إن شاء الله ليكمل لنا الحديث عن أنواع أخرى من أمراض القلوب.

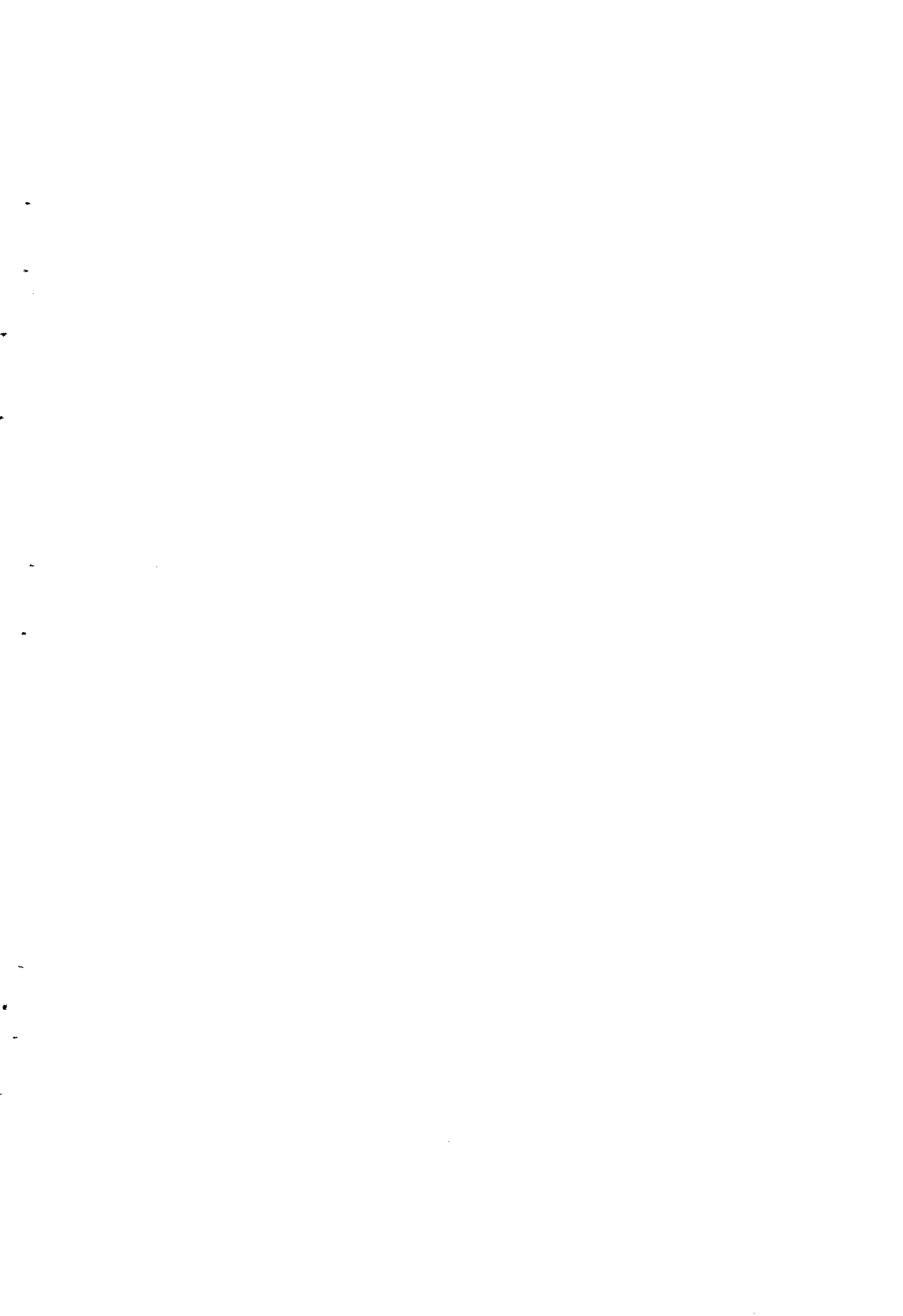
---

(١) سورة القلم آية ٤.
(٢) الصحابي الجليل عبدالله بن عباس حبر الأمة، لازم رسول الله ﷺ وروى عنه الأحاديث الصحيحة، وشهد مع علي الجمل وصفين وكف بصره في آخر عمره فسكن الطائف وتوفى بها سنة ٦٨هـ. الأعلام ٤/٢٢٨ ط٣.
(٣) سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي محدث الحرم المكي كان حافظا ثقة واسع العلم ولد بالكوفة وسكن مكة وتوفى بها سنة ١٩٨هـ. الأعلام ٣/١٥٩ ط٣.
(٤) أحمد بن محمد بن حنبل إمام المذهب الحنبلي وأحد الأئمة الأربعة ولد ببغداد ونشأ مكيا على طلب العلم وسافر إلى بلاد عديدة في سبيل تحصيله، صنف (المسند) يحتوي على ثلاثين ألف حديث وله كتب أخرى، سجن في عهد المعتصم ثمانية وعشرين شهرا لامتناعه عن القول بخلق القرآن، توفى سنة٢٤١هـ. الأعلام ١/١٩٢ ط٣.

المجلس السابع

الرق رق القلب واستعباده

- الانسان عبد ما يهوى
- حرمة سؤال المخلوقين في غير ضرورة
- الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر الجميل
- العبودية لله وحده أعلى درجات الحرية



المجلس السابع
الرق رق القلب واستعباده

حضر شيخ الإسلام ابن تيمية مجلس اليوم في وقته المحدد الثابت، وقد اكتمل الحضور، واشرأبت الأعناق تجاه الإمام وقد أخذ موقعهمن المجلس،تعلوه الهيبة والوقار ويزينه التواضع والانكسار لله تعالى. وتلمح في قسمات وجهه وبريق عينيه العزة والقوة والشجاعة والبأس.

وما هي إلا لحظات حتى قطع السكون صوت الشيخ: الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا،من يهده الله فلا مضل له،ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريكله،وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

أما بعد فيأيهاالأحباب،حديثي إليكم اليوم عن أمر هام يخص قلوبكم فافتحوها ليلجها ما أقول بتوفيق الله فسأحدثها عن الرق والاستعباد الحقيقي فأقول:

ـ الانسان عبد ما يهوى:

إن تفاضل الناس إنما هو في حقيقة الإيمان، وهم ينقسمون فيه: إلى عام، وخاص، ولهذا كانت ربوبية الرب لهم فيها عموم وخصوص. ولهذا كان الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل. وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس عبد القطيفة تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش، إن أعطي رضي وإن منع سخط**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد باب الحراسة في الغزو وفي سبيل الله وقد سبق تخريجه.

فسماه النبي ﷺ عبد الدرهم، وعبد الدينار، وعبد القطيفة، وعبد الخميصة. وذكر ما فيه دعاء وخبر، وهو قوله: «تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش» والنقش إخراج الشوكة من الرجل والمنقاش ما يخرج به الشوكة، وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب ولا خلص من المكروه وهذه حال من عبد المال، وقد وصف ذلك بأنه «إذا أعطي رضي، وإذا منع سخط» كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[1] فرضاهم لغير الله وسخطهم لغير الله، وهكذا حال من كان متعلقا برئاسة أو بصورة ونحو ذلك من أهواء نفسه إن حصل له رضي، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له، إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده. ولهذا يقال:

العبد حر ما قنع   والحر عبد ما طمع

وقال القائل

أطعت مطامعي، فاستبعدتني   ولو أني قنعت لكنت حراً

ويقال: الطمع غل في العنق قيد في الرجل، فإذا زال الغل من العنق زال القيد من الرجل. ويروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: الطمع فقر، واليأس غنى، وإن أحدكم إذا يئس من شيء استغنى عنه. وهذا أمر يجده الإنسان من نفسه؛ فإن الأمر الذي ييأس منه لا يطلبه ولا يطمع به، ولا يبقى قلبه فقيرا إليه، ولا إلى من يفعله، وأما إذا طمع في أمر من الأمور ورجاه تعلق قلبه به، فصار فقيرا إلى حصوله؛ وإلى من يظن أنه سبب في حصوله، وهذا في المال والجاه والصور وغير ذلك. قال الخليل ﷺ فيما حكاه عنه القرآن الكريم: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2]

---

(١) سورة التوبة آية ٥٨.

(٢) سورة العنكبوت آية ١٧.

فالعبد لا بد له من رزق، وهو محتاج إلى ذلك، فإذا طلب رزقه من الله صار عبدا لله، فقيرا إليه، وإن طلبه من مخلوق صار عبدا لذلك المخلوق فقيرا إليه.

حرمة سؤال المخلوقين في غير ضرورة:

قلت: كأن شيخنا يشير بذلك إلى حرمة مسألة الخلق وإن كانت بالإنسان حاجة أو ضرورة.

قال الشيخ: الذي أراه أن مسألة المخلوق محرمة في الأصل، وإنما أبيحت للضرورة وفي النهي عنها أحاديث كثيرة في الصحاح و السنن والمسانيد. كقوله ﷺ «**لا تزال المسألة بأحدكم حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم**»[1] وقوله: «**من سأل الناس وله ما يغنيه جاءت مسألته يوم القيامة خدوشا أو خموشا أو كدوحا في وجهه**»[2] وقوله: «**لا تحل المسألة إلا لذي غرم مفظع، أو دمع موجع، أو فقر مدقع**»[3] هذا المعنى في الصحيح. وفيه أيضا: «**لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب فيحتطب، خير له من أن يسأل الناس ، أعطوه أو منعوه**»[4] وقال: «**ما أتاك من هذا المال وأنت غير سائل ولا مشرف فخذه، وما لا فلا تتبعه نفسك**»[5] فكره أخذه من سؤال اللسان واستشراف القلب، وقال في الحديث الصحيح: «**من يستغن يغنه الله، ومن يستعفف يعفه الله؛ ومن يتصبر يصبره الله؛ وما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر**»[6] وأوصى خواص أصحابه ألا يسألوا الناس شيئا وفي المسند «**إن أبا بكر كان يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد ناولني إياه؛ ويقول: إن خليلي أمرني ألا أسأل الناس شيئا**»[7] وفي صحيح مسلم وغيره عن عوف بن مالك «**أن النبي ﷺ بايعه في طائفة**

---

(١) أخرجه مسلم وفيه «. . . حتى يلقى الله وليس. . .» مختصر صحيح مسلم رقم ٥٥٨.
(٢) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي. وإسناده ضعيف. جامع الأصول ١٠/١٥١.
(٣) أخرجه أبو داود وابن ماجه والترمذي وحسنه.جامع الأصول ١٠/١٥٧.
(٤) أخرجه مسلم مع اختلاف يسير في الألفاظ مختصر صحيح مسلم رقم ٥٥٩.
(٥) أخرجه مسلم بلفظ (ما جاءك من هذا المال. .) مختصر صحيح مسلم رقم ٥٦٧.
(٦) أخرجه مسلم مختصر صحيح مسلم رقم ٥٥٥.
(٧) المسند ٧/١٨٢.

وأسر إليهم كلمة خفية: ألا تسألوا الناس شيئا، فكان بعض أولئك النفر يسقط السوط من يد أحدهم؛ ولا يقول لأحد ناولني إياه»[١].

وقد دلت النصوص على الأمر بمسألة الخالق والنهي عن مسألة المخلوق؛ في غير موضع. كقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾[٢] وقول النبي ﷺ لابن عباس: «إذا سألت فاسأل الله؛ وإذا استعنت فاستعن بالله»[٣].

ولما أراد الشيخ أن يمضي في كلامه قلنا: وما الفرق بين الاثنين؟

قال الإمام: إن تقديم الظرف يشعر بالاختصاص والحصر؛ كأنه قال لاتبتغوا الرزق إلا عند الله. وقد قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾[٤] والإنسان لا بد له من حصول ما يحتاج إليه من الرزق ونحوه؛ ودفع ما يضره؛ وكلا الأمرين شرع له أن يكون دعاؤه لله؛ فله أن يسأل الله وإليه يشتكي؛ كما قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٥]

والله تعالى ذكر في القرآن «الهجر الجميل» و «الصفح الجميل» و «الصبر الجميل».

قلت: وهل من فارق بين معاني هذه الآيات الكريمة؟

قال الإمام: نعم قد قيل: إن «الهجر الجميل» هو هجر بلا أذى. والصفح الجميل صفح بلا معاتبة. والصبر الجميل صبر بغير شكوى إلى المخلوق؛ ولهذا قرىء على أحمد

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٤٣).

(٢) سورة الشرح آية ٧، ٨.

(٣) أخرجه أحمد (٢٩٣٨) والترمذي (٢٥١٦) والطبراني في «الكبير» (١٢٩٨٨ و ١٢٩٨٩) وفي الدعاء (٤٢) والبيهقي في الشعب (١٩٢) من حديث ابن عباس. وقال الترمذي: حسن صحيح وصححه الألباني (صحيح الجامع: ٧٨٣٤).

(٤) سورة النساء آية ٣٢.

(٥) سورة يوسف آية ٨٦

ابن حنبل في مرضه أن طاوسا كان يكره أنين المريض ويقول: إنه شكوى فما أَنَّ أحمد حتى مات.

الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر الجميل:

قلت: ألا يمكن أن يظن أن الشكوى إلى الخالق تنافي الصبر الجميل؟

قال الإمام: لا يا أحبائي الشكوى إلى الخالق لا تنافي الصبر الجميل؛ فإن يعقوب قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[1] وقال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[2] ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ في الفجر بسورة (يونس) و (يوسف) و (النحل) فمر بهذه الآية في قراءته فبكى حتى سمع نشيجه من آخر الصفوف، ومن دعاء موسى: «اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك»[3] . وفي الدعاء الذي دعا به النبي ﷺ لما فعل به أهل الطائف ما فعلوا: **«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي؛ وقلة حيلتي؛ وهواني على الناس؛ أنت رب المستضعفين وأنت ربي. اللهم إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري؛ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي؛ غير أن عافيتك أوسع لي؛ أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات؛ وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن ينزل بي سخطك؛ أو يحل علي غضبك؛ لك العتبى حتى ترضى؛ فلا حول ولا قوة إلا بك ـ وفي بعض الروايات ـ ولا حول ولا قوة إلا بك»**[4] .

---

(١) سورة يوسف آية ١٨.

(٢) سورة يوسف آية ٨٦.

(٣) هذا الدعاء المنسوب إلى موسى لم أجده، ولكني وجدت دعاء مرفوعا للنبي ﷺ ونصه: «سبحان الله العظيم، اللهم إليك المشتكى، وبك المستعان، وعليك التكلان، يا حي يا قيوم» أنظر جامع الأصول ٤/٢٩٥.

(٤) ضعفه الألباني، وأخرجه ابن اسحاق وابن جرير، والطبراني في الكبير. أنظر فقه السيرة للغزالي خرج أحاديثه الألباني ص ١٣٣.

العبودية لله وحده أعلى درجات الحرية:

وكلما قوى طمع العبد في فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته قويت عبوديته له وحريته مما سواه؛ فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه. كما قيل: استغن عمن شئت تكن نظيره، وأفضل على من شئت تكن أميره؛ واحتج إلى من شئت تكن أسيره. فكذلك طمع العبد في ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له؛ وإعراض قلبه عن الطلب من غير الله والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله؛ لا سيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق؛ بحيث يكون قلبه معتمدا إما على رئاسته وجنوده واتباعه ومماليكه؛ وإما على أهله وأصدقائه؛ وإما على أمواله وذخائره؛ وإما على ساداته وكبرائه؛ كمالكه وملكه؛ وشيخه ومخدومه وغيرهم؛ ممن هو قد مات أو يموت. قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾[1]

قلت في نفسي: يا سبحان الله كأن الشيخ يحدثنا عن أحوال كثير من أهل زماننا! ثم زاد الشيخ هذا المعنى بقول نفيس لا يصدر إلا عن عالم فقيه خبير بأمراض القلوب، فاسمعوا لقول شيخكم، فكلامه يستحق أن يسطر بماء الذهب، ويوزن بعد ذلك بالذهب الخالص.

قال: وكل من علق قلبه بالمخلوقات أن ينصروه أو يرزقوه أو أن يهدوه خضع قلبه لهم؛ وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك؛ وإن كان في الظاهر أميرا لهم مدبرا لهم متصرفا بهم؛ فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر؛ فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له يبقى قلبه أسيرا لها، تحكم فيه وتتصرف بها تريد؛ وهو في الظاهر سيدها لأنه زوجها. وفي الحقيقة هو أسيرها ومملوكها لا سيما إذا درت بفقره إليها؛ وعشقه لها؛ وأنه لا يعتاض عنها بغيرها؛ فإنها حينئذ تحكم فيه بحكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور؛ الذي لا يستطيع الخلاص منه، بل أعظم، فإن أسر القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن، فإن من استعبد بدنه واسترق لا

---

(١) سورة الفرقان آية ٥٨.

يبالي إذا كان قلبه مستريحا من ذلك مطمئنا. بل يمكنه الاحتيال في الخلاص. وأما إذا كان القلب الذي هو الملك رقيقا مستعبدا متيما لغير الله فهذا هو الذل والأسر المحض، والعبودية لما استعبد القلب.

وعبودية القلب وأسره هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب؛ فإن المسلم لو أسره كافر؛ أو استرقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك إذا كان قائما بما يقدر عليه من الواجبات، ومن استعبد بحق إذا أدى حق الله وحق مواليه له أجران، ولو أكره على التكلم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالإيمان لم يضره ذلك، وأما من استعبد قلبه فصار عبدا لغير الله فهذا يضره ذلك، ولو كان في الظاهر ملك الناس.

والشيخ يواصل حديثه الرقراق ومعانيه العظيمة الكبيرة،ظننت من شدة جذب كلامه أني وحيد في المجلس فنظرت يمنة ويسرة فإذا الكل حاله كحالي وكأن على رؤوسهم الطير. وكيف لا وهذه عبارات الشيخ التي لو تمعن بها أهل الأرض اليوم لحلت معضلات مشاكلهم؟

يقول الشيخ مواصلا حديثه: فالحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب، كما أن الغنى غنى النفس قال النبي ﷺ: **«ليس الغنى عن كثرة العرض، وإنما الغنى غنى النفس»[1] وهذا لعمري إذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة، فأما من استعبد قلبه صورة محرمة: امرأة أو صبي، فهذا هو العذاب الذي لا يدان فيه. (أي لا قدرة على التخلص منه). وهؤلاء من أعظم الناس عذابا وأقلهم ثوابا، فإن العاشق لصورة إذا بقي قلبه متعلقا بها، مستعبدا لها اجتمع له من أنواع الشر والفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد، ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى، فدوام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة أشد ضررا عليه، ممن يفعل ذنبا ثم يتوب منه ويزول أثره من قلبه، وهؤلاء يشبهون بالسكارى والمجانين. كما قيل:**

سكران: سكر هوى، وسكر مدامة　　　ومتى إفاقة من به سكران؟

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم. جامع الأصول ١٠/١٤٠.

وقيل:

قالـوا: جننت بمن تهوى؟ فقلت لهم: الـعـشـق أعـظم مما بالمجـانـين
العشق لا يستفيق الـدهـر صاحبـه وإنـما يصرع المجنـون في الحـين

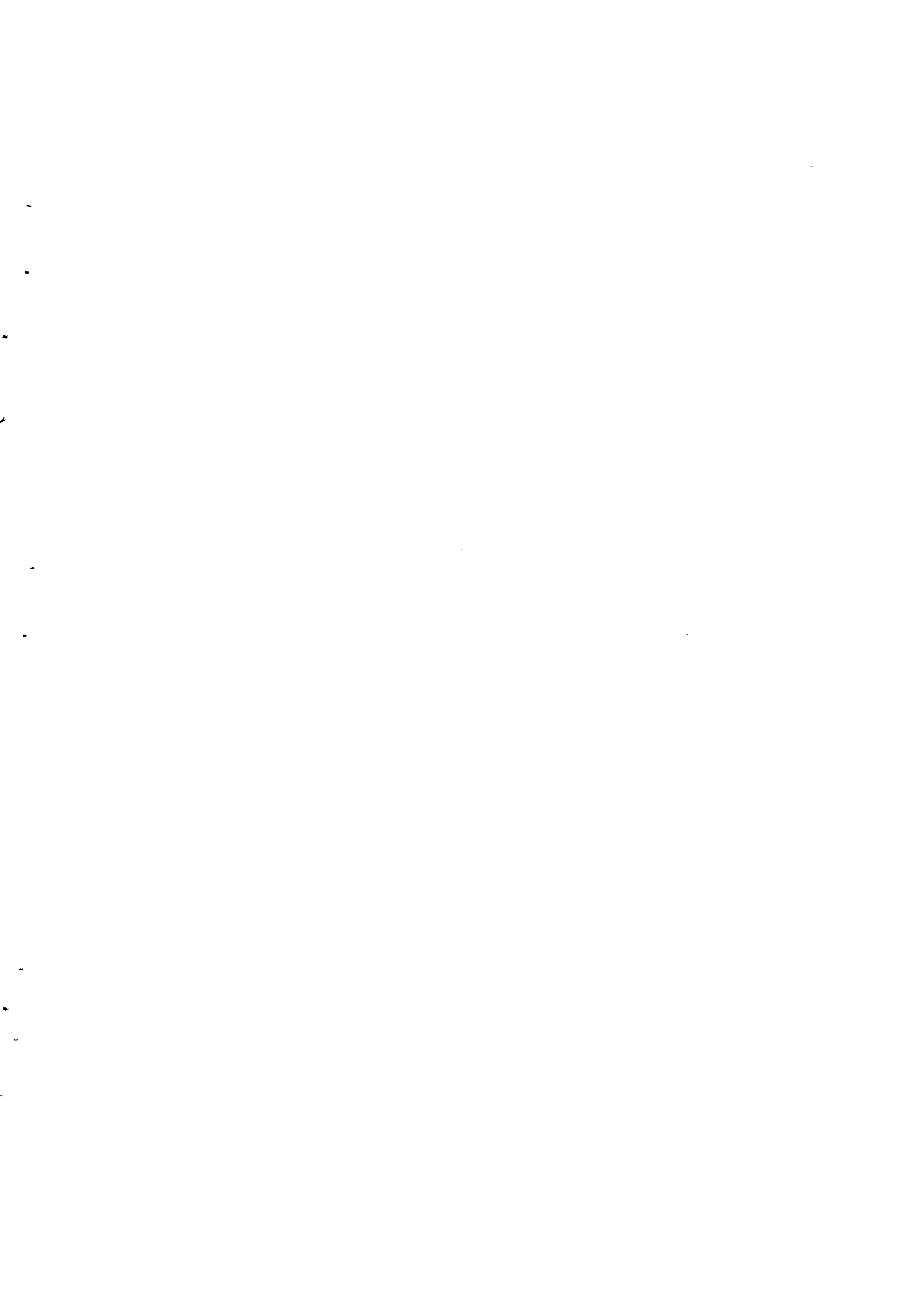
ثم سكت الشيخ هنيهة أدركنا منها إرادة الشيخ في إنهاء مجلسه، فقلت: إذا أذن إمامنا أن يزيد هذا المعنى الأخير ببيان أسبابه وما إلى ذلك فإن حاجة أقوام منا إلى ذلك كبيرة وعظيمة.

قال الإمام: لكم مني بيان ذلك في المجلس القادم بعون الله وتسديده والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

المجلـــس الثـــــامـن

لذة القلب وألمه أشد من لذة الجسم وألمه

- ارتباط عافية القلب بصلاحه
- مرض القلب أشد ألما، وشفاؤه أعظم نفعا
- الأهواء داء القلوب
- بالتقوى علاج القلوب
- في الابتلاء نوع من الشفاء



المجلس الثامن
لذة القلب وألمه أشد من لذة الجسم وألمه

أخذ الشيخ الإمام المجتهد المجاهد موقعه من صدر المجلس، ثم رفع رأسه مشرفا بوجهه الوضاء على جموع الحضور الحاشدة كأنها عقد منتظم حول العنق، ثم رجع الشيخ ببصره إلى موقع قدمه، كأنه يستعيذ بالله من داء الغرور أن يدخل نفسه، ويحمد الله على نعمة العلم ويطلب عونه في نشر العلم وبيانه وعدم كتمانه.

ثم افتتح الشيخ مجلسه قائلا: «الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما أما بعد: فسأحدثكم اليوم عن موضوع دقيق هام وهو لذة القلب وألمه وكذلك لذة الجسم وألمه. وقبل ذلك سأقدم للحديث بمقدمة فأقول وبالله وحده التوفيق:

- ارتباط عافية القلب بصلاحه:

قد ذكرنا - في غير موضع - أن صلاح حال الإنسان في (العدل)، كما أن فساده في (الظلم)، وأن الله سبحانه عدله وسواه لما خلقه. وصحة جسمه وعافيته من اعتدال أخلاطه وأعضائه، ومرض ذلك الانحراف والميل، وكذلك استقامة القلب واعتداله، واقتصاده وصحته وعافيته وصلاحه متلازمة.

وقد ذكر الله مرض القلوب وشفاءها في مواضع من كتابه، وجاء ذلك في سنة

رسوله ﷺ، كقوله تعالى عن المنافقين: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾[1]، وقال: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾[3] وقال: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ ﴾[4] وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[5] وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾[6] وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾[7] وقال: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾[8] وقال: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[9].

وقال النبي ﷺ: «**هلا سألوا إذ لم يعلموا، فإن شفاء العي السؤال**»[10] وقال الرشيد[11] «الآن شفيتني يا مالك»[12] وفي صحيح البخاري عن ابن مسعود «إن أحدا لا يزال بخير ما اتقى الله، وإذا شك في تفسير شيء سأل رجلا فشفاه، وأوشك لا يجده والذي لا إله إلا هو»[13].

---

(١) سورة البقرة آية ١٠.
(٢) سورة المائدة آية ٥٢.
(٣) سورة التوبة آية ١٤، ١٥.
(٤) سورة يونس آية ٥٧.
(٥) سورة الاسراء آية ٨٢.
(٦) سورة فصلت آية ٤٤.
(٧) سورة الأحزاب آية ٣٢.
(٨) سورة الأحزاب آية ٦٠.
(٩) سورة الأحزاب آية ١٢.
(١٠) سبق تخريجه
(١١) هارون الرشيد أبو جعفر بن المهدي. كان شجاعا جوادا، متواضعا لأهل العلم تولى الخلافة سنة ١٧٠ وكان كثير الحج كثير الغزوات. ومات سنة ١٩٣هـ انظر شذرات الذهب ١/ ٣٣٤.
(١٢) مالك بن أنس الأصبحي إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة، كان صلبا في دينه، معتزا بالعلم، قصد إليه الرشيد وجلس بين يديه فحدثه، وصنف كتاب «الموطأ» وله رسائل أخرى مات سنة ١٧٩هـ الأعلام ٥/ ٢٥٧ ط٤.
(١٣) رواه البخاري في كتاب الجهاد باب عزم الإمام على الناس فيما يطيقون. حديث رقم ٢٩٦٤.

وما ذكر الله من مرض القلوب وشفائها بمنزلة ما ذكر من موتها وحياتها وسمعها وبصرها وعقلها وصممها وبكمها وعماها، لكن ما المقصود بمرض القلب؟ نقول: المرض نوعان: فساد الحس، وفساد الحركة الطبيعية وما يتصل بها من الإرادية.

وكل منهما يحصل بفقده ألم وعذاب. فكما أنه مع صحة الحس والحركة الإرادية والطبيعية تحصل اللذة والنعمة، فكذلك بفسادها يحصل الألم والعذاب. ولهذا كانت النعمة من النعيم، وهو ما ينعم الله به على عباده مما يكون فيه لذة ونعيم، وقال: ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾[1] أي عن شكره.

قلت: أو يشير كلام فضيلتكم إلى أن اللذة والألم الحسي لهما سبب أم هما ثمرة ونتيجة؟
قال الإمام: يا أحبائي سبب اللذة إحساس الملائم، وسبب الألم إحساس المنافي، ليس اللذة والألم نفس الإحساس والإدراك، وإنما هو نتيجته وثمرته، ومقصوده وغايته. فالمرض فيه ألم لا بد منه، وإن كان قد يسكن أحيانا لمعارض راجح، فالمقتضى له قائم يهيج بأدنى سبب، فلا بد في المرض من وجود سبب الألم، وإنما يزول الألم بوجود المعارض والراجح.

ـ مرض القلب أشد ألما وشفاؤه أعظم نفعا:

قلت: وأي اللذتين والألمين أعظم في القلب أو في الجسم؟
قال الإمام: لذة القلب وألمه أعظم من لذة الجسم وألمه، أعني ألمه ولذته النفسانيين، وإن كان قد يحصل فيه من الألم من جنس ما يحصل في سائر البدن بسبب مرض الجسم فذلك شيء آخر. فلذلك كان مرض القلب وشفاؤه أعظم من مرض الجسم وشفائه، فتارة يكون من جملة الشبهات كما قال تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾[2]، وكما

---

(١) سورة التكاثر آية ٨.
(٢) سورة الأحزاب آية ٣٢.

صنف الخرائطي[1] «كتاب اعتلال القلوب بالأهواء» ففي قلوب المنافقين المرض من هذا الوجه: من جهة فساد الاعتقادات، وفساد الإرادات.

والمظلوم في قلبه مرض، وهو الألم الحاصل بسبب ظلم الغير له، فإذا استوفى حقه اشتفى قلبه، كما قال تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾[2] فإن ذهاب غيظ القلب إنما هو لدفع الأذى والألم عنه، فإذا اندفع عنه الأذى واستوفى حقه زال غيظه، فكما أن الإنسان إذا صار لا يسمع بأذنه ولا يبصر بعينه كان ذلك مرضا مؤلما له بما يفوته من المصالح ويحصل له من المضار، فكذلك إذا لم يسمع ولم يبصر، ولم يعلم بقلبه الحق من الباطل، ولم يميز بين الخير والشر، والغي والرشاد. كان ذلك من أعظم أمراض قلبه وألمه: وكما أنه إذا اشتهى ما يضره مثل الطعام الكثير في الشهوة الكلية، ومثل أكل الطين ونحوه[3] كان ذلك مرضا. فإنه يتألم حتى يزول ألمه بهذا الأكل الذي يوجد ألما أكثر من الأول، فهو يتألم إن أكل، ويتألم إن لم يأكل.

فكذلك إذا بلي بحب من لا ينفعه بعشق ونحوه ـ سواء كان لصورة أو لرياسة أو لمال ونحو ذلك ـ فإن لم يحصل على محبوبه ومطلوبه فهو متألم ومريض سقيم، وإن حصل محبوبه فهو أشد مرضا وألما وسقما، كما أن المريض إذا كان يبغض ما يحتاج إليه من الطعام والشراب كان ذلك الألم حاصلا، وكان دوامه على ذلك يوجب من الألم أكثر من ذلك حتى يقتله، أو يزول ما يوجب بغضه لما ينفعه ويحتاج إليه، فهو متألم في الحال، وتألمه فيما بعد ـ إن لم يعافه الله ـ أعظم وأكبر. فبغض الحاسد لنعمة الله على المحسود كبغض المريض لأكل الأصحاء لأطعمتهم وأشربتهم حتى لا يقدر أن يراهم يأكلون، ونفرته عن أن يقوم بحقه كنفرة المريض عما يصلح له من طعام وشراب.

---

(١) الخرائطي هو محمد بن جعفر بن محمد بن سهل. من حفاظ الحديث ولد في السامرة من أعمال فلسطين ومات في يافا سنة ٣٢٧هـ وله عدة كتب مخطوطة. الأعلام ٦/ ٧٠ ط٤.

(٢) سورة التوبة آية ١٤، ١٥.

(٣) بعض النساء في حالة الوحم عند بداية الحمل يشتهين أكل شيء من الطين الجاف يتلذذون به.

قلت: هذا غاية المرض وهو كقول القائل: وداوني بالتي كانت هي الداء. وإذا كان داؤه هو دواؤه فأنى يشفى؟ لا شك أن الاعتدال نعمة.

قال الإمام: هذا صحيح يا أحبائي وأزيدكم بأن الحب والبغض الخارج عن الاعتدال والصحة في النفس، كالشهوة والنفرة الخارجة عن الاعتدال والصحة في الجسم، وعمى القلب وبكمه عن أن يبصر الحقائق، ويميز بين ما ينفعه ويسره ـ أعاذكم الله ـ كعمى الجسم وخرسه عن أن يبصر الأمور المرئية ويتكلم بها ويميز بين ما ينفعه ويضره. وكما أن الضرير إذا أبصر وجد من الراحة والعافية والسرور أمرا عظيما، فبصر القلب ورؤيته الحقائق بينه وبين بصر الرأس من التفاوت ما لا يحصيه إلا الله. وإنما الغرض هنا تشبيه أحد المرضين بالآخر، فطب الأديان يحتذى حذو طب الأبدان، وقد كتب سلمان[1] إلى أبي الدرداء[2] «أما بعد فقد بلغني أنك قعدت طبيبا، فإياك أن تقتل، والله أنزل كتابه شفاء لما في الصدور» وقال تعالى ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا** ﴾[3] ذلك أن الشفاء إنما يحصل لمن يتعمد الدواء، وهم المؤمنون وضعوا دواء القرآن على داء قلوبهم.

ـ الأهـواء داء القلـوب:

قلت: يا إمامنا ومربينا إذا كان ذلك كذلك فبم يكون مرض الجسم ومرض القلب؟

قال الإمـام: يا أعـزائي مرض الجسم يكـون بخروج الشهوة والنفرة الطبيعية عن الاعتدال: إما بشهوة ما لا يحصل، أو بفقد الشهوة النافعة، وينفر به عما يصلح، ويفقد النفرة عما يضر. ويكون بضعف قوة الإدراك والحركة. كذلك مرض القلب يكون

---

(١) سلمان الفارسي صحابي كان من مجوس أصبهان عمر طويلا، لحق بالرسول ﷺ بقباء ولازمه أياما، وكان الرسول ﷺ يقول: سلمان منا أهل البيت. صار أميرا على المدائن وكان يأكل من كسب يده، ويتصدق بعطائه مات سنة ٣٦هـ الأعلام ٣/١٦٩.

(٢) أبو الدرداء هو عويمر بن مالك صحابي من الحكماء الفرسان القضاة، ولاه معاوية قضاء دمشق بأمر عمر بن الخطاب وهو أول قاض بها. مات بالشام سنة ٣٢هـ الأعلام ٥/٩٨ ط٤.

(٣) سورة الإسراء آية ٨٢.

بالحب والبغض الخارجين عن الاعتدال، وهي الأهواء التي قال الله فيها: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾[1] وقال: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[2] كما يكون الجسد خارجا عن الاعتدال إذا فعل ما يشتهيه الجسم بلا قول الطبيب، ويكون لضعف إدراك القلب وقوته حتى لا يستطيع أن يعلم ويريد ما ينفعه ويصلح له.

وكما أن المرضى الجهال قد يتناولون ما يشتهون، فلا يحتمون، ولا يصبرون على الأدوية الكريهة، لما في ذلك من تعجيل نوع من الراحة واللذة، ولكن ذلك يعقبهم من الآلام ما يعظم قدره أو يعجل الهلاك، فكذلك بنو آدم هم جهال ظلموا أنفسهم، يستعجل أحدهم ما ترغبه لذته، ويترك ما تكرهه نفسه مما هو لا يصلح له، فيعقبهم ذلك من الألم والعقوبات ـ إما في الدنيا، وإما في الآخرة ـ ما فيه عظم العذاب والهلاك الأعظم.

. بالتقوى علاج القلوب:

قلت: قد أوقعني الشيخ في معادلة صعبة فكيف يكون سبيل من ابتلى بنوع من هذه الأمراض القلبية؟ كيف يعالج نفسه ويطيبها؟

قال الإمام: أقول لكم يكون ذلك بكلمةواحدة التقوى، وهي الاحتماء عما يضره بفعل ما ينفعه، فإن الاحتماء عن الضار يستلزم استعمال النافع، وأما استعمال النافع فقد يكون معه أيضا استعمال الضار فلا يكون صاحبه من المتقين. وأما ترك استعمال الضار والنافع فهذا لا يكون، فإن العبد إذا عجز عن تناول الغذاء كان مغتذيا بما معه من المواد التي تضره حتى يهلك، ولهذا كانت العاقبة للتقوى وللمتقين، لأنهم المحتمون عما يضرهم فعاقبتهم الإسلام والكرامة وإن وجدوا ألما في الابتداء لتناول الدواء

(١) سورة القصص آية ٥٠.
(٢) سورة الروم آية ٢٩.

والإحتماء، كفعل الأعمال الصالحة المكروهة، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾[1] ولكثرة الأعمال الباطلة المشتهاة قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[2]، وكما قال: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾[3]. فأما من لم يحتم فإن ذلك سبب لضرره في العاقبة، ومن تناول ما ينفعه مع يسير من التخليط فهو أصلح ممن احتمى حمية كاملة ولم يتناول إلا شيئا يسيرا، فإن الحمية التامة بلا اغتذاء تمرض فهكذا من ترك السيئات ولم يفعل الحسنات.

قلت: قد فهمت وأظن بعض القراء كذلك أن ترك السيئات يتساوى مع ترك الحسنات.

قال الإمام: لا لا ياأحبائي، الذي أريد أن تعرفوه وأنا أؤمن به وهو قاعدة كبيرة عندي أن جنس الحسنات أنفع من جنس ترك السيئات، كما أن جنس الاغتذاء من جنس الاحتماء، وهذا مقصود لنفسه، وذلك مقصود لغيره بالانضمام إلى غيره، وكما أن الواجب الاحتماء عن سبب المرض قبل حصوله، وإزالته بعد حصوله، فهكذا أمراض القلب يحتاج فيها إلى حفظ الصحة ابتداء، وإلى إعادتها - إن عرض له المرض - دواما، والصحة تحفظ بالمثل، والمرض يزول بالضد: فصحة القلب تحفظ باستعمال أمثال ما فيها، وهو ما يقوي العلم والإيمان من الذكر والتفكر والعبادات المشروعة، وتزول بالضد: فتزال الشبهات بالبينات، وتزال محبة الباطل ببغضه، ومحبة الحق. ولهذا قال يحيى بن عمار «العلوم خمسة: فعلم هو حياة الدين، وهو علم التوحيد. وعلم هو غذاء الدين، وهو علم التذكر بمعاني القرآن والحديث. وعلم هو دواء الدين، وهو علم الفتوى إذا نزل بالعبد نازلة احتاج إلى من يشفيه منها كما قال ابن مسعود . وعلم هو

---

(١) سورة البقرة آية ٢١٦.
(٢) سورة النازعات آية ٤١.
(٣) سورة الأنفال آية ٧.

داء الدين، وهو الكلام المحدث. وعلم هو هلاك الدين، وهو علم السحر ونحوه. فحفظ الصحة بالمثل، وإزالة المرض بالضد، في مرض الجسم الطبيعي ومرض القلب النفساني الديني الشرعي. قال ﷺ **«كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء»**؟ ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم ﴿**فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا**﴾[1] أخرجاه في الصحيحين. قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ - إلى قوله - بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ - إلى قوله - فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2] فأخبر الله أنه فطر عباده على إقامة الوجه حنيفا، وهو عبادة الله وحده لا شريك له.

فهذه من الحركة الفطرية الطبيعية المستقيمة المعتدلة للقلب، وتركها ظلم عظيم اتبع أهله أهواءهم بغير علم. ولا بد لهذه الفطرة والخلقة ـ وهي صحة الخلقة ـ من قوت وغذاء يمدها بنظير ما فيها مما فطرت عليه علما وعملا، ولهذا كان تمام الدين بالفطرة المكملة بالشريعة المنزلة، وهي مأدبة الله، كما قال النبي ﷺ في حديث ابن مسعود **«إن كل آدب يحب أن تؤتى مأدبته، وإن مأدبة الله هي القرآن»**[3] ومثله كماء أنزله الله من السماء، كما جرى تمثيله بذلك في الكتاب والسنة. والمحرفون للفطرة المغيرون للقلب عن استقامته هم ممرضون للقلوب مسقمون لها، وقد أنزل الله كتابه شفاء لما في الصدور.

---

(١) سورة الروم آية ٣٠. والحديث متفق عليه، وسبق تخريجه.

(٢) سورة الروم آيات ٢٦-٣٠.

(٣) أخرجه الدارمي (٣٣٢٤) عن محمد بن يوسف ثنا مسعر عن معن بن عبدالرحمن عن ابن مسعود قال: ليس من مؤدب إلا وهو يحب أن يؤتى أدبه وإن أدب الله القرآن. ورجاله كلهم ثقات إلا انه منقطع بين معن وابن مسعود فإنه لم يسمع منه.

• في الابتلاء نوع من الشفاء:

قلت في نفسي هذا الذي يقوله الشيخ شرحا لحديث الفطرة فيه نظر دقيق ينبغي اغتنامه وحيازته والتفكر فيه.

ثم استطرد الشيخ ليجيب على ما قد يستشكل فيه البعض من أن المؤمن رغم أنه على الفطرة التي فطر الله الناس عليها إلا أنه مع ذلك تنزل به المصائب.

فقال الشيخ مكملا حديثه وما يصيب المؤمن في الدنيا من المصائب بمنزلة ما يصيب الجسم من الألم يصح به الجسم وتزول أخلاطه الفاسدة، كما قال النبي ﷺ **«ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى ـ حتى الشوكة يشاكها ـ إلا كفر الله بها خطاياه»**[1] وذلك تحقيق لقوله: ﴿**مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ**﴾[2] ومن لم يطهر في هذه الدنيا من هذه الأمراض فيئوب صحيحا، احتاج إلى أن يطهر منها في الآخرة فيعذبه الله، كالذي اجتمعت فيه أخلاطه ولم يستعمل الأدوية لتخفيفها عنه، فتجتمع حتى يكون هلاكه بها. ولهذا جاء في الأثر «إذا قالوا للمريض: اللهم ارحمه، يقول الله: كيف أرحمه من شيء به أرحمه»؟ وقال النبي ﷺ **«المرض حطة، يحط الخطايا عن صاحبه، كما تحط الشجرة اليابسة ورقها»**[3] وكما أن من أمراض الجسم ما إذا مات الإنسان منه كان شهيدا ـ كالمطعون والمبطون وصاحب ذات الجنب، وكذلك الميت بغرق أو حرق أو هدم ـ فمن أمراض النفس ما إذا اتقى العبد ربه فيه وصبر عليه حتى مات كان شهيدا، كالجبان الذي يتقي الله ويصبر للقتال حتى يقتل. فإن البخل والجبن من أمراض النفوس إن أطاعه أوجب له الألم، وإن عصاه تألم، كأمراض الجسم. وكذلك العشق فقد روي «من عشق، فعف، وكتم وصبر ثم مات، مات شهيدا»[4].

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي بلفظ فيه بعض الاختلاف انظر جامع الأصول ٥٧٩/٩.

(٢) سورة النساء آية ١٢٣.

(٣) أخرج عبدالله بن أحمد في «زوائد المسند» (٤/ ٧٠) والطبراني في «الكبير» (١٠٠٢) حديث أسد بن كرز مرفوعا «أن المرض ليذهب الخطايا كما يتحات ورق الشجر» قال الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٣٠١) والمنذري في «الترغيب» (٤/ ٢٩٣): اسناده حسن. وقال الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٩٤٠): ضعيف.

(٤) تقدم الكلام عليه.

فإنه مرض في النفس يدعو إلى ما يضر النفس. كما يدعو المريض إلى تناول ما يضر، فإن أطاع هواه عظم عذابه في الآخرة وفي الدنيا أيضا وإن عصى الهوى بالعفة والكتمان صار في نفسه من الألم والسقم ما فيها، فإذا مات من ذلك المرض كان شهيدا، هذا يدعوه إلى النار فيمنعه، كالجبان تمنعه نفسه عن الجنة فيقدمها. فهذه الأمراض إذا كان معها إيمان وتقوى كانت كما قال النبي ﷺ **«لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له، إن أصابته سراء فشكر كان خيرا له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له»**[1].

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وإلى هنا انتهى مجلس الشيخ والكل يأمل ألا ينتهي وعزاؤنا أن لنا موعدا مع الشيخ في المجلس القادم بعون الله وتوفيقه.

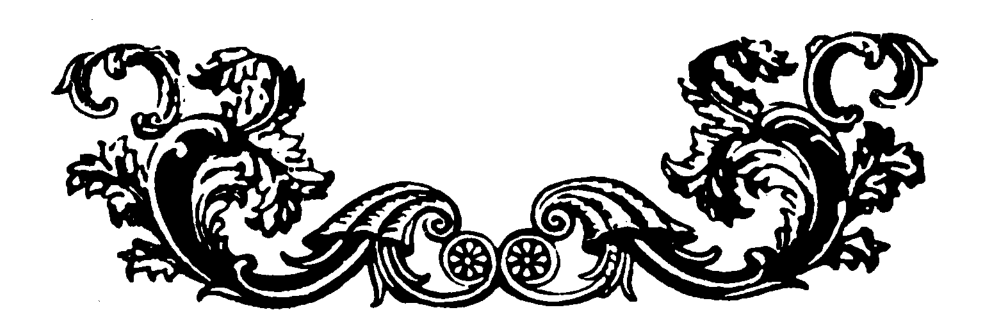
---

(١) أخرجه مسلم في الزهد باب «المؤمن أمره كله خير» بلفظ (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير. . الخ) جامع الأصول ٩/٣٦٩.



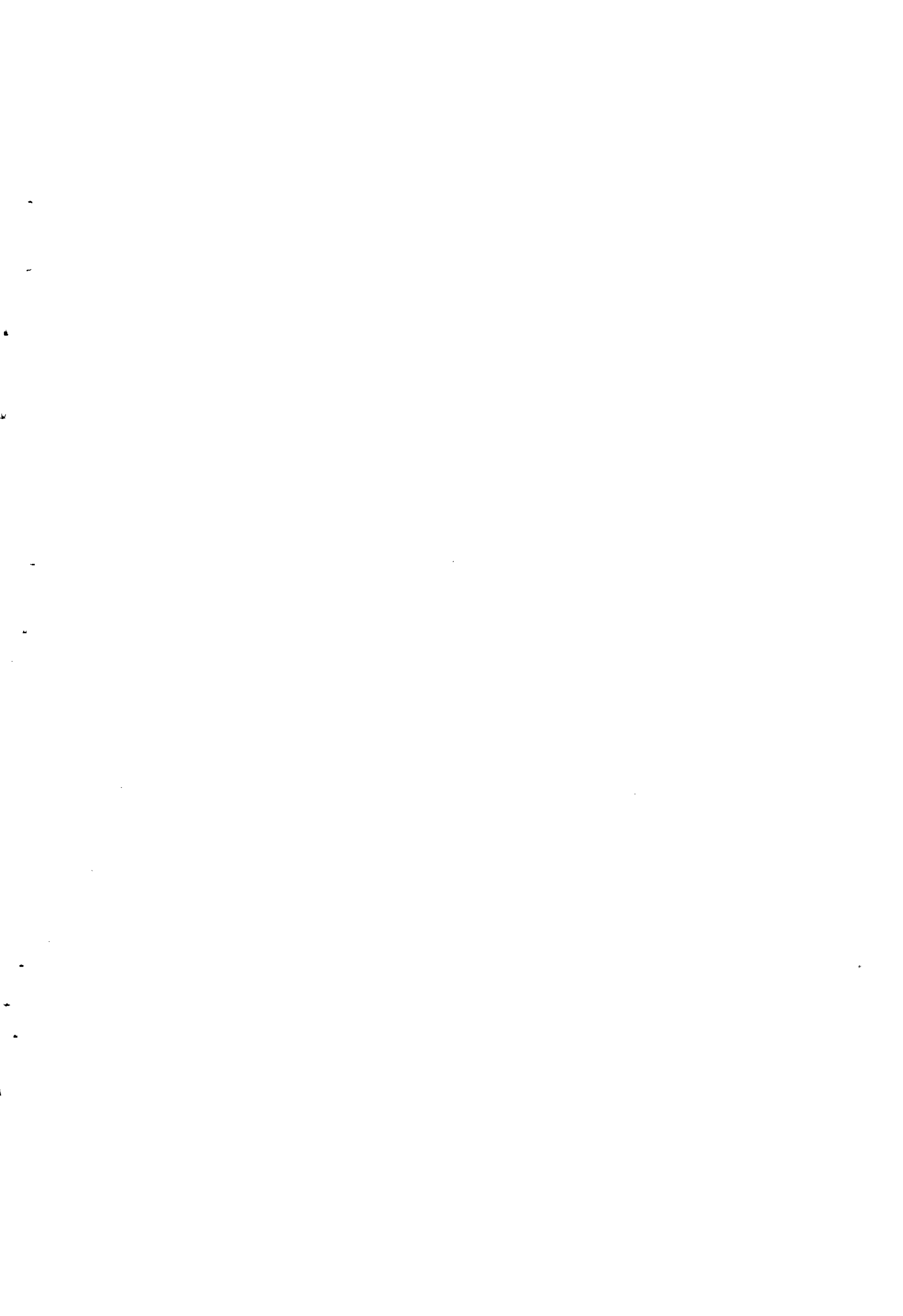
المبحث الثاني

شفاء القلوب



المجلس التاسع

أدوية شفاء القلوب



المجلس التاسع
شفاء القلوب

كنا على موعد مع الشيخ الإمام ابن تيمية ليحدثنا عما رغبنا وشوقنا لسماع القول فيه وهو أدوات ووسائل شفاء القلوب، وذلك بعدما حدثنا في المجلس السابق عن مفهوم وحقيقة مرض القلب وأن له حياة وموتا وبين أنواعا من أمراض القلب، وها هو اليوم يبين وسائل العلاج.

فبعد أن اكتمل للشيخ مجلسه وأخذ كل أهبته توجه الشيخ بوجهه الوضاء جهة الجموع الحاشدة، ثم قال: الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما.

ثم أما بعد فقد وعدتكم أن يكون الحديث اليوم عن وسائل شفاء القلوب بعد أن ذكرت لكم طرفا من أمراضها، فأقول وبالله وحده التوفيق:

- أدوية شفاء القلوب:

إن شفاء القلوب لا يكون إلا بأدوية إيمانية قوية المفعول بالغة التأثير، إذا وجدت قلبا مستعدا لها متهيئا للقائها، وهذه الأدوية هي:

أولا القرآن: فهو شفاء لما في الصدور ولمن في قلبه أمراض الشبهات والشهوات، ففيه من البينات ما يزيل الحق من الباطل، فيزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم والتصور والإدراك، بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه، وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التي فيها عبرة

ما يوجب صلاح القلب، فيرغب القلب فيما ينفعه ويرغب عما يضره، فيبقى القلب محبا للرشاد، مبغضا للغي، بعد أن كان مريدا للغي، مبغضا للرشاد. فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة، حتى يصلح القلب فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها، كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي، ويغتذي القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده، كما يغتذي البدن بما ينميه ويقومه، فإن زكاة القلب مثل نماء البدن.

وثانيا الزكاة: وهي في اللغة: النماء، والزيادة في الصلاح، يقال: زكا الشيء، إذا نما في الصلاح. فالقلب يحتاج أن يتربى فينمو ويزيد، حتى يكمل ويصلح. كما يحتاج البدن أن يربى بالأغذية المصلحة له. ولا بد - مع ذلك - من منع ما يضره. فلا ينمو البدن إلا بإعطاء ما ينفعه ومنع ما يضره. وكذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره. وكذلك الزرع لا يزكو إلا بهذا.

وثالثا الصدقة: فإنها لما كانت تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار، صار القلب يزكو بها، وزكاته معنى زائد على طهارته من الذنب، قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[1]، وكذلك ترك الفواحش يزكو به القلب - وكذلك ترك المعاصي، فإنها بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن، ومثل الدغل في الزرع، فإذا استفرغ البدن من الأخلاط الرديئة - كاستخراج الدم الزائد - تخلصت القوة الطبيعية واستراحت، فينمو البدن. وكذلك القلب إذا تاب من الذنوب كان استفراغا من تخليطاته حيث خلط عملا صالحا وآخر سيئا، فإذا تاب من الذنوب تخلصت قوة القلب وإرادته للأعمال الصالحة، واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التي كانت فيه، فزكاة القلب بحيث ينمو ويكمل،

---

(١) سورة التوبة آية ١٠٣.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾[2]، وقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، قال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾[7].

قلت: نفهم من كلام إمامنا ها هنا: أن ترك المعاصي وإزالة الشر نماء وتزكية للقلب، فالمعاصي والشر هما في حقيقتهما نقص، لكن القلب إذا خلا منهما كان ذلك زيادة ونماء.

قال الإمام: هو كذلك يا أبنائي فإن التزكية وإن كان أصلها النماء والبركة وزيادة الخير، فإنما تحصل بإزالة الشر، فلهذا صار التزكي يجمع هذا وهذا ولذا قال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[8] وهي التوحيد والإيمان الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب. وإثبات إلهية الحق في القلب، وهو حقيقة «لا إله إلا الله» وهذا أصل ما تزكو به القلوب.

وأما رابعا فالتزكية: وهي جعل الشيء زكيا، إما في ذاته، وإما في الاعتقاد والخبر، كما يقال «عدلته» إذا جعلته عدلا في نفسه، أو في اعتقاد الناس. قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾[9] أي تخبروا بزكاتها. وهذا غير

---

(١) سورة النور آية ٢١.
(٢) سورة النور آية ٢٨.
(٣) سورة النور آية ٣٠.
(٤) سورة الأعلى آية ١٤، ١٥.
(٥) سورة الشمس آية ٩، ١٠.
(٦) سورة عبس آية ٣.
(٧) سورة النازعات آية ١٨، ١٩.
(٨) سورة فصلت آية ٦، ٧.
(٩) سورة النجم آية ٣٢.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[1]، ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾[2]. وكان اسم زينب «برة» فقيل: تزكي نفسها فسماها رسول الله ﷺ زينب، وأما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾[3] أي يجعله زاكيا ويخبر بزكاته، كما يزكي المزكي الشهود بعدلهم.

وأما خامسا فالعدل: وهو الاعتدال، والاعتدال هو صلاح القلب، كما أن الظلم فساده؛ ولهذا جميع الذنوب يكون الرجل فيها ظالما لنفسه، والظلم خلاف العدل، فلم يعدل على نفسه بل ظلمها. فصلاح القلب في العدل، وفساده في الظلم، وإذا ظلم العبد نفسه فهو الظالم وهو المظلوم، كذلك إذا عدل فهو العادل والمعدول عليه، فمنه العمل، وعليه تعود ثمرة العمل من خير وشر. قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[4].

وأما سادسا فالعمل: له أثر في القلب - من نفع، وضر، وصلاح - قبل أثره في الخارج، فصلاح النفس عدل لها، وفسادها ظلم لها، قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾[5] وقال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[6]. قال بعض السلف «إن للحسنة نورا في القلب، وقوة في البدن، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق. وإن للسيئة لظلمة في القلب، وسوادا في الوجه،

---

(١) سورة الشمس آية ٩.
(٢) سورة النجم آية ٣٢.
(٣) سورة النساء آية ٤٩.
(٤) سورة البقرة آية ٢٨٦.
(٥) سورة فصلت آية ٤٦.
(٦) سورة الاسراء آية ٧.

ووهنا في البدن، ونقصا في الرزق، وبغضا في قلوب الخلق»
وقال تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[1]، وقال تعالى:
﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[2]، وقال: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾[3]. و «تبسل» أي ترتهن وتحبس وتؤسر، كما أن الجسد إذا صح من مرضه قيل: قد اعتدل مزاجه، والمرض إنما هو انحراف المزاج، مع أن الاعتدال المحض السالم من الأخلاط لا سبيل إليه، ولكن الأمثل فالأمثل، ولهذا يقال: هذا أمثل، ويقال للطريقة السلفية «الطريقة المثلى»، وقال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[5]. والله تعالى بعث الرسل وأنزل الكتب ليقوم الناس بالقسط، وأعظم القسط: عبادة الله وحده لا شريك له، ثم العدل على الناس في حقوقهم، ثم العدل على النفس.

قلت: يتحصل من كلام فضيلتكم أن العدل والعمل الصالح هو سبب سلامة وصحة القلب، وعليه فإن الظلم سبب لمرضه.

قال الإمام: هو كذلك يا أحبائي، الظلم كله من «أمراض القلوب»، والعدل صحتها وصلاحها.

---

(١) سورة الطور آية ٢١.
(٢) سورة المدثر آية ٣٨.
(٣) سورة الأنعام آية ٧٠.
(٤) سورة النساء آية ١٢٩.
(٥) سورة الأنعام آية ١٥٢.

قال أحمد بن حنبل لبعض الناس «لو صححت لم تخف أحدا»، أي خوفك من المخلوق هو من مرض فيك، كمرض الشرك والذنوب.

وإلى هنا أنهى الشيخ الإمام مجلسه على أمل فتح الحوار في طب القلوب أيضا في المجلس القادم إن شاء الله تعالى.

المجلس العاشر



حياة القلب

- حياة القلب بصلاحه
- صلاح القلب بالايمان وفساده بالنفاق
- الفرق بين القلب الحي والقلب الميت
- القلوب المريضة ليست قاصرة على الكفار

المجلس العاشر
حياة القلب

حضر الإمام أحمد بن عبدالحليم شيخ الإسلام ابن تيمية مجلسه، وأخذ موقعه في صدر المجلس، وقد علته هيبة بادية ووقار، وزانه بياض شيب لحيته، يأخذ بنظر وفكر السادة الحضور إلى تاريخ مديد شغله الشيخ بالجد والاجتهاد والجهاد، وكان قطب الرحى في أحداث تاريخية مشهورة، اكتسب من خلالها حب الجماهير حتى غدا رمزا إسلاميا، يحسب له الحكام والخصوم والحساد أكثر من حساب.

ولما قارب الشيخ أن يفتتح المجلس كان السكون المهيب يشمل المسجد في أرجائه كلها وما هي إلا لحظات حتى سمع صوت الشيخ: «الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أما بعد، فإن حديثي إليكم اليوم حول حياة قلوبكم وصلاحها كيف يكون؟

- حياة القلب بصلاحه:

فأقول وبالله التوفيق: إن أصل صلاح القلب هو حياته، واستنارته. قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[1]؟ لذلك ذكر الله حياة القلوب ونورها، وموتها وظلمتها في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[2] وقوله

---

(١) سورة الأنعام آية ١٢٢.

(٢) سورة يس آية ٧٠.

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾[2]، ومن أنواعه أنه يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن. وفي الحديث الصحيح «مثل البيت يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه كمثل الحي والميت»[3]، وفي الصحيح أيضا «اجعلوا في بيوتكم من صلاتكم، ولا تتخذوها قبورا»[4]. وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾[5]، وذكر سبحانه آية النور وآية الظلمة فقال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾[6] فهذا مثل نور الإيمان في قلوب المؤمنين، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾[7]. فالأول مثل الاعتقادات الفاسدة والأعمال التابعة لها، يحسبها صاحبها شيئا ينفعه، فإذا جاءها لم يجدها شيئا ينفعه، فوفاه الله حسابه على تلك الأعمال. والثاني مثل للجهل البسيط وعدم الإيمان والعلم، فإن صاحبها في ظلمات بعضها فوق بعض لا يبصر شيئا، فإن البصر إنما هو بنور الإيمان والعلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[8]، وقال تعالى:

---

(١) سورة الأنفال آية ٢٤.

(٢) سورة الروم آية ١٩.

(٣) أخرجه مسلم (٧٧٩).

(٤) اللؤلؤ والمرجان حديث رقم ٤٤٥.

(٥) سورة الأنعام آية ٣٩.

(٦) سورة النور آية ٣٥.

(٧) سورة النور آية ٣٩، ٤٠.

(٨) سورة الأعراف آية ٢٠١.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [1] وهو برهان الإيمان الذي حصل في قلبه، فصرف الله به ما كان هم به، وكتب له حسنة كاملة، ولم يكتب عليه خطيئة، إذ فعل خيرا ولم يفعل سيئة، وقال تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [2] وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ [3]، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [4]،

. صلاح القلب بالايمان وفساده بالنفاق:

قلت: يلحظ هنا يا إمامنا الجليل من خلال الآيات التي ذكرتها أن حياة القلوب دائرة على أمرين أو بمعنى آخر مظهرها أمران:

أولها: الماء وهو أساس كل حي.

وثانيها: النور الذي به يشرق كل شيء.

قال الإمام: هو كذلك يا أعزائي والآيات التي ذكرتها تشير إلى ذلك بوضوح ولكن ما أريد أن أوضحه لكم ها هنا زيادة على الملحظ الذي ذكر. أن حياة القلب بإيمانه وفساده بنفاقه ولهذا ضرب الله للإيمان مثلين: مثلا بالماء الذي به الحياة وما يقترن به من الزبد، ومثلا بالنار التي بها النور وما يقترن بها يوقد عليه من الزبد. وكذلك ضرب الله للنفاق مثلين: قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [5]، وقال تعالى في المنافقين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا

---

(١) سورة يوسف آية ٢٤.

(٢) سورة ابراهيم آية ١.

(٣) سورة البقرة آية ٢٥٧.

(٤) سورة الحديد آية ٢٨.

(٥) سورة الرعد آية ١٧.

﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[(١)]، فضرب لهم مثلا بالذي أوقد النار، كلما أضاءت أطفأها الله، والمثل المائي كالماء النازل من السماء وفيه ظلمات ورعد وبرق. ولبسط الكلام في هذه الأمثال موضع آخر. وإنما المقصود هنا ذكر حياة القلوب وإنارتها. وفي الدعاء المأثور «**اجعل القرآن ربيع قلوبنا ونور صدورنا**»[(٢)]، والربيع هو المطر الذي ينزل من السماء فينبت به النبات، قال النبي ﷺ «**إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم**»[(٣)]، والفصل الذي ينزل فيه أول المطر تسميه العرب الربيع، لنزول المطر الذي ينبت الربيع فيه، وغيرهم يسمي الربيع الفصل الذي يلي الشتاء، فإن فيه تخرج الأزهار التي تخلق منها الثمار، وتنبت الأوراق على الأشجار.

ـ الفرق بين القلب الحي والقلب الميت:

قلت: إذا سمح لنا إمامنا أن نقاطعه ها هنا بسؤال نظن أنه يتبادر إلى أذهان أبنائكم القراء بعد الذي ذكرتم ذلك. إنه إذا كان القلب إما حياً أو ميتاً، إما منوراً أو مظلماً فكيف تكون حياة القلب الحي وحياة القلب الميت؟ هل كلاهما يسمع ويبصر ويعقل؟ وإذا كان ذلك كذلك. فما هو الفرق بينهما والحال هذه؟

قال الإمام: السؤال ينبىء عن الفهم فأقول لكم وبالله التوفيق: القلب الحي المنور، ـ لما فيه من النور ـ يسمع ويبصر ويعقل، والقلب الميت فإنه لا يسمع، ولا يبصر. قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ

---

(١) سورة البقرة آية ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠.

(٢) أخرجه أحمد (٣٧١٢ و٤٣١٨) وأبو يعلى والبزار وصححه ابن حبان (موارد ٢٣٧٢) والحاكم (٥٠٩/١).

(٣) رواه البخاري في كتاب الجهاد باب فضل النفقة في سبيل الله رقم ٢٨٤٢. انظر فتح الباري.

بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[3] الآيات. فأخبر أنهم لا يفقهون بقلوبهم، ولا يسمعون بآذانهم، ولا يؤمنون بها رأوه من النار. كما أخبر عنهم حيث قالوا: ﴿ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[4]، فذكروا الموانع على القلوب والسمع والأبصار، وأبدانهم حية تسمع الأصوات وترى الأشخاص، لكن حياة البدن بدون حياة القلب من جنس حياة البهائم: لها سمع وبصر، وهي تأكل وتشرب وتنكح. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾[5]، فشبههم بالغنم التي ينعق بها الراعي وهي لا تسمع إلا نداء، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُولَٰٓئِكَ كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾[7].

ـ القلوب المريضة ليست قاصرة على الكفار:

ولما تلا الشيخ الآية هذه سكت برهة، فقلنا: يا إمامنا الجليل الآية ها هنا لا يخفى أنها تشير إلى معنى قد يشكل على كل ما سبق ذكره، وهو أن حديثكم عن القلوب

---

(١) سورة البقرة آية ١٧١.
(٢) سورة يونس آية ٤٢، ٤٣.
(٣) سورة الأنعام آية ٢٥.
(٤) سورة فصلت آية ٥.
(٥) سورة البقرة آية ١٧١.
(٦) سورة الفرقان آية ٤٤.
(٧) سورة الأعراف آية ١٧٩.

التي لا تفقه ولا تبصر ولا تسمع إنما هو خاص بجنس الكفار من الناس ولا يدخل فيه حينئذ من ذكرتم من المنافقين، والمسلمين أيضا.

قال الإمام: أنا رأيي في هذا الموضوع الذي ذكرته وفي فهم لآية بشكل خاص يختلف عن رأي بعض المفسرين في هذا الخصوص، فإن طائفة من المفسرين تقول في هذه الآيات وما أشبهها كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾[1] وأمثالها مما ذكر الله في عيوب الإنسان وذمها، فيقول هؤلاء: هذه الآية في الكفار، والمراد بالإنسان هنا الكافر، فيبقى من يسمع ذلك يظن أنّه ليس لمن يظهر الإسلام في هذا الذم والوعيد نصيب، بل يذهب وهمه إلى من كان مظهرا للشرك من العرب، أو إلى من يعرفهم من مظهري الكفر كاليهود والنصارى ومشركي الترك والهند ونحو ذلك، فلا ينتفع بهذه الآيات التي أنزلها الله ليهتدي بها عباده.

فيقال أولا: المظهرون للإسلام فيهم مؤمن ومنافق، والمنافقون كثيرون في كل زمان. والمنافقون في الدرك الأسفل من النار.

ويقال ثانيا: الإنسان قد يكون عنده شعبة من نفاق وكفر، وإن كان معه إيمان، كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه «**أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»[2]، فأخبر أنه من كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق، وقد ثبت في الحديث الصحيح أنه قال لأبي ذر «**إنك امرؤ فيك جاهلية**»[3]. وأبو ذر رضي الله عنه من أصدق الناس إيمانا. وقال في الحديث الصحيح «**أربع من أمتي من أمر الجاهلية: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والنياحة، والاستسقاء بالنجوم**»[4]. وقال في الحديث الصحيح «لتتبعن

---

(١) سورة يونس آية ١٢.

(٢) اللؤلؤ والمرجان حديث رقم ٣٧.

(٣) أخرجه البخاري. انظر فتح الباري حديث رقم ٣٠ ج١/٨٤.

(٤) مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري حديث رقم ٤٦٣ تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ـ الطبعة الأولى ١٣٨٨-١٩٦٩ نشر وزارة الأوقاف والشئون الاسلامية ـ الكويت.

سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: فمن»[1] وقال أيضا في الحديث الصحيح «لتأخذن أمتي ما أخذت الأمم قبلها. شبرا بشبر، وذراعا بذراع. قالوا: فارس والروم؟ قال: ومن الناس إلا هؤلاء»[2]

وقال ابن أبي مليكة:[3] أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه[4]. وعن علي[5] - أو حذيفة -[6] رضي الله عنهما قال: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر، فذلك قلب المؤمن. وقلب أغلف، فذاك قلب الكافر. وقلب منكوس، فذاك قلب المنافق. وقلب فيه مادتان: مادة تمده الإيمان، ومادة تمده النفاق، فأولئك قوم خلطوا عملا صالحا، وآخر سيئاً».

قلت في نفسي: قد أجاد الشيخ وأقام الحجة والبرهان وما ترك لسائل سؤالا ولا لمجادل مقالا. ثم أنهى الشيخ الهمام مجلسه بمثل ما بدأه بالحمد والثناء على الله تبارك وتعالى والصلاة والسلام على رسوله الكريم.

---

(١) اللؤلؤ والمرجان حديثم رقم ١٧٠٨ ومختصر صحيح مسلم حديث رقم ٢٠٠٢ بألفاظ مختلفة.

(٢) أخرجه البخاري بلفظ مختلف. انظر فتح الباري حديث قم ٧٣١٩ ج١٣ ص ٣٠٠.

(٣) ابن أبي مليكة هو عبدالله بن عبيدالله بن أبي مليكة. قاض، من رجال الحديث الثقات، ولاه ابن الزبير قضاء الطائف مات سنة ١١٧هـ الأعلام ٤/١٠٢ ط٤.

(٤) مختصر صحيح البخاري رقم ٣٦ باب خوف المؤمن أن يحبط عمله.

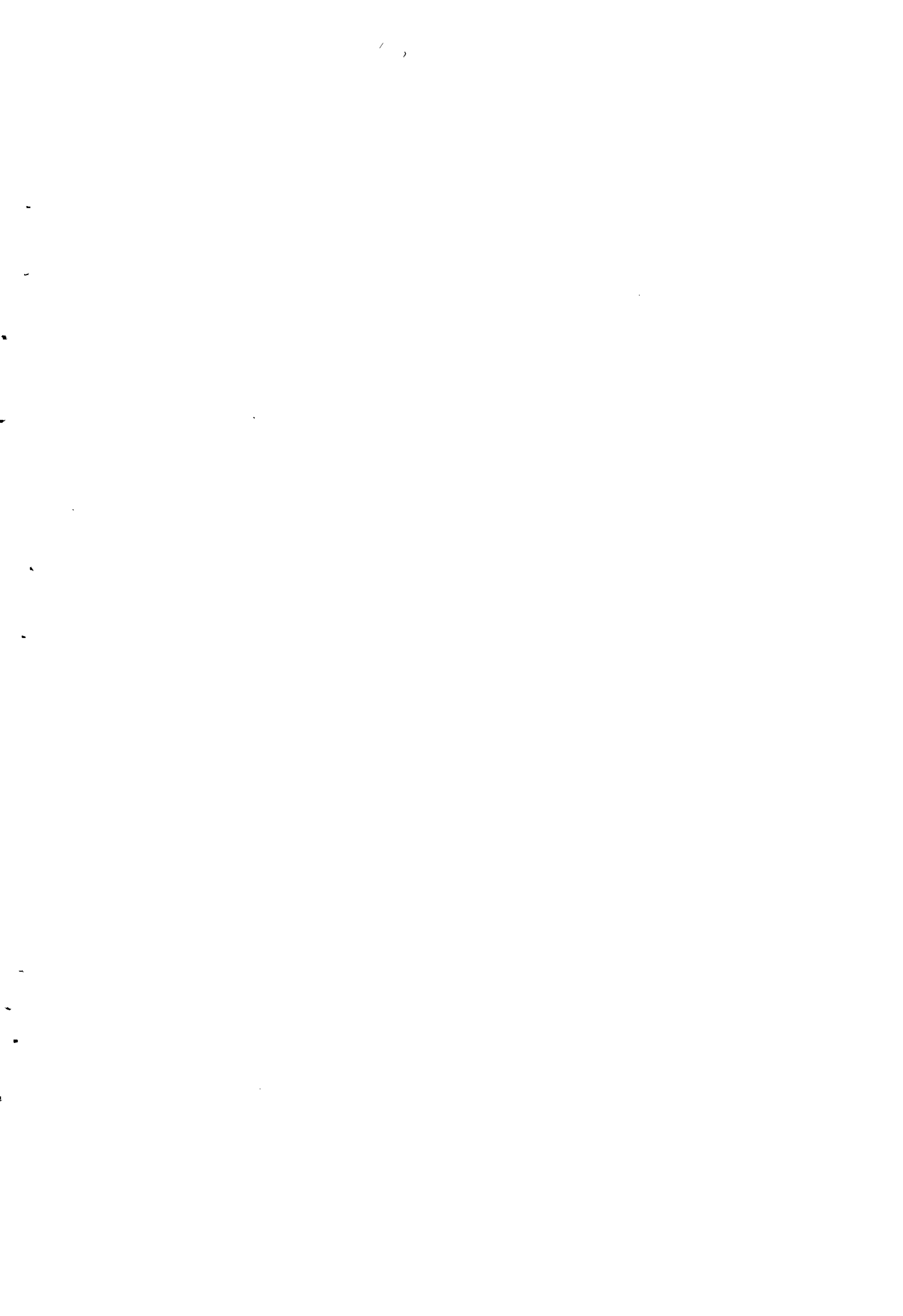
(٥) علي بن أبي طالب صحابي جليل أول من أسلم من الصغار، كان شجاعا مقداما حضر كثيرا من المشاهد، تولى الخلافة بعد مقتل عثمان سنة ٣٥. وحارب في موقعة الجمل وصفين، وقتله عبدالرحمن بن ملجم سنة ٤٠هـ. الأعلام ٥/١٠٧ ط٣.

(٦) حذيفة بن اليمان. صاحب سر رسول الله ﷺ، ولاه عمر المدائن، وفتح الدينور، وماه سندان، وهمذان والري وكان من الولاة الشجعان توفى بالمدائن سنة ٣٦هـ الأعلام ٢/١٧١ ط٤.

المجلس الحادي عشر

القلب في حاجة دائمة إلى الهداية

- الافتقار الدائم لطلب الهداية
- حياة القلب تمنعه من القبائح



المجلس الحادي عشر
القلب في حاجة دائمة إلى الهداية

كان لقاء هذا اليوم لقاء حيا متقدا، تفاعلت معه القلوب والجوارح كعادة مجالس شيخ الإسلام. فحين اكتمل الجمع قال الشيخ الإمام العالم الحبر العلامة الحافظ الخاشع القانت إمام الأئمة، ورباني الأمة، شيخ الإسلام بقية الأعلام تقي الدين، خاتمة المجتهدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني: «الحمد لله الذي بعث ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كما شهد هو سبحانه وتعالى أن لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، الذي ختم به أنبياءه وهدى به أولياءه، وبعثه بقوله في القرآن الكريم ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[2] صلى الله عليه أفضل صلاة وأكمل تسليم[3].

أما بعد: فحديثي اليكم اليوم بعون الله عن القلب المهتدي وهو في حاجة إلى

---

(١) سورة البقرة آية ٢١٣.

(٢) سورة التوبة آية ١٢٨، ١٢٩

(٣) هذه مقدمة كتاب منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية ١/٢.

الهداية، فهل يمكن أن يستشكل على ذلك حتى يكون هذا الاستشكال منكم محور حديثي؟

ـ الافتقار الدائم لطلب الهداية:

قلت: إذا أذن شيخنا فإني أقول :نعم يمكن الاستشكال. فإذا كان قلب المسلم المؤمن على صلاح وهدى مستقيما وهو حي بذلك فعلا فما فائدة أن يدعو المسلم ربه دائما بطلب الهداية وإنما ينبغي في الظاهر أن يكون هذا الطلب من القلب الآخر الضال؟

قال الإمام: الذي ينبني على هذا أمر عظيم وهو أن كل عبد ينتفع بما ذكر الله في الإيمان من مدح شعب الإيمان وذم شعب الكفر. وهذا كما يقول بعضهم في قوله ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾[1]. فيقولون: المؤمن قد هدي إلى الصراط المستقيم، فأي فائدة في طلب الهدى؟ ثم يجيب بعضهم بأن المراد: ثبتنا على الهدى، كما تقول العرب للنائم: نم حتى آتيك. أو يقول بعضهم: ألزم قلوبنا الهدى، فحذف الملزوم. ويقول بعضهم زدني هدى. وإنما يوردون هذا السؤال لعدم تصورهم الصراط المستقيم الذي يطلب العبد الهداية إليه، فإن المراد به العمل بما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، في جميع الأمور.

والإنسان وإن كان أقر بأن محمدا رسول الله، وأن القرآن حق على سبيل الإجمال فأكثر ما يحتاج إليه من العلم بما ينفعه ويضره، وما أمر به وما نهى عنه في تفاصيل الأمور وجزئياتها لم يعرفه، وما عرفه فكثير منه لم يعمله. ولو قدر أنه بلغه كل أمر ونهي في القرآن والسنة، فالقرآن والسنة إنما تذكر فيهما الأمور العامة الكلية لا يمكن غير ذلك، لا يذكر ما يخص به كل عبد. ولهذا أمر الإنسان في مثل ذلك بسؤال الهدى إلى الصراط المستقيم، والهدى إلى الصراط المستقيم يتناول هذا كله: يتناول التعريف بما جاء به الرسول مفصلا، ويتناول التعريف بما يدخل في أوامره الكليات، ويتناول إلهام العمل بعلمه، فإن مجرد العلم بالحق لا يحصل به الاهتداء إن لم يعمل بعلمه، ولهذا

---

(١) سورة الفاتحة آية ٦.

قال لنبيه بعد صلح الحديبية: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[1]، وقال في حق موسى وهارون: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[2].

والمسلمون قد تنازعوا فيما شاء الله من الأمور الخبرية، والعلمية الاعتقادية، والعملية، مع أنهم كلهم متفقون على أن محمدا حق، والقرآن حق، فلو حصل لكل منهم الهدى إلى الصراط المستقيم فيما اختلفوا فيه لم يختلفوا. ثم الذين علموا ما أمر الله به أكثرهم يعصونه، ويحتذون حذوه، فلو هدوا إلى الصراط المستقيم في تلك الأعمال لفعلوا ما أمروا به، وتركوا ما نهوا عنه. والذين هداهم الله من هذه الأمة حتى صاروا من أولياء الله المتقين، كان من أعظم أسباب ذلك دعاؤهم الله بهذا الدعاء «ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ»[3] في كل صلاة، مع علمهم بحاجتهم وفاقتهم إلى الله دائما في أن يهديهم الصراط المستقيم. فبدوام هذا الدعاء والافتقار صاروا من أولياء الله المتقين، قال سهل بن عبدالله التستري:[4] ليس بين العبد وبين ربه طريق أقرب إليه من الافتقار، وما حصل فيه الهدى في الماضي فهو محتاج إلى حصول الهدى فيه في المستقبل. وهذا حقيقة قول من يقول: ثبتنا واهدنا لزوم الصراط.

قلت: يا إمامنا هذا قول سديد لكن الدعاء بالهداية طلب لمزيد في المستقبل وهو بمجرده لا فائدة ترجى منه ما لم يصحبه عمل، فهذا قد يحصل أو لا يحصل، فلنا أن نسأل ها هنا عن فائدة الدعاء بالهداية وأثره مادام أمرا مستقبلا.

قال الإمام: كلامكم هذا سديد، وأنا أوضح لكم المراد بشيء من التفصيل. فإن قول من قال: زدنا هدى يتناول ما تقدم، لكن هذا كله هدى منه في المستقبل إلى الصراط المستقيم، فإن العمل في المستقبل بالعلم لم يحصل بعد كما ذكرتم، هذا صحيح ولا

---

(١) سورة الفتح آية ١، ٢.

(٢) سورة الصافات آية ١١٧، ١١٨.

(٣) سورة الفاتحة آية ٦.

(٤) سهل بن عبدالله التستري. أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين في علوم الإخلاص والرياضيات وعيوب الأفعال وله كتاب «رقائق المحبين» مات سنة ٢٨٣هـ الأعلام ٣/ ٢١٠ ط٣.

يكون مهتديا حتى يعمل في المستقبل بالعمل، وقد لا يحصل العلم في المستقبل، بل يزول عن القلب وإن حصل فقد لا يحصل العمل، فالناس كلهم مضطرون إلى هذا الدعاء ولهذا فرضه الله عليهم في كل صلاة، فليسوا إلى شيء من الدعاء أحوج منهم إليه، وإذا حصل الهدى إلى الصراط المستقيم حصل النصر والرزق وسائر ما تطلب النفوس من السعادة.

. حياة القلب تمنعه من القبائح:

الذي أريد أن أصل إليه معكم في هذا الخصوص هو أن حياة القلب وحياة غيره ليست مجرد الحس والحركة الإرادية، أو مجرد العلم والقدرة كما يظن ذلك طائفة من النظار في علم الله وقدرته كأبي الحسين البصري، فقد قالوا: إن حياته أنه بحيث يعلم ويقدر. بل الحياة صفة قائمة بالموصوف وهي شرط في العلم والإرادة والقدرة على الأفعال الاختيارية، وهي أيضا مستلزمة لذلك، فكل حي له شعور وإرادة وعمل اختياري بقدرة، وكل ماله علم وإرادة وعمل اختياري فهو حي. والحياء مشتق من الحياة، فإن القلب الحي يكون صاحبه حيا فيه حياء يمنعه عن القبائح، فإن حياة القلب هي المانعة من القبائح التي تفسد القلب، ولهذا قال النبي ﷺ «**الحياء من الإيمان**»[1] وقال: «**الحياء والعي شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق**»[2]. فإن الحي يدفع ما يؤذيه، بخلاف الميت الذي لا حياة فيه فإنه يسمى وقحا، والوقاحة الصلابة، وهو اليبس المخالف لرطوبة الحياة، فإذا كان وقحا يابسا صليب الوجه لم يكن في قلبه حياة توجب حياءه، وامتناعه من القبح، كالأرض اليابسة لا يؤثر فيها وطء الأقدام، بخلاف الأرض الخضرة. ولهذا كان الحي يظهر عليه التأثر بالقبح، وله إرادة تمنعه عن فعل القبيح، بخلاف الوقح والذي ليس بحيي فإنه لا حياء معه، ولا إيمان يزجره عن ذلك.

---

(١) هو شطر حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الايمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان» اللؤلؤ والمرجان حديث رقم ٢١ وبلفظ آخر عند مسلم فيه «والحياء شعبة من الإيمان» مختصر صحيح مسلم حديث رقم ٣٠.

(٢) أخرجه الترمذي في البر والصلة باب ما جاء في العي برقم ٢٠٢٨ وإسناده صحيح. انظر جامع الأصول ٣/٦١٨.

فالقلب إذا كان حيا فمات الإنسان بفراق روحه بدنه كان موت النفس فراقها للبدن، إذ ليست هي في نفسها ميتة بمعنى زوال حياتها عنها. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ﴾[2] مع أنهم موتى داخلون في قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[3]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[4]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[5] فالموت المثبت غير الموت المنفي: المثبت هو فراق الروح البدن، والمنفي زوال الحياة بالجملة عن الروح والبدن. وهذا كما أن النوم أخو الموت، فيسمى وفاة ويسمى موتا، وكانت الحياة موجودة فيهما، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[6]. وكان النبي ﷺ إذا استيقظ من منامه يقول **«الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا، وإليه النشور»**[7]. وفي حديث آخر **«الحمد لله الذي رد علي روحي، وعافاني في جسدي، وأذن لي بذكره، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلا»**[8] وإذا أوى إلى فراشه يقول **«اللهم أنت خلقت نفسي، وأنت توفاها، لك مماتها ومحياها، إن أمسكتها فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»**[9] ويقول **«باسمك اللهم أموت وأحيا»**[10].

---

(١) سورة البقرة آية ١٥٤.
(٢) سورة آل عمران آية ١٦٩.
(٣) سورة آل عمران آية ١٨٥.
(٤) سورة الزمر آية ٣٠.
(٥) سورة الحج آية ٦٦.
(٦) سورة الزمر آية ٤٢.
(٧) أخرجه البخاري والترمذي وأبو داود. انظر جامع الأصول ٤/ ٢٦٠.
(٨) أخرجه ابن السني في «اليوم والليلة» (٩) من حديث أبي هريرة. قال النووي في «الأذكار» (ص ٢١): اسناده صحيح. وقال الألباني: حسن (صحيح الجامع ٣٢٦).
(٩) بعض حديثين أخرجها الإمام مسلم مع اختلاف بعض الألفاظ. انظر مختصر صحيح مسلم ١٨٩٨، ١٩٠٠.
(١٠) أخرجه البخاري والترمذي وأبو داود. انظر جامع الأصول ٤/ ٢٦٠.

وبعد أن ذكر الإمام ذلك أحب أن يطمئن على فهمنا فقال: هذا ما لدي في هذه المسألة فإن كان رأيي واضحا وإلا زدتكم بيانا.

قلت: كلامكم واضح بيّن وحاصله أنكم ترون أن حياة القلب صفة فيه، وهي قائمة به وليست مجرد حس وحركة أو علم وقدرة، وأن هذه الحياة هي التي تمنع القلب من اقتران القبائح والرذائل.

قال الإمام: هذا ما أردت، وإلى اللقاء القادم إن شاء الله، أحدثكم عن أمراض القلوب بعون الله وتوفيقه.

المجلس الثاني عشر



القلب المتعلق بحب الله

- إخلاص القلب لله قاهر للهوى والمفاسد
- وظيفة المال وصلته بعبودية القلب
- حقيقة حب الله
- علامة المحبة
- تمام العبودية لله
- درجات العبودية لله

المجلس الثاني عشر
القلب المتعلق بحب الله

الذي يتتبع مجالس الشيخ السابقة يدرك إدراكا تاما يقينيا أن الشيخ طبيب قلوب متخصص، يحسن التشخيص، ويصف الدواء الناجع من معين القرآن والسنة، ولا يكون ذلك إلا لمن سلم قلبه من الزيغ والشبهات، وعاش مع القرآن والسنة، ونما وتربى على موائدهما، فأصبح قلبا محبا متعلقا بحب الله لا يعدله بحب سواه.

هذا ما نظنه في الشيخ ونتمناه لذوات قلوبنا العطشى. فلنستمع لشيخ الإسلام وهو يحدثنا عن تعلق القلب بحب الله، بعد أن حدثنا في المجلس السابق عن استعباد ورق القلب إذا بعد عن الله تبارك وتعالى.

افتتح الشيخ مجلسه بقوله: الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

أما بعد، فاعلموا وفقكم الله وسدد قلوبكم للخير والرشاد والسلامة.

ـ إخلاص القلب لله قاهر للهوى والمفاسد:

إن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له لم يكن عنده شيء قط أحلى من ذلك، ولا ألذ ولا أطيب، والإنسان لا يترك محبوبا إلا بمحبوب آخر يكون أحب إليه منه، أو بخوف من مكروه، فالحب الفاسد إنما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح، أو بالخوف من الضرر.

قال تعالى في حق يوسف: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾(1). فالله يصرف عن عبده ما يسوءه من الميل إلى الصور والتعلق بها، ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله.

ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله والإخلاص له تغلبه نفسه على اتباع هواها، فإذا ذاق طعم الإخلاص وقوى في قلبه انقهر له هواه بلا علاج. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾(2)، فإن الصلاة فيها دفع للمكروه وهو الفحشاء والمنكر، وفيها تحصيل المحبوب وهو ذكر الله، وحصول هذا المحبوب أكبر من دفع المكروه، فإن ذكر الله عبادة لله، وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها. وأما اندفاع الشر عنه فهو مقصود لغيره على سبيل التبع.

والقلب خلق يحب الحق ويريده ويطلبه. فلما عرضت له إرادة الشر طلب دفع ذلك، فإنه يفسد القلب كما يفسد الزرع بما ينبت فيه من الدغل، ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾(3) وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ، وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾(4) وقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾(5) وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾(6) فجعل سبحانه غض البصر وحفظ الفرج هو أزكى للنفس، وبين أن ترك الفواحش من زكاة النفوس، وزكاة النفوس تتضمن زوال جميع الشرور من الفواحش والظلم والشرك والكذب وغير ذلك.

وكذلك طالب الرئاسة والعلو في الأرض قلبه رقيق لمن يعينه عليها ولو كان في

---

(1) سورة يوسف آية ٢٤.
(2) سورة العنكبوت آية ٤٥.
(3) سورة الشمس آية ٩، ١٠.
(4) سورة الأعلى آية ١٤، ١٥.
(5) سورة النور آية ٣٠.
(6) سورة النور آية ٢١.

الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم، فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم فيبذل لهم الأموال والولايات ويعفو عنهم ليطيعوه، ويعينوه، فهو في الظاهر رئيس مطاع، وفي الحقيقة عبد مطيع لهم، والتحقيق أن كليهما فيه عبودية للآخر، وكليهما تارك لحقيقة عبادة الله، وإذا كان تعاونهما على العلو في الأرض بغير الحق، كانا بمنزلة المتعاونين على الفاحشة، أو قطع الطريق، فكل واحد من الشخصين لهواه الذي استعبده واسترقه يستعبده الآخر.

- وظيفة المال وصلته بعبودية القلب:

ثم سكت الإمام قليلا لعل سائلا يسأل أو يستوضح فيما ذكره فقلت: يا شيخنا الإمام، إذا كان هذا حال استعباد القلب في المناصب والرئاسات. فهل يكون كذلك إذا تعلق القلب المال؟ وإنا نحرص على بيان ذلك لما فيه من تعلق كبير بقلوب أهل زماننا.

قال الإمام: يا أحبائي الحضور وأعزائي القراء الكرام، إن طالب المال قد يستعبد طلب المال قلبه ويسترقه، وهذه الأمور نوعان ينبغي بيانها منها ما يحتاج العبد إليه كما يحتاج إليه من طعامه وشرابه ومسكنه ومنكحه، ونحو ذلك. فهذا يطلبه من الله ويرغب إليه فيه، فيكون المال عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه؛ بل بمنزلة الكنيف الذي يقضي فيه حاجته من غير أن يستعبده، فيكون هلوعا، إذا مسه الشر جزوعا، وإذا مسه الخير منوعا.

ومنها ما لا يحتاج العبد إليه - **لعل مراد الشيخ هنا ما لا يحتاجه العبد من مثل الكماليات فله أن يطلبها ما لم يعلق قلبه بها فتستعبده** - فهذه لا ينبغي له أن يعلق قلبها بها، فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبدا لها، وربما صار معتمدا على غير الله فلا يبقى معه حقيقة العبادة لله، ولا حقيقة التوكل عليه، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله، وشعبة من التوكل على غير الله، وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ: «**تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة**»[1] وهذا هو عبد هذه الأمور، فلو طلبها من الله فإن الله إذا أعطاه إياها رضي: وإذا منعه إياها سخط.

---

(١) سبق تخريجه .

. حقيقة حب الله:

وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضي الله؛ ويسخطه ما يسخط الله؛ ويحب ما أحبه الله ورسوله ويبغض ما أبغضه الله ورسوله؛ ويوالي أولياء الله ويعادي أعداء الله تعالى وهذا هو الذي استكمل الإيمان. كما في الحديث «**من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان**»[1] وقال: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله، والبغض في الله»[2].

وفي الصحيح عنه ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار**»[3] فهذا وافق ربه فيما يحبه وما يكرهه فكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأحب المخلوق لله لا لغرض آخر، فكان هذا من تمام حبه لله، فإن محبة محبوب المحبوب من تمام محبة المحبوب، فإذا أحب أنبياء الله وأولياء الله لأجل قيامهم بمحبوبات الحق لا لشيء آخر فقد أحبهم لله لا لغيره. وقد قال تعالى: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ**﴾[4].

ولهذا قال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ**﴾[5] فإن الرسول يأمر بما يحب الله وينهى عما يبغضه الله ويفعل ما يحبه الله ويخبر بما يحب الله التصديق به، فمن كان محبا لله لزم أن يتبع الرسول فيصدقه فيما أخبر ويطيعه فيما أمر ويتأسى به فيما فعل، ومن فعل هذا فقد فعل ما يحبه الله، فيحبه الله.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود. انظر جامع الأصول ١/٢٣٩.

(٢) رواه أحمد والطيالسي وابن أبي شيبة. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ٩٩٨.

(٣) أخرجه الشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجه. انظر جامع الأصول ١/٢٣٧، ومختصر صحيح مسلم رقم ٢٢.

(٤) سورة المائدة آية ٥٤.

(٥) سورة آل عمران آية ٣١.

ـ علامة المحبـة:

ثم انتقل الشيخ في حديثه إلى جزئية مكملة توقع أن يسأل عنها لو لم يستدركها وهي علامة المحبة.

فقال: يا أحبائي الكرام إن الله قد جعل لأهل محبته علامتين: اتباع الرسول؛ والجهاد في سبيله.

وذلك لأن الجهاد حقيقة الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح؛ ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان. وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ ـ إلى قوله ـ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾[1] فتوعد من كان أهله وماله أحب إليه من الله ورسوله والجهاد في سبيله بهذا الوعيد.

بل قد ثبت عنه في الصحيح أنه قال: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»[2]. وفي الصحيح أن عمر بن الخطاب «قال له: يا رسول الله! والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي؛ فقال: لا يا عمر! حتى أكون أحب إليك من نفسك؛ فقال: فوالله! لأنت أحب إلي من نفسي فقال الآن يا عمر»[3].

فحقيقة المحبة لا تتم إلا بموالاة المحبوب، وهو موافقته في حب ما يحب وبغض ما يبغض، والله يحب الإيمان والتقوى ويبغض الكفر والفسوق والعصيان. ومعلوم أن الحب يحرك إرادة القلب فكلما قويت المحبة في القلب طلب القلب فعل المحبوبات، فإذا كانت المحبة تامةاستلزمتإرادة جازمة في حصول المحبوبات. فإذا كان العبد قادرا عليها حصلها. وإن كان عاجزا عنها ففعل ما يقدر عليه من ذلك كان له كأجر الفاعل كما قال النبي ﷺ: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير**

---

(١) سورة التوبة آية ٢٤.

(٢) مختصر صحيح مسلم رقم ٢٣.

(٣) أخرجه البخاري.

أن ينقص من أجورهم شيئا؛ ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا»[1]. وقال: «**إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم. قالوا: وهم بالمدينة. قال: وهم بالمدينة حبسهم العذر»**[2].

والجهاد هو بذل الوسع، وهو القدرة في حصول محبوب الحق ودفع ما يكرهه الحق، فإذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد كان دليلا على ضعف محبة الله ورسوله في قلبه، ومعلوم أن المحبوبات لا تنال غالبا إلا باحتمال المكروهات، سواء كانت محبة صالحة أو فاسدة، فالمحبون للمال والرئاسة والصور لا ينالون مطالبهم إلا بضرر يلحقهم في الدنيا مع ما يصيبهم من الضرر في الدنيا والآخرة، فالمحب لله ورسوله إذا لم يحتمل ما يرى ذو الرأي من المحبين لغير الله مما يحتملون في حصول محبوبهم، دل ذلك على ضعف محبتهم لله إذا كان ما يسلكه أولئك هو الطريق الذي يشير به العقل.

ومن المعلوم أن المؤمن أشد حبا لله. كما قال تعالى: ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾[3]. نعم! قد يسلك المحب لضعف عقله وفساد تصوره طريقا لا يحصل بها المطلوب، فمثل هذه الطريق لا تحمد إذا كانت المحبة صالحة محمودة، فكيف إذا كانت المحبة فاسدة والطريق غير موصل! كما يفعله المتهورون في طلب المال والرئاسة والصور في حب أمور توجب لهم ضررا ولا تحصل لهم مطلوبا، وإنما المقصود الطرق التي يسلكها العقل لحصول مطلوبه.

- تمام العبودية لله:

ثم سكت الشيخ قليلا ليسأل أو يستوضح من يشاء من الحضور. فقلت: كأننا يا شيخنا الكريم يمكن أن نخرج من كلامكم الطيب هذا إلى أن القلب والحب متلازمان

---

(١) مختصر صحيح مسلم رقم ١٨٦٠.
(٢) أخرجه البخاري مع اختلاف يسير في اللفظ. انظر جامع الأصول ٢/٦٢٢.
(٣) سورة البقرة آية ١٦٥.

من حيث الزيادة والنقص فكلما ازداد القلب حبا لله ازداد له عبودية وخلاف ذلك صحيح.

قال الإمام: نعم هذا عين ما أردت فإنه كلما ازداد القلب حبا لله ازداد له عبودية، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبا وحرية عما سواه، والقلب فقير بالذات إلى الله من وجهين: من جهة العبادة، وهي العلة الغائية. ومن جهة الاستعانة والتوكل، وهي العلة الفاعلية، فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا يلتذ ولا يسر ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه، ومن حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة.

وهذا لا يحصل إلا بإعانة الله له، لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله، فهو دائما مفتقر إلى حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1] فإنه لو أعين على حصول ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده ولم يحصل له عبادته لله بحيث يكون هو غاية مراده ونهاية مقصوده وهو المحبوب له بالقصد الأول، وكل ما سواه إنما يحبه لأجله، لا يحب شيئا لذاته إلا الله، فمتى لم يحصل له هذا لم يكن قد حقق حقيقة «لا إله إلا الله»، ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة وكان فيه من النقص والعيب بل من الألم والحسرة والعذاب بحسب ذلك.

ولو سعى في هذا المطلوب ولم يكن مستعينا بالله متوكلا عليه مفتقرا إليه في حصوله لم يحصل له، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فهو مفتقر إلى الله من حيث هو المطلوب المحبوب المراد المعبود، ومن حيث هو المسئول المستعان به المتوكل عليه، فهو إلهه لا إله له غيره، وهو ربه ولا رب له سواه.

ولا تتم عبوديته لله إلا بهذين، فمتى كان يحب غير الله لذاته أو يلتفت إلى غير الله أنه يعينه، كان عبدا لما أحبه وعبدا لما رجاه بحسب حبه له ورجائه إياه. وإذا لم يحب لذاته إلا الله، وكلما أحب سواه فإنما أحبه له، ولم يرج قط شيئا إلا الله وإذا فعل ما

---

(١) سورة الفاتحة آية ٥.

فعل من الأسباب أو حصل ما حصل منها كان مشاهدا أن الله هو الذي خلقها وقدرها، وأن كل ما في السموات والأرض الله ربه ومليكه وخالقه وهو مفتقر إليه، كان قد حصل له من تمام عبوديته لله بحسب ما قسم له من ذلك.

- درجات العبودية لله:

قلت: يا شيخنا وإمامنا، لا شك أن الناس في هذا يتفاوتون كمن هم في مضمار سباق. فهل يمكن معرفة درجات الناس في ذلك؟

قال الإمام: الناس في هذا على درجات متفاوتة لا يحصى طرفيها إلا الله.

فأكمل الخلق وأفضلهم وأعلاهم وأقربهم إلى الله وأقواهم وأهداهم أتمهم عبودية لله من هذا الوجه.

وهذا هو حقيقة دين الإسلام الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه وهو أن يستسلم العبد لله لا لغيره، فالمستسلم له ولغيره مشرك، والممتنع عن الاستسلام له مستكبر، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ «**إن الجنة لا يدخلها من في قلبه مثقال ذرة من كبر كما أن النار لا يدخلها من في قلبه مثقال ذرة من إيمان**»[1] فجعل الكبر مقابلا للإيمان، فإن الكبر ينافي حقيقة العبودية، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقول الله العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحدا منهما عذبته**»[2] فالعظمة والكبرياء من خصائص الربوبية، والكبرياء أعلى من العظمة؛ ولهذا جعلها بمنزلة الرداء، كما جعل العظمة بمنزلة الإزار.

ولهذا كان شعار الصلوات والأذان والأعياد هو التكبير، وكان مستحبا في الأمكنة العالية كالصفا والمروة، وإذا علا الإنسان شرفا أو ركب دابة ونحو ذلك، وبه يطفأ الحريق وإن عظم، وعند الأذان يهرب الشيطان. قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[3].

---

(١) أخرجه مسلم (٩٣/١) ط حلبي.

(٢) رواه مسلم وأبو داود. انظر جامع الأصول ٦١٤/١٠، ومختصر صحيح مسلم رقم ١٨٨٦.

(٣) سورة غافر آية ٦٠.

وكل من استكبر عن عبادة الله لا بد أن يعبد غيره، فإن الإنسان حساس يتحرك بالإرادة. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «أصدق الأسماء حارث وهمام»[1] فالحارث الكاسب الفاعل، والهمام فعال من الهم، والهم أول الإرادة، فالإنسان له إرادة دائما، وكل إرادة فلا بد لها من مراد تنتهي إليه، فلا بد لكل عبد من مراد محبوب هو منتهى حبه وإرادته، فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه وإرادته ـ بل استكبر عن ذلك ـ فلا بد أن يكون له مراد محبوب يستعبده غير الله، فيكون عبداً لذلك المراد المحبوب: إما المال وإما الجاه وإما الصور وإما ما يتخذه إلهاً من دون الله، كالشمس والقمر والكواكب والأوثان وقبور الأنبياء والصالحين، أو من الملائكة والأنبياء الذين يتخذهم أربابا، أو غير ذلك مما عبد من دون الله.

وإذا كان عبدا لغير الله يكون مشركا، وكل مستكبر فهو مشرك ولهذا كان فرعون من أعظم الخلق استكبارا عن عبادة الله، وكان مشركا. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾[4].

---

(١) أخرجه أحمد (٤/٣٤٥) وأبو داود (٢٥٤٣ و٢٥٥٣ و٤٩٥٠) والنسائي (٦/١٨١) والبخاري في «الأدب المفرد» (٨١٤) وأبو يعلى (٧١٦٩ و٧١٧٠) من طريق محمد بن مهاجر ثني عقيل بن شبيب عن أبي وهب الجشمي به مرفوعا.
واسناده ضعيف. عقيل بن شبيب مجهول كما في «التقريب» والصواب في الحديث أنه مرسل انظر العلل لابن أبي حاتم ٣١٢/٢-٣١٣، وله شاهد مرسل أخرجه ابن وهب في الجامع (ص٧) انظر الصحيحة ٦٠٧/٢.

(٢) سورة غافر آيات ٢٣-٣٥.

(٣) سورة العنكبوت آية ٣٩.

(٤) سورة القصص آيات ٤-٤٠.

ومثل هذا في القرآن كثير. أسأل الله لي ولكم العافية. وإلى لقاء الغد إن شاء الله أحمد الله إليكم، وأصلي وأسلم على خير خلقه محمد صلوات الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

المجلس الثالث عشر

رجاء القلوب لله أمن ونجاة

- تعلق الرجاء بالله وحده
- الشرك خوف لصاحبه
- وسيلة الرجاء
- تفاوت الناس في تحقيق معنى كلمة التوحيد
- الاخلاص وقاية من النار
- الحب لله والحب مع الله
- الاشراك يكون في أعمال القلب وأقواله
- ضرورة عمل القلب بموجب تصديقه

المجلس الثالث عشر
رجاء القلوب لله أمن ونجاة

جمعنا هذا المجلس بالشيخ الإمام شيخ الإسلام قدوة الأنام، المجتهد المجاهد أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، وما يعدل مجلس الإمام مجلس عرفته في الدنياكلها،حيث يكسب جليسه العلم والأدب والتربية،ويرى ذلك ممزوجا بالتقوى والقدوة والتواضع. وأنى يجتمع ذلك لغير من جعلهم الله مصابيح الدنيا مجددي الدين من الأئمة المجتهدين؟

كان الشيخ يأخذ مجلسه ووجهه كله إشراقة وضاءة، لو لم ينطق بكلمة لنطق تاريخه، وتكلمت مواقفه الشجاعة.

وما هي إلا لحظات حتى سمع صوت الإمام يسري إلى القلوب: الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

أما بعد، فإن حديثي إليكم اليوم هو من جنس حديث الأمس، فقد حدثتكم عن إخلاص القلب، واليوم عن رجائه.

- تعلق الرجاء بالله وحده:

فأقول وبالله وحده التوفيق: ينبغي للعبد ألا يعلق رجاءه إلابالله، ولا يخاف من الله أن يظلمه؛ فإن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون؛ بل يخاف أن يجزيه بذنوبه، وهذا معنى ما روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: لا يرجُونَّ عبد إلا ربه ولا يخافنَّ إلا ذنبه.

وفي الحديث المرفوع إلى النبي ﷺ «أنه دخل على مريض فقال: كيف تجدك؟ **فقال: أرجو الله وأخاف ذنوبي. فقال: ما اجتمعا في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف»**[1].

فالرجاء ينبغي أن يتعلق بالله، ولا يتعلق بمخلوق ولا بقوة العبد ولا عمله، فإن تعليق الرجاء بغير الله إشراك، وإن كان قد جعل لذلك أسبابا فالسبب لا يستقل بنفسه، بل لا بد من معاون، ولا بد أن يمنع المعارض المعوق له، وهو لا يحصل ويبقى إلا بمشيئة الله تعالى.

ولهذا قيل: الإلتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباب نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع. ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾[2] فأمر بأن تكون الرغبة إليه وحده، وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[3] فالقلب لا يتوكل إلا على من يرجوه، فمن رجا قوته أو عمله أو علمه أو حاله أو صديقه أو قرابته أو شيخه أو ملكه أو ماله غير ناظر إلى الله كان فيه نوع توكل على ذلك السبب، وما رجا أحد مخلوقا أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه، فإنه مشرك: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[4].

- الشرك خوف لصاحبه:

قلت: يا إمامنا الكريم، أيصح أن نقول بناء على ما فهمنا لما ذكرتم: إن الشرك خيبة وخوف وظلم، وإن المشرك ظالم لنفسه، خائب في ظنه، خائف قلبه من خصمه إذا كان مؤمنا؟

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه. وإسناده حسن. انظر جامع الأصول ٤/٩.
(٢) سورة الشرح آية ٧، ٨.
(٣) سورة المائدة آية ٢٣.
(٤) سورة الحج آية ٣١.

قال الإمام: نعم يا أحبائي وأعزائي، هذا استنتاج صحيح فإن المشرك يخاف المخلوقين، ويرجوهم، فيحصل له رعب كما قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾[1] والخالص من الشرك يحصل له الأمن كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[2] وقد فسر النبي ﷺ الظلم هنا بالشرك. ففي الصحيح عن ابن مسعود «أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال النبي ﷺ: إنما هذا الشرك. ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح: (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)»[3].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾[4] وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾[5] ولهذا يذكر الله الأسباب، ويأمر بألا يعتمد عليها، ولا يرجى إلا الله، قال تعالى لما أنزل الملائكة: ﴿وما جعله الله إلا بشرى لكم، ولتطمئن قلوبكم به، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾[6] وقال: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[7].

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥١.
(٢) سورة الأنعام آية ٨٢.
(٣) أخرجه مسلم. انظر مختصر صحيح مسلم رقم ٢١٣٦.
(٤) سورة البقرة آية ١٦٥، ١٦٧.
(٥) سورة الاسراء آية ٥٦، ٥٧.
(٦) سورة آل عمران آية ١٢٦.
(٧) سورة آل عمران آية ١٦٠.

ـ وسيلة الرجاء:

ولما كان رجاء القلب لا يكون إلا لله ناسب أن نسأل شيخنا عن وسيلة حصول الرجاء في القلب.

قال الإمام: وسيلة الرجاء الدعاء. والدعاء نوعان: دعاء عبادة ودعاء مسألة، وكلاهما لا يصلح إلا لله، فمن جعل مع الله إلها آخر قعد مذموما مخذولا، والراجي سائل طالب فلا يصلح أن يرجو إلا الله، ولا يسأل غيره؛ ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ما أتاك من هذا المال وأنت غير سائل ولا مشرف فخذه، وما لا فلا تتبعه نفسك»[1]. فالمشرف الذي يستشرف بقلبه، والسائل الذي يسأل بلسانه، وفي الحديث الذي في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري «قال: أصابتنا فاقة فجئت رسول الله ﷺ لأسأله فوجدته يخطب الناس وهو يقول: «أيها الناس، والله مهما يكن عندنا من خير فلن ندخره عنكم، وإنه من يستغن يغنه الله، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر»[2].

و «الاستغناء» ألا يرجو بقلبه أحدا فيستشرف إليه. و «الاستعفاف» ألا يسأل بلسانه أحدا؛ ولهذا لما سئل أحمد بن حنبل عن التوكل فقال: قطع الاستشراف إلى الخلق؛ أي لا يكون في قلبك أن أحدا يأتيك بشيء. فقيل له: فما الحجة في ذلك؟ فقال: قول الخليل لما قال له جبرائيل هل لك من حاجة؟ فقال: «أما إليك فلا».

فهذا وما يشبهه مما يبين أن العبد في طلب ما ينفعه ودفع ما يضره لا يوجه قلبه إلا إلى الله؛ فلهذا قال المكروب: (لا إله إلا أنت). ومثل هذا ما في الصحيحين عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقول: عند الكرب «**لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم**»[3] فإن هذه الكلمات فيها تحقيق التوحيد، وتأله العبد ربه، وتعلق رجائه به وحده لا شريك له، وهي لفظ خبر يتضمن الطلب.

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) مختصر صحيح مسلم رقم ٥٥٥ مع بعض الاختلاف في اللفظ.

(٣) مختصر صحيح مسلم رقم ١٨٨٦.

ـ تفاوت الناس في تحقيق معنى كلمة التوحيد:

قلت: إذا أذن إمامنا وتكرم أن يبين لنا: هل الناس يتساوون في تحقيق معنى وحقيقة هذه الكلمة العظيمة «لا إله إلا الله»؟.

قال الإمام: الناس وإن كانوا يقولون بألسنتهم: لا إله إلا الله، فقول العبد لها مخلصا من قلبه له حقيقة أخرى، وبحسب تحقيق التوحيد تكمل طاعة الله. قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1] فمن جعل ما يأله هو ما يهواه فقد اتخذ إلهه هواه، أي جعل معبوده هو ما يهواه، وهذا حال المشركين الذين يعبد أحدهم ما يستحسنه فهم يتخذون أندادا من دون الله يحبونهم كحب الله، ولهذا قال الخليل: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾[2].

فإن قومه لم يكونوا منكرين للصانع، ولكن كان أحدهم يعبد ما يستحسنه ويظنه نافعا له كالشمس والقمر والكواكب، والخليل بين أن الآفل يغيب عن عابده وتحجبه عنه الحواجب فلا يرى عابده ولا يسمع كلامه ولا يعلم حاله ولا ينفعه ولا يضره بسبب ولا غيره، فأي وجه لعبادة من يأفل؟!

ـ الاخلاص وقاية من النار:

ولما كان الناس على مر العصور في زمن الشيخ وقبله وبعده وفي زماننا كثير منهم جعل إلهه هواه واستحكم في قلبه، كان من المفيد بل من الضروري أن يبين الشيخ كيفية إخراج هذا الهوى من القلب ليكون هوى المرء تبعا لما يريد الله تعالى ورسوله صلوات الله وسلامه عليه.

قال الإمام: ثم اعلموا وفقكم الله أنه كلما حقق العبد الإخلاص في قوله: لا إله إلا

---

(١) سورة الفرقان آية ٤٣، ٤٤.

(٢) سورة الأنعام آية ٧٦.

الله خرج من قلبه تأله ما يهواه، وتصرف عنه المعاصي والذنوب، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[1]. فعلل صرف السوء والفحشاء عنه بأنه من عباد الله المخلصين، وهؤلاء هم الذين قال فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[2] وقال الشيطان: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[3]. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **«من قال لا إله إلا الله مخلصا من قلبه حرمه الله على النار»**[4].

فإن الإخلاص ينفي أسباب دخول النار؛ فمن دخل النار من القائلين لا إله إلا الله لم يحقق إخلاصها المحرم له على النار؛ بل كان في قلبه نوع من الشرك الذي أوقعه فيها أدخله النار، والشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل؛ ولهذا كان العبد مأمورا في كل صلاة أن يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[5]. والشيطان يأمر بالشرك والنفس تطيعه في ذلك، فلا تزال النفس تلتفت إلى غير الله. إما خوفا منه. وإما رجاء له، فلا يزال العبد مفتقرا إلى تخليص توحيده من شوائب الشرك. وفي الحديث الذي رواه ابن أبي عاصم وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: **«يقول الشيطان: أهلكت الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء، فهم يذنبون ولا يستغفرون، لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا»**.

فصاحب الهوى الذي اتبع هواه بغير هدى من الله له نصيب ممن اتخذ إلهه هواه، فصار فيه شرك منعه من الاستغفار. وأما من حقق التوحيد والاستغفار فلا بد أن يرفع عنه الشر؛ فلهذا قال ذو النون: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[6].

---

(١) سورة يوسف آية ٢٤.
(٢) سورة الحجر آية ٤٢.
(٣) سورة ص آية ٨٢، ٨٣.
(٤) لم أجده بهذه الألفاظ وإن كانت هناك أحاديث كثيرة تدل على معناه.
(٥) سورة الفاتحة آية ٥.
(٦) سورة الأنبياء آية ٨٧.

ولهذا يقرن الله بين التوحيد والاستغفار في غير موضع. كقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[1] وقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾[2] وقوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾[3]. وقوله: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾[4].

وخاتمة المجلس: «**سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك**»[5] إن كان مجلس رحمة كانت كالطابع عليه، وإن كان مجلس لغو كانت كفارة له، وقد روي أيضا أنها تقال في آخر الوضوء بعد أن يقال: «**أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين**»[6].

ثم عاد الشيخ لتأكيد المعنى السابق في تفاوت الناس في قول «لا إله إلا الله»..

فقال: إن المسلمين وإن اشتركوا في الإقرار بها، فهم متفاضلون في تحقيقها تفاضلا لا نقدر أن نضبطه، حتى إن كثيرا منهم يظنون أن التوحيد المفروض هو الإقرار والتصديق بأن الله خالق كل شيء وربه، ولا يميزون بين الإقرار بتوحيد الربوبية الذي أقر به مشركو العرب، وبين توحيد الإلهية الذي دعاهم إليه رسول الله ﷺ، ولا يجمعون بين التوحيد القولي والعملي.

فإن المشركين ما كانوا يقولون: إن العالم خلقه اثنان، ولا أن مع الله ربا ينفرد دونه بخلق شيء؛ بل كانوا كما قال الله عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[7] وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[8]

---

(١) سورة محمد آية ١٩.
(٢) سورة هـود آية ٢، ٣.
(٣) سورة هـود آية ٥٠، ٥١.
(٤) سورة فصلت آية ٦.
(٥) صحيح الجامع الصغير (٤٣٦٣).
(٦) الأذكار للنووي ٢٩ طبع الهدى الوطنية ـ مصر.
(٧) سورة لقمان آية ٢٥.
(٨) سورة يوسف آية ١٠٦.

وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾[1].

وكانوا مع إقرارهم بأن الله هو الخالق وحده يجعلون معه آلهة أخرى، يجعلونهم شفعاء لهم إليه. ويقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى. ويحبونهم كحب الله.

والإشراك في الحب والعبادة والدعاء والسؤال غير الإشراك في الاعتقاد والإقرار، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[2] فمن أحب مخلوقا كما يحب الخالق فهو مشرك به، قد اتخذ من دون الله أندادا يحبهم كحب الله. وإن كان مقرا بأن الله خالقه.

ـ الحب لله والحب مع الله:

ثم سكت الشيخ الإمام قليلا ليترك فرصة للاستيضاح أو الإستغفار، فلما لم يسأل قال: أود يا أحبائي أن أضيف هاهنا لطيفة لا أظنها تغيب عن أذهانكم.

إن هناك فرقا بين من أحب شخصا لله أو مع الله. فقد فرق الله ورسوله بين من أحب مخلوقا لله، وبين من أحب مخلوقا مع الله، فالأول يكون الله هو محبوبه ومعبوده الذي هو منتهى حبه وعبادته لا يحب معه غيره؛ لكنه لما علم أن الله يحب أنبياءه وعباده الصالحين أحبهم لأجله، وكذلك لما علم أن الله يحب فعل المأمور وترك المحظور أحب ذلك، فكان حبه لما يحبه تابعا لمحبة الله وفرعا عليه وداخلا فيه.

بخلاف من أحب مع الله فجعله ندا لله يرجوه ويخافه، أو يطيعه من غير

---

(١) سورة المؤمنون آيات ٨٤-٨٩.

(٢) سورة البقرة آية ١٦٥.

أن يعلم أن طاعته طاعة لله، ويتخذه شفيعا له من غير أن يعلم أن الله يأذن له أن يشفع فيه قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2] وقد قال عدي بن حاتم للنبي ﷺ: «ما عبدوهم، قال: احلوا لهم الحرام فأطاعوهم، وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم، فكانت تلك عبادتهم إياهم»[3] قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾[4] وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾[5].

فالرسول وجبت طاعته؛ لأنه من يطع الرسول فقد أطاع الله، فالحلال ما حلله، والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه، ومن سوى الرسول من العلماء والمشايخ والأمراء والملوك إنما تجب طاعتهم إذا كانت طاعتهم طاعة لله، وهم إذا أمر الله ورسوله بطاعتهم فطاعتهم داخلة في طاعة الرسول، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[6].

ثم إن كثيرا من الناس يحب خليفة أو عالما أو شيخا أو أميرا فيجعله ندا لله، وإن كان قد يقول: إنه يحبه لله.

---

(١) سورة يونس آية ١٨.

(٢) سورة التوبة آية ٣١.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥) والطبراني في «الكبير» (١٧/٩٢) وابن جرير في «تفسيره» (١٠/١١٤) من طريق عبدالسلام بن حرب عن غطيف بن أعين عن مصعب بن سعد عن عدي بن حاتم به. قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبدالسلام بن حرب، وغطيف ابن أعين ليس بمعروف في الحديث.

(٤) سورة الشورى آية ٢١.

(٥) سورة الفرقان آيات ٢٧-٢٩.

(٦) سورة النساء آية ٥٩.

فمن جعل غير الرسول تجب طاعته في كل ما يأمر به وينهى عنه وإن خالف أمر الله ورسوله فقد جعله ندا، وربما صنع به كما تصنع النصارى بالمسيح، ويدعوه ويستغيث به، ويوالي أولياءه، ويعادي أعداءه مع إيجابه طاعته في كل ما يأمر به وينهى عنه ويحلله ويحرمه، ويقيمه مقام الله ورسوله فهذا من الشرك الذي يدخل أصحابه في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[1].

- الاشراك يكون في أقوال القلب وأعماله:

قلت: نفهم من كلام إمامنا أن التوحيد والإشراك يكون في قول القلب وعمله.

قال الإمام: نعم يا أعزائي هذا عين الصواب وهو ما أريد أن يرسخ عندكم فإن التوحيد والإشراك يكون في أقوال القلب، ويكون في أعمال القلب ولهذا قال الجنيد: التوحيد قول القلب، والتوكل عمل القلب. أراد بذلك التوحيد الذي هو التصديق، فإنه لما قرنه بالتوكل جعله أصله، وإذا أفرد لفظ التوحيد فهو يتضمن قول القلب وعمله، والتوكل من تمام التوحيد.

- ضرورة عمل القلب بموجب تصديقه:

ولما أنهى الإمام استيفاء هذه الجزئية ناسب أن نسأله عن علم واقرار القلب بالحق والإيمان إذا لم يقترن به عمل أيكون كافيا، أم أنه لا ينفك عنه كما لم ينفك القول عن العمل؟

قال الإمام: هذا سؤال في محله ويدل على أنكم تفهمون وتستوعبون ما أقول فالحمد لله.

اسمعوا يا أحبائي وأعزائي القراءالكرام، إن لفظ الإيمان مأخوذ من الأمن، كما أن الإقرار مأخوذ من قر، فالمؤمن صاحب أمن، كما أن المقر صاحب إقرار، فلا بد في

---

(١) سورة البقرة آية ١٦٥.

ذلك من عمل القلب بموجب تصديقه، فإذا كان عالمابأن محمداًرسول الله ولم يقترن بذلك حبه وتعظيمه بل كان يبغضه ويحسده ويستكبر عن اتباعه فإن هذا ليس بمؤمن به بل كافر به.

ومن هذا الباب كفر إبليس وفرعون وأهل الكتاب الذين يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وغير هؤلاء، فإن إبليس لم يكذب خبرا ولا مخبرا بل استكبر عن أمر ربه. وفرعون وقومه قال الله فيهم: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[1] وقال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾[3].

فمجرد علم القلب بالحق إن لم يقترن به عمل القلب بموجب علمه مثل محبة القلب له واتباع القلب له لم ينفع صاحبه، بل أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه، وقد كان النبي ﷺ يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ونفس لا تشبع، ودعاء لا يسمع، وقلب لا يخشع**»[4].

ولكن الجهمية ظنوا أن مجرد علم القلب وتصديقه هو الإيمان، وأن من دل الشرع على أنه ليس بمؤمن فإن ذلك يدل على عدم علم قلبه، وهذا من أعظم الجهل شرعا وعقلا. وحقيقته توجب التسوية بين المؤمن والكافر؛ ولهذا أطلق وكيع بن الجراح[5] وأحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة كفرهم بذلك، فإنه من المعلوم أن الإنسان يكون عالما بالحق ويبغضه لغرض آخر، فليس كل من كان مستكبرا عن الحق يكون غير عالم

---

(١) سورة النمل آية ١٤.

(٢) سورة الإسراء آية ١٠٢.

(٣) سورة البقرة آية ١٤٦.

(٤) أخرجه الترمذي والنسائي، وإسناده صحيح. انظر جامع الأصول ٤/٣٥٥.

(٥) وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسي. حافظ للحديث. كان محدث العراق في عصره، أراد الرشيد أن يوليه قضاء الكوفة فامتنع ورعا، له كتب في التفسير والسنة والتاريخ توفى سنة ١٨٧هـ الأعلام ٩/١٣٥.

به، وحينئذ فالإيمان لا بد فيه من تصديق القلب وعمله، وهذا معنى قول السلف: الإيمان قول وعمل.

ثم إنه إذا تحقق القلب بالتصديق والمحبة التامة المتضمنة للإرادة لزم وجود الأفعال الظاهرة، فإن الإرادة الجازمة إذا اقترنت بها القدرة التامة لزم وجود المراد قطعا، وإنما ينتفي وجود الفعل لعدم كمال القدرة، أو لعدم كمال الإرادة، وإلا فمع كمالها يجب وجود الفعل الاختياري، فإذا أقر القلب إقرارا تاما بأن محمدا رسول الله، وأحبه محبة تامة، امتنع مع ذلك ألا يتكلم بالشهادتين مع قدرته على ذلك، لكن إن كان عاجزا لخرس ونحوه أو لخوف ونحوه لم يكن قادرا على النطق بهما.

و «أبو طالب» وإن كان عالما بأن محمدا رسول الله وهو محب له فلم تكن محبته له لمحبته لله، بل كان يحبه لأنه ابن أخيه فيحبه للقرابة، وإذا أحب ظهوره فلما يحصل له بذلك من الشرف والرئاسة، فأصل محبوبه هو الرئاسة؛ فلهذا لما عرض عليه الشهادتين عند الموت رأى أن بالإقرار بهما زوال دينه الذي يحبه، فكان دينه أحب إليه من ابن أخيه فلم يقر بهما ـ فلو كان يحبه لأنه رسول الله كما كان يحبه أبو بكر الذي قال الله فيه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾[1] وكما كان يحبه سائر المؤمنين به، كعمر وعثمان وعلي وغيرهم لنطق بالشهادتين قطعا ـ فكان حبه حبا مع الله لا حبا لله، ولهذا لم يقبل الله ما فعله من نصر الرسول ومؤازرته لأنه لم يعمله لله، والله لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه، بخلاف الذي فعل ما فعل ابتغاء وجه ربه الأعلى.

وهذا ما يحقق أن «الإيمان، والتوحيد» لا بد فيهما من عمل القلب، كحب القلب، فلا بد من إخلاص الدين لله، والدين لا يكون دينا إلا بعمل؛ فإن الدين يتضمن الطاعة والعبادة، وقد أنزل الله عز وجل سورتي الإخلاص: ﴿قل يأيها الكافرون﴾ ﴿وقل هو الله أحد﴾. إحداهما في توحيد القول والعلم والثانية في توحيد العمل والإرادة؛ فقال في الأول: ﴿قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد، ولم يولد،

---

(١) سورة الليل آيات ١٧ـ٢١.

ولم يكن له كفوا أحد﴾ فأمره أن يقول هذا التوحيد وقال في الثاني : ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾[1] فأمره أن يقول ما يوجب البراءة من عبادة غير الله وإخلاص العبادة لله .

وإلى هنا أنهى الشيخ مجلسه بالحمد والثناء على الله تبارك وتعالى، والصلاة على نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه ودعا الله أن يجمعه معنا في المجلس القادم فإن عنده من أخبار القلوب ما يهمنا .

(١) سورة الكافرون .

المجلس الرابع عشر

حياة القلب بالاخلاص والفناء

- لذة الاخلاص وثمرته
- أئمة الهدى وأئمة الضلال
- صلة الاخلاص بالفناء وأنواعه
- توضيح لبعض معاني الصوفية

المجلس الرابع عشر
حياة القلب بالاخلاص والفناء

كنا على موعد مع شيخ الإسلام أن يحدثنا في مجلس اليوم عن موضوع هام، هو حياة القلب ولبه ومخه . . الإخلاص حقيقته وأهميته وصلته بالعبودية والمحبة.

ولما أخذ الشيخ الإمام مقعده مشرفا على الحضور، يراه الحاضرون على كثرتهم وسعة الحلقة، وبعد إطراقة يسيرة قليلة من الشيخ، لعله يدعو الله فيها أن يسدد لسانه، ويجعل قوله وعمله خالصا لوجهه الكريم. قال الإمام: الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

أما بعد، فيأيها الأحباب الحضور والقراء الأعزاء، أحييكم بتحية الإسلام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وأحمد الله أن جمعني وإياكم وألف بين قلوبنا. . كنت قد وعدتكم أن أحدث قلوبكم عن موضوع هو نمير حياتها، وغذائها الذي بدونه تجف وتموت، أحدثكم عن الإخلاص.

فأقول وبالله وحده التوفيق:

. لذة الاخلاص وثمرته:

اعلموا وفقكم الله أن القلب إذا ذاق حلاوة عبوديته لله ومحبته له لم يكن شيء أحب إليه من ذلك حتى يقدمه عليه، وبذلك يصرف عن أهل الإخلاص لله السوء والفحشـاء، كما قال تعالى: ﴿ **كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ** ﴾[1] .

---

(١) سورة يوسف آية ٢٤.

فإن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه عن عبوديته لغيره، ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه عن محبة غيره ، إذ ليس عند القلب أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا ألين ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله، ومحبته له. وإخلاصه الدين له، وذلك يقتضي انجذاب القلب إلى الله فيصير القلب منيبا إلى الله،خائفا منه، راغبا راهبا،كما قال تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾[1] إذ المحب يخاف من زوال مطلوبه وحصول مرغوبه، فلا يكون عبد الله ومحبه إلا بين خوف ورجاء؛ قال تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾[2] .

وإذا كان العبد مخلصا له اجتباه ربه فيحيي قلبه، واجتذبه إليه فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء، ويخاف من حصول ضد ذلك؛ بخلاف القلب الذي لم يخلص لله، فإنه في طلب وإرادة وحب مطلق، فيهوى ما يسنح له ويتشبث بما يهواه، كالغصن أي نسيم مر بعطفه أماله. فتارة تجتذبه الصور المحرمة وغير المحرمة؛ فيبقى أسيرا عبدا لمن لو اتخذه هو عبدا له لكان ذلك عيبا ونقصا وذما. وتارة يجتذبه الشرف والرئاسة فترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة ويستعبده من يثني عليه ولو بالباطل، ويعادي من يذمه ولو بالحق. وتارة يستعبده الدرهم والدينار، وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب، والقلوب تهواها فيتخذ إلهه هواه ويتبع هواه بغير هدى من الله.

ومن لم يكن خالصا لله، عبدا له قد صار قلبه معبدا لربه وحده لا شريك له، بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه، ويكون ذليلا له خاضعا، استعبدته الكائنات، واستولت على قلبه الشياطين، وكان من الغاوين إخوان الشياطين، وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه إلا الله، وهذا أمر ضروري لا حيلة فيه؛ فالقلب إن لم يكن حنيفا مقبلا على الله، معرضا عما سواه كان مشركا. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ

---

(١) سورة ق آية ٣٣.

(٢) سورة الإسراء آية ٥٧.

وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[1].

ـ أئمة الهدى وأئمة الضلال:

وقد جعل الله سبحانه إبراهيم وآل إبراهيم أئمة لهؤلاء الحنفاء المخلصين، أهل محبة الله وعبادته وإخلاص الدين له؛ كما جعل فرعون وآل فرعون أئمة المشركين المتبعين أهواءهم. قال تعالى في إبراهيم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾[2]. وقال في فرعون وقومه: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾[3].

ولهذا يصير اتباع فرعون أولا إلى ألا يميزوا بين ما يحبه الله ويرضاه. وبين ما قدر الله وقضاه؛ بل ينظرون إلى المشيئة المطلقة الشاملة. ثم في آخر الأمر لايميزون بين الخالق والمخلوق، بل يجعلون وجود هذا وجود هذا، ويقول محققوهم: الشريعة فيها طاعة ومعصية. والحقيقة فيها معصية بلا طاعة؛ والتحقيق ليس فيه طاعة ولا معصية، وهذا تحقيق مذهب فرعون وقومه الذين أنكروا الخالق وأنكروا تكليمه لعبده موسى وما أرسله به من الأمر والنهي.

وأما إبراهيم وآل إبراهيم الحنفاء والأنبياء فهم يعلمون أنه لا بد من الفرق بين الخالق والمخلوق، ولا بد من الفرق بين الطاعة والمعصية. وأن العبد كلما ازداد تحقيقا ازدادت محبته لله وعبوديته له وطاعته له وإعراضه عن عبادة غيره ومحبة غيره وطاعة غيره. وهؤلاء المشركون الضالون يسوون بين الله وبين خلقه. والخليل يقول: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا

---

(١) سورة الروم آيات ٣٠: ٣٢.

(٢) سورة الأنبياء آية ٧٢، ٧٣.

(٣) سورة القصص آية ٤١، ٤٢.

﴿كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] ويتمسكون بالمتشابه من كلام المشايخ كما فعلت النصارى.

صلة الاخلاص بالفناء وأنواعه:

قلت: يا إمامنا نقرأ في كتب الأقدمين ممن هم في عصركم وقبله خاصة من الصوفية ما يسمونه بالفنـاء ويعنون به أن القلب إذا أخلص حبه لله إخلاصاً تاما فإنه يصل إلى درجة الفناء وقد شطح بعضهم وبالغ. فما هو العدل والانصاف ومتى يصبح الفناء انحرافا؟

قال الإمام: هذا موضوع متشعب قد يطول، ولكني ألخصه وأجمع لكم أطرافه فأقول وبالله التوفيق: الفناء ثلاثة أنواع: نوع للكاملين من الأنبياء والأولياء؛ ونوع للقاصدين من الأولياء والصالحين؛ ونوع للمنافقين الملحدين المشبهين.

فأما الأول: فهو الفناء عن إرادة ما سوى الله، بحيث لا يحب إلا الله. ولا يعبد إلا إياه ولا يتوكل إلا عليه، ولا يطلب غيره؛ وهو المعنى الذي يجب أن يقصد بقول الشيخ أبي يزيد[2] حيث قال: أريد ألا أريد إلا ما يريد. أي المراد المحبوب المرضي؛ وهو المراد بالإرادة الدينية وكمال العبد ألا يريد ولا يحب ولا يرضى إلا ما أراده الله ورضيه وأحبه، وهو ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب؛ ولا يحب إلا ما يحبه الله كالملائكة والأنبياء والصالحين. وهذا معنى قولهم في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[3]. قالوا: هو السليم مما سوى الله، أو مما سوى عبادة الله. أو مما سوى إرادة الله. أو مما سوى محبة الله، فالمعنى واحد وهذا المعنى إن سمي فناء أو لم يسم هو أول الإسلام وآخره. وباطن الدين وظاهره.

---

(١) سورة الشعراء آيات ٧٥: ٧٧.

(٢) أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي. زاهد مشهور له أخبار كثيرة. أصله من بسطام (بين العراق وخراسان) ووفاته فيها فنسب إليها. ويعرف أتباعه بالطيفورية أو البسطامية. الأعلام ٣٣٩/٣ط٣.

(٣) سورة الشعراء آية ٨٩.

والنوع الثاني: فهو الفناء عن شهود السوى. وهذا يحصل لكثير من السالكين؛ فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته، وضعف قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد وترى غير ما تقصد؛ لا يخطر بقلوبهم غير الله؛ بل ولا يشعرون؛ كما قيل في قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾[1] قالوا: فارغا من كل شيء إلا من ذكر موسى. وهذا كثير يعرض لمن فقمه أمر (أي عظم عليه) من الأمور إما حب وإما خوف. وإما رجاء يبقى قلبه منصرفا عن كل شيء إلا عما قد أحبه أو خافه أو طلبه؛ بحيث يكون عند استغراقه في ذلك لا يشعر بغيره.

فإذا قوى على صاحب الفناء هذا يغيب بموجوده عن وجوده، وبمشهوده عن شهوده، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن معرفته، حتى يفنى من لم يكن وهي المخلوقات المعبدة ممن سواه، ويبقى من لم يزل وهو الرب تعالى. والمراد فناؤها في شهود العبد وذكره، وفناؤه عن أن يدركها أو يشهدها. وإذا قوي هذا ضعف المحب حتى اضطرب في تمييزه، فقد يظن أنه هو محبوبه، كما يذكر: أن رجلا ألقى نفسه في اليم فألقى محبه نفسه خلفه، فقال: أنا وقعت فما أوقعك خلفي؟ قال: غبت بك عني، فظننت أنك أني.

قلت: وهل هذا ما يسمونه اتحادا أي بين المحبوب والمحب حتى كأنهما واحد؟

قال الإمام: نعم يا أحبائي هذا الذي زل فيه أقوام وظنوا أنه اتحاد، وأن المحب يتحد بالمحبوب حتى لا يكون بينهما فرق في نفس وجودهما، وهذا غلط؛ فإن الخالق لا يتحد به شيء أصلا، بل لا يتحد شيء بشيء إلا إذا استحالا وفسدا وحصل من اتحادهما أمر ثالث لا هو هذا ولا هذا، كما إذا اتحد الماء واللبن، والماء والخمر، ونحو ذلك. ولكن يتحد المراد والمحبوب والمكروه ويتفقان في نوع الإرادة والكراهة، فيحب هذا ما يحب هذا. ويبغض هذا ما يبغض هذا، ويرضى ما يرضى ويسخط ما يسخط ويكره ما يكره، ويوالي من يوالي ويعادي من يعادي وهذا الفناء كله فيه نقص.

---

(١) سورة القصص آية ١٠.

ثم سكت الشيخ متحسرا على هؤلاء الذين خلطوا وغلطوا في الفهم، فقلت مسليا: يا إمامنا لو كان ما ادعوه فيه مسكة من حق أو صدق لكان ذلك حال خير الخلق بعد رسول الله ﷺ وهم صحابته الكرام.

قال الإمام: هذا جواب صحيح وأزيدكم في البيان، فإن أكابر الأولياء كأبي بكر وعمر والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لم يقعوا في هذا الفناء، فضلا عمن هو فوقهم من الأنبياء وإنما وقع شيء من هذا بعد الصحابة. وكذلك كل ما كان من هذا النمط مما فيه غيبة العقل والتمييز لما يرد على القلب من أحوال الإيمان؛ فإن الصحابة رضي الله عنهم كانوا أكمل وأقوى وأثبت في الأحوال الإيمانية من أن تغيب عقولهم، أو يحصل لهم غشي أو صعق أو سكر أو فناء أو وله أو جنون، وإنما كان مبادىء هذه الأمور في التابعين من عباد البصرة. فإنه كان فيهم من يغشى عليه إذا سمع القرآن. ومنهم من يموت. كأبي جهير الضرير، وزرارة بن أوفى[1] قاضي البصرة.

وكذلك صار في شيوخ الصوفية من يعرض له من الفناء والسكر ما يضعف معه تمييزه، حتى يقول في تلك الحال من الأقوال ما إذا صحا عرف أنه غالط فيه، كما يحكى نحو ذلك عن مثل أبي يزيد[2] وأبي الحسين النوري[3] وأبي بكر الشبلي[4] وأمثالهم.

بخلاف أبي سليمان الداراني[5] ومعروف الكرخي[6] والفضيل بن عياض بل

---

(١) زرارة بن أوفى العامري قاضي البصرة مات سنة ٩٣هـ. انظر شذرات الذهب ١/١٠٢.

(٢) تقدمت ترجمته.

(٣) كتب في المطبوع أبو الحسن وصحتها ما ذكرناه، وهو أحمد بن محمد أبو الحسين النوري البغوي من الزهاد وشيخ الطائفة بالعراق، توفي سنة ٢٧٥هـ.
أنظر: سير أعلام النبلاء ١٤/٧٠ وتاريخ بغداد ٥/١٣٠ والبداية والنهاية ١١/١٠٦.

(٤) هو دلف بن جحدر، وقيل: جعفر بن يونس، وقيل: جعفر بن دلف، أبو بكر الشبلي شيخ الطائفة، وكان فقيها بمذهب مالك.
انظر: سير أعلام النبلاء ١٥/٣٦٧ وطبقات الصوفية ٣٣٧ وتاريخ بغداد ١٤/٣٨٩ والبداية والنهاية ١١/٢١٥ والعبر ٢/٢٤٠.

(٥) هو سليمان بن حبيب المحاربي الداراني، قاض من ثقات التابعين، استمر في قضاء دمشق ثلاثين عاما توفي سنة ١٢٠هـ.
انظر: الأعلام ٣/١٨٣.

(٦) هو معروف بن فيروز الكرخي أحد أعلام الزهاد الصوفية، وكان من موالي علي الرضا بن موسى =

وبخلاف الجنيد وأمثالهم ممن كانت عقولهم وتمييزهم يصحبهم في أحوالهم فلا يقعون في مثل هذا الفناء والسكر ونحوه، بل الكُمَّلُ تكون قلوبهم ليس فيها سوى محبة الله وإرادته وعبادته، وعندهم من سعة العلم والتمييز ما يشهدون الأمور على ما هي عليه، بل يشهدون المخلوقات قائمة بأمر الله مدبرة بمشيئته بل مستجيبة له قانتة له، فيكون لهم فيها تبصرة وذكرى، ويكون ما يشهدونه من ذلك مؤيدا وممدا لما في قلوبهم من إخلاص الدين، وتجريد التوحيد له، والعبادة له وحده لاشريك له.

وهذه «الحقيقة» التي دعا إليها القرآن، وقام بها أهل تحقيق الإيمان، والكُمَّلُ من أهل العرفان. ونبينا ﷺ إمام هؤلاء وأكملهم؛ ولهذا لما عرج به إلى السموات، وعاين ما هنالك من الآيات، وأوحى إليه ما أوحى من أنواع المناجاة، أصبح فيهم وهو لم يتغير حاله، ولا ظهر عليه ذلك، بخلاف ما كان يظهر على موسى من التغشي صلى الله عليهم أجمعين.

وقبل أن ينتقل الشيخ إلى النوع الثالث قلت: لقد ذكرتم يا إمامنا الكريم بعض الأسماء المشهورة في معرض كلامكم عن الفناء ولم تذكروا رأي الشيخ عبدالقادر، وله أقوال مشهورة في ذلك.

فقال الإمام: إذا رغبتم بذلك فلا مانع أن أخصص مجلس الغد لكلام الشيخ عبدالقادر ونكمل اليوم ما بدأناه.

ثم قال الإمام: أما النوع الثالث: مما قد يسمى فناء: فهو أن يشهد أن لا موجود إلا الله، وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق، فلا فرق بين الرب والعبد فهذا فناء أهل الضلال والإلحاد الواقعين في الحلول والاتحاد.

= الكاظم، نشأ وتوفي ببغداد، اشتهر صلاحه بين الناس، قصده كثيرون من بينهم الإمام أحمد ابن حنبل، توفي سنة ٢٠٠هـ.
أنظر: الأعلام ٨/١٨٥.

ـ توضيح لبعض معاني الصوفية:

قلت: يا إمامنا إذا كان ذلك كذلك فماذا يكون معنى قول البعض من المشايخ الصالحين «ما أرى غير الله» وما إلى ذلك من عباراتهم؟

قال الإمام: المشايخ المستقيمون إذا قال أحدهم: ما أرى غير الله، أو لا أنظر إلى غير الله، ونحو ذلك فمرادهم بذلك ما أرى ربا غيره، ولا خالقا غيره ولا مدبرا غيره ولا إلها غيره ولا أنظر إلى غيره محبة له أو خوفا منه أو رجاء له، فإن العين تنظر إلى ما يتعلق به القلب، فمن أحب شيئا أو رجاه أو خافه التفت إليه، وإذا لم يكن في القلب محبة له ولا رجاء له ولا خوف منه ولا بغض له ولا غير ذلك من تعلق القلب له لم يقصد القلب أن يلتفت إليه، ولا أن ينظر إليه ولا أن يراه وإن رآه اتفاقا رؤية مجردة كان كما لو رأى حائطا ونحوه مما ليس في قلبه تعلق به.

والمشايخ الصالحون ـ رضي الله عنهم ـ يذكرون شيئا من تجريد التوحيد وتحقيق إخلاص الدين كله بحيث لا يكون العبد ملتفتا إلى غير الله، ولا ناظرا إلى ما سواه: لا حبا له، ولا خوفا منه، ولا رجاء له، بل يكون القلب فارغا من المخلوقات خاليا منها لا ينظر إليها إلا بنور الله، فبالحق يسمع وبالحق يبصر وبالحق يبطش وبالحق يمشي، فيحب منها ما يحبه الله، ويبغض منها ما يبغضه الله، ويوالي منها ما والاه الله، ويعادي منها ما عاداه الله، ويخاف الله فيها ولا يخافها في الله، ويرجو الله فيها ولا يرجوها في الله، فهذا هو القلب السليم الحنيف الموحد المسلم المؤمن العارف المحقق الموحد بمعرفة الأنبياء والمرسلين، وبحقيقتهم وتوحيدهم.

فليس مراد المشايخ والصالحين بهذا القول أن الذي أراه بعيني من المخلوقات هو رب الأرض والسموات، فإن هذا لا يقوله إلا من هو في غاية الضلال والفساد إما فساد العقل؛ وإما فساد الاعتقاد. فهو متردد بين الجنون والإلحاد.

وكل المشايخ الذين يقتدى بهم في الدين متفقون على ما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها من أن الخالق سبحانه مباين للمخلوقات، وليس في مخلوقاته شيء من ذاته ولا في شيء من مخلوقاته، وأنه يجب إفراد القديم عن الحادث؛ وتمييز الخالق عن المخلوق.

وهذا في كلامهم أكثر من أن يمكن ذكره هنا. وهم قد تكلموا على ما يعرض للقلوب من الأمراض والشبهات؛ وأن بعض الناس قد يشهد وجود المخلوقات فيظنه خالق الأرض والسموات لعدم التمييز والفرقان في قلبه؛ بمنزلة من رأي شعاع الشمس فظن أن ذلك هو الشمس التي في السماء.

قلت: وقد يشكل علينا كلام بعض الصوفية فيما يطلقون عليه «الفرق والجمع» وأظن هذا موضع بيانه.

قال الإمام: هم يتكلمون في «الفرق، والجمع» ويدخل في ذلك من العبارات الملفتة نظير ما دخل في الفناء، فإن العبد إذا شهد التفرقة والكثرة في المخلوقات يبقى قلبه متعلقا بها متشتتا، ناظرا إليها متعلقا بها: إما محبة وإما خوفا وإما رجاء؛ فإذا انتقل إلى الجمع اجتمع قلبه على توحيد الله وعبادته وحده لاشريك له فالتفت قلبه إلى الله بعد التفاته إلى المخلوقين فصارت محبتـه لربه، وخوفه من ربه، ورجاؤه لربه، واستعانته بربه، وهو في هذا الحال قد لا يسع قلبه النظر الى المخلوق ليفرق بين الخالق والمخلوق. فقد يكون مجتمعا على الحق، معرضا عن الخلق نظرا وقصدا، وهو نظير النوع الثاني من الفناء.

ولكن بعد ذلك «الفرق الثاني» وهو: أن يشهد أن المخلوقات قائمة بالله، مدبرة بأمره، ويشهد كثرتها معدومة بوحدانية الله سبحانه وتعالى، وأنه سبحانه رب المصنوعات وإلهها، وخالقها، ومالكها، فيكون مع اجتماع قلبه على الله ـ إخلاصا له ومحبة وخوفا ورجاء واستعانة وتوكلا على الله وموالاة فيه ومعاداة فيه وأمثال ذلك ـ ناظرا الى الفرق بين الخالق والمخلوق، مميزا بين هذا وهذا يشهد تفرق المخلوقات وكثرتها مع شهادته أن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه وأنه هو الله لا إله إلا هو، وهذا هو الشهود الصحيح المستقيم وذلك واجب في علم القلب وشهادته وذكره ومعرفته: في حال القلب وعبادته وقصده وإرادته ومحبته وموالاته وطاعته.

وذلك تحقيق «شهادة أن لا إله إلا الله» فإنه ينفي عن قلبه ألوهية ما سوى الحق ويثبت في قلبه ألوهية الحق فيكون نافيا لألوهية كل شيء من المخلوقات، مثبتا لألوهية

رب العالمين رب الأرض والسموات، وذلك يتضمن اجتماع القلب على الله وعلى مفارقة ما سواه، فيكون مفرقا: في علمه وقصده، في شهادته وإرادته، في معرفته ومحبته بين الخالق والمخلوق، بحيث يكون عالما بالله تعالى، ذاكرا له، عارفا به، وهو مع ذلك عالم بمباينته لخلقه، وانفراده عنهم، وتوحده دونهم، ويكون محبا لله معظما له عابدا له راجيا له، خائفا منه مواليا فيه، معاديا فيه، مستعينا به متوكلا عليه، ممتنعا عن عبادة غيره والتوكل عليه والاستعانة به، والخوف منه والرجاء له والموالاة فيه والمعاداة فيه والطاعة لأمره، وأمثال ذلك مما هو من خصائص إلهية الله سبحانه وتعالى.

وإقراره بألوهية الله تعالى دون ما سواه يتضمن إقراره بربوبيته، وهو أنه رب كل شيء ومليكه وخالقه ومدبره، فحينئذ يكون موحدا لله.

ويبين ذلك أن أفضل الذكر «لا إله إلا الله» كما رواه الترمذي وابن أبي الدنيا وغيرهما مرفوعا إلى النبي ﷺ أنه قال: «**أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله**»[1] وفي الموطأ وغيره عن طلحة بن عبدالله بن كثير أن النبي ﷺ قال: «**أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير**»[2]

وإلى هنا أتى الشيخ الإمام على ختام مجلسه فختمه بمثل ما بدأه بالحمد لله، والصلاة على رسوله صلوات الله وسلامه عليه، وقد أوفى الموضوع من جميع أطرافه، وما ترك شبهة إلا وذكرها، ولا حقا إلا أظهره فجزاه الله عنا خيرا.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٨٣) وحسنه وابن ماجه (٣٨٠٠) وابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٠٣) وصححه ابن حبان (موارد ٢٣٢٦) والحاكم (١/٤٩٨, ٥٠٣) وحسنه الألباني (صحيح الجامع ١١١٥).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ والترمذي أنظر جامع الأصول ٤/٣٢٤.

المجلس الخامس عشر

محبة القلب لله ورسوله أصل كل عمل مقبول

- الاخلاص خلاصة الدعوة النبوية
- كمال المحبة لله أصل الدين
- المحبة تستلزم إرضاء المحبوب
- الحب متبادل بين العبد وربه
- تصحيح مفهوم خاطىء

المجلس الخامس عشر
محبة القلب لله ورسوله
أصل كل عمل مقبول

اكتمل مجلس الإمام وتأهب الحضور آذانا صاغية، وقلوبا صافية، وعقولا واعية، لكل ما يصدر عن الإمام العالم الحبر العلامة الحافظ الخاشع القانت إمام الأئمة، بقية الأعلام الإمام المجتهد المجاهد سيف السنة المسلول على المبتدعين، طبيب القلوب الخبير المدقق الشيخ أحمد بن عبدالحليم بن تيمية ولما رأى الشيخ حال الحضور من الاستعداد والتشوق قال:

الحمد لله الذي بعث النبيين مبشرين ومنذرين «وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾[1] وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له كما شهد هو سبحانه وتعالى أن لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي ختم به أنبياءه. وهدى به أولياءه، وبعثه بقوله في القرآن الكريم ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[2] صلى الله عليه أفضل صلاة وأكمل تسليم.

---

(١) سورة البقرة آية ٢٣.

(٢) سورة التوبة آية ١٢٨، ١٢٩.

أمـا بعد فيأيها الحضور الكرام، حدثتكم في مجلس سابق عن الخلة والمحبة وتناولت الموضوع من أطراف وجوانب عديدة إلا أني لم أستوف الموضوع من جميع جوانبه ولما كان هذا الموضوع في تقديري أصلا من الأصول التي لا ينبغي أن تغيب عن قلوبكم ولا حياتكم ومعاشكم، أحببت أن أخصص هذا المجلس لهذا الأمر الهام. فأقول وبالله وحده التوفيق.

الاخلاص خلاصة الدعوة النبوية:

إن محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان وأكبر أصوله وأجل قواعده، بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين، كما أن التصديق أصل كل قول من أقوال الإيمان والدين، فإن كل حركة في الوجود إنما تصدر عن محبة: إما عن محبة محمودة، أو عن محبة مذمومة كما قد بسطنا لك في قاعدة المحبة. فجميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن المحبة المحمودة، وأصل المحبة المحمودة هي محبة الله سبحانه وتعالى، إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لا يكون عملا صالحا، بل جميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة الله، فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **يقول الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملا فأشرك فيه غيري فأنا منه بريء، وهو كله للذي أشرك»**[1] وثبت في الصحيح حديث الثلاثة الذين هم «أول من تسعر بهم النار: القارىء المرائي، والمجاهد المرائي، والمتصدق المرائي»[2] بل إخلاص الدين لله هو الذي لا يقبل الله سواه، فهو الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل، وأنزل به جميع الكتب، واتفق عليه أئمة أهل الإيمان، وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية، وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه.

---

(١) مختصر صحيح مسلم رقم ٢٠٨٩.
(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٨٢) من حديث أبي هريرة وقال: حسن غريب.

كمال المحبة لله أصل الدين:

فإذا كان أصل العمل الديني هو إخلاص الدين لله وحده، فالشيء المراد لنفسه هو المحبوب لذاته وهذا كمال المحبة، لكن أكثر ما جاء المطلوب مسمى باسم العبادة كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[2] وأمثال هذا. والعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته، وكمال الذل ونهايته، فالمحبوب الذي لا يعظم ولا يذل له لا يكون معبودا، والمعظم الذي لا يحب لا يكون معبودا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[3] فبين سبحانه أن المشركين الذين يتخذون من دون الله أندادا وإن كانوا يحبونهم كما يحبون الله فالذين آمنوا أشد حبا لله منهم لله ولأوثانهم، لأن المؤمنين أعلم بالله، والحب يتبع العلم، ولأن المؤمنين جعلوا جميع حبهم لله وحده، وأولئك جعلوا بعض حبهم له وأشركوا بينه وبين الأنداد في الحب، ومعلوم أن ذلك أفضل، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾[4] الآية. واسم «المحبة» فيه إطلاق وعموم، فإن المؤمن يحب الله ويحب رسله وأنبياءه وعباده المؤمنين، وإن كان ذلك من محبة الله، وإن كانت المحبة التي لله لا يستحقها غيره، فلهذا جاءت محبة الله مذكورة بما يختص به سبحانه من العبادة والإنابة إليه والتبتل له ونحو ذلك، فكل هذه الأسماء تتضمن محبة الله سبحانه وتعالى. ثم إنه كما بين أن محبته أصل الدين فقد بين أن كمال الدين بكمالها ونقصه بنقصها، فإن النبي ﷺ قال: «**رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله**»[5] فأخبر أن الجهاد ذروة سنام العمل وهو

---

(١) سورة الذاريات آية ٥٦.

(٢) سورة البقرة آية ٢١.

(٣) سورة البقرة آية ١٦٥.

(٤) سورة الزمر آية ٢٩.

(٥) أخرجه أحمد (٥/٢٣١) والترمذي (٢٦١٦).
من حديث معاذ بن جبل. قال الترمذي: حسن صحيح. وصححه الألباني (صحيح الجامع ٥٠١٢).

أعلاه وأشرفه، وقد قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ - إلى قوله - أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[1]، والنصوص في فضائل الجهاد وأهله كثيرة، وقد ثبت أنه أفضل ما تطوع به العبد.
والجهاد دليل المحبة الكاملة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾[2] الآية. وقال تعالى في صفة المحبين المحبوبين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾[3].

المحبة تستلزم إرضاء المحبوب:

فلما سكت الإمام يسترجع أنفاسه ويأذن لمن يرغب في السؤال. قلت: يا إمامنا نفهم من الآية الكريمة أن المحبة تستلزم الجهاد أو بمعنى آخر أن الإيمان يستلزم المحبة والمحبة تستلزم إرضاء الله ولو كان ببذل النفس؟

قال الإمام: هذا صحيح بل هو عين الصواب فإن المحبة مستلزمة للجهاد، ولأن المحب يحب ما يحب محبوبه ويبغض ما يبغض محبوبه، ويوالي من يوالي محبوبه ويعادي من يعاديه، ويرضى لرضاه ويغضب لغضبه، ويأمر بما يأمر به وينهى عما ينهى عنه، فهو موافق في ذلك، وهؤلاء هم الذين يرضى الرب لرضاهم ويغضب لغضبهم، إذ هم إنما يرضون لرضاه ويغضبون لما يغضب له، كما قال النبي ﷺ لأبي بكر في طائفة فيهم صهيب وبلال «**لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك. فقال لهم: يا إخوتي هل أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أبا بكر**»[4] وكان قد مر بهم أبو سفيان بن حرب فقالوا: ما أخذت السيوف مأخذها، فقال لهم أبو بكر: أتقولون هذا لسيد قريش؟ وذكر أبو بكر ذلك للنبي ﷺ فقال له ما تقدم، لأن أولئك إنما قالوا

---

(١) سورة التوبة آيات ١٩: ٢٢.
(٢) سورة التوبة آية ٢٤
(٣) سورة المائدة اية ٥٤.
(٤) مختصر صحيح مسلم/ ١٦٨٣، وانظر جامع الأصول ٨/ ٥٨١.

ذلك غضبا لله لكمال ما عندهم من الموالاة لله ورسوله والمعاداة لأعدائهما، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح فيما يروي عن ربه «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه. وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له منه»[1] فبين أنه يتردد لأن التردد تعارض إرادتين، وهو سبحانه يحب ما يحب عبده ويكره ما يكرهه، وهو يكره الموت فهو يكرهه كما قال تعالى: «وأنا أكره مساءته».

وإذا كانت المحبة أصل كل عمل ديني فالخوف والرجاء وغيرهما يستلزم المحبة ويرجع إليها، فإن الراجي الطامع إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه، والخائف يفر من الخوف لينال المحبوب، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾[2] الآية. وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾[3] ورحمته اسم جامع لكل خير، وعذابه اسم لكل شر، ودار الرحمة الخالصة هي الجنة، ودار العذاب الخالص هي النار، وأما الدنيا فدار استدراج. فالرجاء وإن تعلق بدخول الجنة فالجنة اسم جامع لكل نعيم، وأعلاه النظر إلى وجه الله كما في صحيح مسلم عن عبدالرحمن بن أبي ليلى عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ألم يثقل موازيننا ويدخلنا الجنة وينجينا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه**»[4] وهو «الزيادة». ومن هنا يتبين زوال الاشتباه في قول من قال: ما عبدتك شوقا إلى جنتك ولا خوفا من نارك، وإنما

---

(١) رواه البخاري في الرقاق باب التواضع.

(٢) سورة الإسراء آية ٥٧.

(٣) سورة البقرة آية ٢١٨.

(٤) أخرجه مسلم والترمذي. جامع الأصول ١٠/٥٨١.

عبدتك شوقا إلى رؤيتك. فإن هذا القائل ظن هو ومن تابعه أن الجنة لا يدخل في مسماها إلا الأكل والشرب واللباس والنكاح والسماع ونحو ذلك مما فيه التمتع بالمخلوقات، كما يوافق على ذلك من ينكر رؤية الله من الجهمية أو من يقر بها ويزعم أنه لا تمتع في نفس رؤية الله، كما يقوله طائفة من المتفقهة، فهؤلاء متفقون على أن مسمى الجنة والآخرة لا يدخل فيه إلا التمتع بالمخلوقات، ولهذا قال بعض من غلط من المشايخ لما سمع قوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾[1] قال: فأين من يريد الله؟ وقال آخر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[2] قال: إن كانت النفوس والأموال بالجنة فأين النظر إليه؟ وكل هذا لظنهم أن الجنة لا يدخل فيها النظر، والتحقيق أن الجنة هي الدار الجامعة لكل نعيم، وأعلى ما فيها النظر إلى وجه الله، وهو من النعيم الذي ينالونه في الجنة كما أخبرت به النصوص وكذلك أهل النار فإنهم محجوبون عن ربهم يدخلون النار، مع أن قائل هذا القول إذا كان عارفا بما يقول فإنما قصده: إنك لو لم تخلق نارا ولو لم تخلق جنة لكان يجب أن تعبد، ويجب التقرب إليك والنظر إليك، كما قال عمر رضي الله عنه «نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه»[3] أي هو لم يعصه ولو لم يخفه، فإن إجلاله وإكرامه لله يمنعه من معصيته، والراجي الخائف إذا تعلق خوفه ورجاؤه بالتعذُّب باحتجاب الرب عنه والتنعم بتجلِّيه، فمعلوم أن هذا من توابع محبته له، فالمحبة هي أوجبت محبة التجلِّي والخوف من الاحتجاب، وإن تعلق خوفه ورجاؤه بالتعذب بمخلوق والتنعم به فهذا إنما يطلب ذلك بعبادة الله المستلزم محبته لله وهي أحلى من كل محبة، ولهذا يكون اشتغال أهل الجنة بذلك أعظم من كل شيء كما في الحديث «إن أهل الجنة يلهمون التسبيح كما يلهمون النَّفَس»[4].

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٢.

(٢) سورة التوبة آية ١١١.

(٣) قال السخاوي: اشتهر في كلام الاصوليين وأصحاب المعاني وأهل العربية من حديث عمر. وذكر البهاء السيكي أنه لم يظفر به في شيء من الكتب وكذا قال جمع جم من أهل اللغة. المقاصد الحسنة ص ٤٤٩.

(٤) أخرجه مسلم. أنظر جامع الأصول ٥٢٧/١٠

وهو يبين غاية تنعمهم بذكر الله ومحبته . فالخوف من التعذب بمخلوق والرجاء له يسوقه إلى محبة الله التي هي الأصل. وهذا كله يبنى على أصل المحبة.

الحب متبادل بين العبد وربه:

قلت: يا إمامنا قد اتضح من بيانكم هذا أن المحبة تكون من المؤمنين لله تبارك وتعالى وتكون من الله تبارك وتعالى للمؤمنين فإذا كان ذلك صوابا فنطمع بمزيد بيان واستشهاد.

قال الإمام: نعم يا أحبائي وأعزائي، هذا كلام صحيح فقد نطق الكتاب والسنة بمحبة العباد المؤمنين لله كما في قوله: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ**﴾[(١)] وقوله: ﴿**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾[(٢)] وقوله: ﴿**أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ**﴾[(٣)] وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار**»[(٤)] بل محبة رسول الله ﷺ وجبت لمحبة الله كما في قوله: ﴿**أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾[(٥)] وكما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»[(٦)] وفي صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب أنه قال: «والله يا رسول الله لأنت أحب إلي من نفسي»[(٧)] وكذلك محبة صحابته وقرابته كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار**»[(٨)] وقال:

---

(١) سورة البقرة آية ١٦٥.
(٢) سورة المائدة آية ٥٤.
(٣) سورة التوبة آية ٢٤.
(٤) سبق تخريجه .
(٥) سورة التوبة آية ٢٤.
(٦) مختصر صحيح مسلم رقم ٢٣ بغير (والذي نفسي بيده).
(٧) أخرجه البخاري. أنظر جامع الأصول ٥٤٣/٨.
(٨) فتح الباري رقم ١٧ جـ ١ ص ٦٢.

«لايبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر»[1] وقال علي رضي الله عنه «إنه لعهد النبي الأمي إلي أنه لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق»[2]، وفي السنن أنه قال للعباس: «والذي نفسي بيده، لا يدخلون الجنة حتى يحبوكم لله ولقرابتي»[3] يعني بني هاشم. وقد روي حديث عن ابن عباس مرفوعا أنه قال: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني بحب الله، وأحبوا أهل بيتي لأجلي»[4].

وأما محبة الرب لعبده فقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾[5] وقال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[6] وقال: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[7] ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[8] ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[9] ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[10] ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[11] ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[12].

وأما الأعمال التي يحبها الله من الواجبات والمستحبات الظاهرة والباطنة فكثيرة معروفة، وكذلك حبه لأهلها، وهم المؤمنون أولياء الله المتقون. وهذه المحبة حق كما نطق بها الكتاب والسنة، والذي عليه سلف الأمة وأئمتها وأهل

---

(١) أخرجه مسلم. جامع الأصول ٩/١٦٢.
(٢) مختصر صحيح مسلم رقم ٣٦.
(٣) أخرجه أحمد والترمذي والحاكم عن عبدالمطلب بن ربيعة وأخرجه الحاكم عن العباس وضعفه الألباني (ضعيف الجامع ٦١٢٥).
(٤) أخرجه الترمذي. جامع الاصول ٩/١٥٤ وضعفه الألباني (ضعيف الجامع ١٧٦).
(٥) سورة النساء آية ١٢٥.
(٦) سورة المائدة آية ٥٤.
(٧) سورة البقرة آية ١٩٥.
(٨) سورة الحجرات آية ٩.
(٩) سورة التوبة آية ٤.
(١٠) سورة التوبة آية ٧.
(١١) سورة الصف آية ٤.
(١٢) سورة آل عمران آية ٧٦.

السنة والحديث وجميع مشايخ الدين وأئمة التصوف أن الله محبوب لذاته محبة حقيقية، بل هي أكمل محبة، فإنها كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[1] وكذلك هو سبحانه يحب ما يحب عباده المؤمنون، وما هو في الله محبة حقيقية.

تصحيح مفهوم خاطىء:

قلت: إن إمامنا أكرمه الله يعرض لموضوع المحبة وكأن هناك من يخالف أن تكون المحبة بين العباد وربهم.

قال الإمام: إنما أذكر هذا لأن هناك من ينكر ذلك فقد أنكر الجهمية حقيقة المحبة من الطرفين زعما منهم أن المحبة لا تكون إلا لمناسبة بين المحب والمحبوب، وأنه لا مناسبة بين القديم والمحدث توجب محبته، وقاسوا به المحبة. وكان أول من أحدث هذا في الإسلام الجعد بن درهم[2] في أوائل المائة الثانية، فضحى به خالد بن عبدالله القسري أمير العراق والمشرق بواسط، خطب الناس يوم الأضحى فقال: أيها الناس، ضحوا يقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا، ولم يكلم موسى تكليما. ثم نزل فذبحه، فكأنه قد أخذ هذا المذهب عنه الجهم بن صفوان[3] فأظهره عليه، وإليه أضيف قول الجهمية، فقتله سلم بن أحوز أمير خراسان بها، ثم نقل ذلك إلى المعتزلة أتباع عمرو بن عبيد[4]، وأظهر قولهم في زمن الخليفة المأمون، حتى امتحن أئمة الإسلام ودعوا إلى الموافقة لهم عن ذلك. وأصل هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة من البراهمة والمتفلسفة ومبتدعة أهل الكتاب الذين

---

(١) سورة البقرة آية ١٦٥.

(٢) الجعد بن درهم من الموالي ، مبتدع له أخبار في الزندقة زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا، ولم يكلم موسى تكليما. جيء به إلى خالد القسري في العراق فقتله سنة ١١٨هـ. الأعلام ٢/١٢٠ ص٤.

(٣) جهم بن صفوان السمرقندي، رأس الجهمية قال الذهبي: الضال المبتدع هلك في زمان صغار التابعين قبض عليه نصر بن سيار وقتله سنة ١٢٨هـ الأعلام ٢/١٤١ ص ٤.

(٤) عمرو بن عبيد بن باب، شيخ المعتزلة في عصره، وأحد الزهاد المشهورين، عمل أبوه ـ حينا ـ شرطيا للحجاج في البصرة، واشتهر عمرو بعلمه وزهده، وله مع المنصور أخبار، ومن العلماء من يراه مبتدعا مات سنة ١٤٤هـ.

يزعمون أن الرب ليس له صفات ثبوتية أصلا، وهؤلاء هم أعداء إبراهيم الخليل عليه السلام، وهم يعبدون الكواكب ويبنون الهياكل للعقول والنجوم وغيرهما، وهم ينكرون في الحقيقة أن يكون إبراهيم خليلا وموسى كليما وأن الخلة هي كمال المحبة المستغرقة للحب كما قيل:

قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سمي الخليل خليلا

ويشهد لهذا ما ثبت في الصحيح عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: **«لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن صاحبكم خليل الله»**[1] يعني نفسه. وفي رواية **«إني أبرأ إلى كل خليل من خلته، ولو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا»**[2] وفي رواية «إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا»[3] فبين صلى الله عليه وسلم أنه لا يصلح له أن يتخذ من المخلوقين خليلا وأنه لو يكون ذلك لكان أحق الناس بها أبو بكر الصديق رضي الله عنه، مع أنه صلى الله عليه وسلم قد وصف نفسه بأنه يحب أشخاصا كما قال لمعاذ: **«والله إني لأحبك»**[4] **وكذلك قوله للأنصار، وكان زيد بن حارثة حب رسول الله ﷺ وكذلك ابنه أسامة حبه وأمثال ذلك. وقال له عمرو بن العاص «أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة. قال: فمن الرجال؟ قال: أبوها»**[5]**، وقال لفاطمة رضي الله عنها: «ألا تحبين ما أحب؟ قالت: بلى. قال: فأحبي عائشة»**[6]**، وقال للحسن: «اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه»**[7]**. وأمثال هذا كثير، فوصف نفسه بمحبة الأشخاص، وقال: «إني**

---

(١) أخرجه م سلم (٢٣٨٢).

(٢) أخرجه مسلم (٤/١٨٥٦) عن ابن مسعود.

(٣) أخرجه الحاكم (٢/٥٥٠) من حديث جندب وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٤) أخرجه أحمد (٥/٢٤٥و٢٤٧) وأبو داود (١٥٢٢) والنسائي (٣/٥٣) وفي عمل اليوم (١٠٩) وابن السني (١١٦) وصححه ابن حبان (موارد ٢٣٤٥) وابن خزيمة والحاكم (١/٢٧٣).

(٥) متفق عليه. جامع الأصول ٨/٥٧٧.

(٦) أخرجه ابو يعلى والبزار (كشف ٢٦٦١) من طريق مجالد بن سعيد عن عامر عن مسروق عن عائشة. ومجالد ليس بالقوي.

(٧) متفق عليه. جامع الأصول ٩/٢٧ بغير (وأحب من يحبه).

أبرأ إلى كل خليل من خلته، ولو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا»[1] فعلم أن الخلة أخص من مطلق المحبة بحيث هي من كمالها، وتخللها الحب حتى يكون المحبوب بها محبوبا لذاته لا لشيء آخر، إذ المحبوب لشيء غيره هو مؤخر في المحبة عن ذلك الغير ومن كمالها لا تقبل الشركة والمزاحمة لتخللها الحب، ففيها كمال التوحيد وكمال الحب. وإن الخلة أيضا تنافي المزاحمة وتقدم الغير بحيث يكون المحبوب محبوبا لذاته لا يزاحمه فيها غيره، وهذه محبة لا تصلح إلا لله فلا يجوز أن يشركه غيره فيما يستحقه، وهو محبوب لذاته، وكل ما يحب غيره إذا كان محبوبا بحق فإنما يحب لأجله، وكل ما أحب لغيره فمحبته باطلة في الدنيا، والدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ما كان لله تعالى.

فإذا كانت الخلة كذلك، فمن المعلوم أن من أنكر أن يكون الله محبوبا لذاته ينكر مخاللته. وكذلك أيضا إن أنكر محبته لأحد من عباده فقد أنكر أن يتخذه خليلا؛ بحيث يحب الرب ويحبه العبد على أكمل ما يصلح للعبادة. وكذلك تكليمه لموسى أنكروه لإنكارهم أن يقوم به صفة من الصفات أو فعل من الأفعال، فكما ينكرون أن يتصف بحياة أو قدرة أو علم، أو أن يستوي أو أن يجيء، فكذلك ينكرون أن يتكلم أو يكلم فهذا حقيقة قولهم: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾[2]. ولكن لما كان الإسلام ظاهرا والقرآن متلوا لا يمكن جحده لمن أظهر الإسلام، أخذوا يلحدون في أسماء الله ويحرفون الكلم عن مواضعه، فتأولوا محبة العباد له بمجرد محبتهم لطاعته والتقرب إليه، وهذا جهل عظيم، فإن محبة المتقرب إلى المتقرب إليه تابع لمحبته وفرع عليه، فمن لا يحب الشيء لا يمكن أن يحب التقرب إليه، إذ التقرب وسيلة، ومحبة الوسيلة تبع لمحبة المقصود، فيمتنع أن تكون الوسيلة إلى الشيء المحبوب هي المحبوب دون الشيء المقصود بالوسيلة. وكذلك العبادة والطاعة إذا قيل في المطاع المعبود إن هذا يحب طاعته وعبادته فإن محبة ذلك تبع لمحبته، وإلا فمن لا يحبه لا يحب طاعته وعبادته، ومن كان لا يعمل لغيره إلا لعوض يناله منه أو لدفع

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سورة البقرة آية ١١٨.

عقوبة فإنه يكون معارضا له أو مفتديا منه، لا يكون محبا له، ولا يقال إن هذا يحبه، ويفسر ذلك بمحبة طاعته وعبادته.

وأيضا فلفظ العبادة متضمن للمحبة مع الذل كما تقدم، ولهذا كانت محبة القلب للبشر على طبقات: أحدها العلاقة، فهو تعلق القلب بالمحبوب. ثم الصبابة، وهو انصباب القلب إليه، ثم الغرام، وهو الحب اللازم. ثم العشق. وآخر المراتب هو التتيم وهو التعبد للمحبوب، والمتيم المعبود، وتيم الله ،عبد الله، فإن المحب يبقى ذاكرا معبدا مذللا لمحبوبه.

وأيضا فاسم الإنابة إليه يقتضي المحبة أيضا، وما أشبه ذلك من الأسماء كما تقدم.

وأيضا فلو كان الذي قالوه حقا من كون ذلك مجازا لما فيه من الحذف والإضمار فالمجاز لا يطلق إلا بقرينة تبين المراد.

ومعلوم أن ليس في كتاب الله وسنة رسوله ما ينفي أن يكون الله محبوبا وألّا يكون المحبوب إلا الأعمال لا في الدلالة المتصلة ولا المنفصلة، بل ولا في العقل أيضا، فمن علامات المجاز صحة إطلاق نفيه فيجب أن يصح إطلاق القول بأن الله لا يحب ولا يحب، كما أطلق إمامهم الجعد بن درهم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما، ومعلوم أن هذا ممتنع بإجماع المسلمين، فعلم دلالة الإجماع على أن هذا ليس مجازا بل هي حقيقة، وأيضا فقد فرق بين محبته، ومحبة العمل له في قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾[1] كما فرق بين محبته ومحبة رسوله في قوله: ﴿أحب إليكم من الله ورسوله﴾ فلو كان المراد بمحبته ليس إلا محبة العمل لكان هذا تكريرا ومن باب عطف الخاص على العام وكلاهما على خلاف ظاهر الكلام الذي لا يجوز المصير إليه إلا بدلالة تبين المراد. وكما أن محبته لا يجوز أن تفسر بمجرد محبة رسوله فكذلك لا يجوز تفسيرها بمجرد محبة العمل وإن كانت محبته تستلزم محبة رسوله ومحبة العمل له. وأيضا فالتعبير بمحبة الشيء عن مجرد محبة طاعته لا عن محبة نفسه أمر لا

---

(١) سورة التوبة آية ٢٤.

يعرف في اللغة لا حقيقة ولا مجازا، فحمل الكلام عليه تحريف محض.

قلت: إذا أذن لنا الإمام أن نسأل عن إمكان أن يحب المسلم إنسانا لذاته.

قال الإمام: يا أعزائي لا يجوز أن يكون غير الله محبوبا مرادا لذاته، كما لا يجوز أن يكون غير الله موجودا بذاته، بل لا رب إلا الله ولا إله غيره. والإله هو المعبود الذي يستحق أن يحب لذاته، ويعظم لذاته كمال المحبة والتعظيم. وكل مولود يولد على الفطرة، فإنه سبحانه فطر القلوب على أنه ليس في محبوباتها ومراداتها ما تطمئن إليه إلا الله وحده، وإن كل ما أحبه المحبوب من مطعوم وملبوس ومنظور وملموس يجد من نفسه وإن قلبه يطلب شيئا سواه ويحب أمرا غيره يتألهه ويصمد إليه ويطمئن إليه ويرى ما يشبهه من هذه الأجناس. ولهذا قال الله تعالى في كتابه: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[1] في الصحيح عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ عن الله قال «**إني خلقت عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشياطين، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا**»[2] كما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء**». ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[3]. وأيضا فكل ما فطرت القلوب على محبته من نعوت الكمال فالله هو المستحق له على الكمال، وكل ما في غيره من محبوب فهو منه سبحانه وتعالى، فهو المستحق لأن يحب على الحقيقة والكمال، وإنكار محبة العبد لربه هو في الحقيقة إنكار لكونه إلها معبودا، كما أن إنكار محبته لعبده يستلزم إنكار مشيئته، وهو يستلزم إنكار كونه ربا خالقا، فصار إنكارها مستلزما لإنكار كونه رب العالمين ولكونه إله العالمين، وهذا هو قول أهل التعطيل والجحود. ولهذا اتفقت الأمتان قبلنا على ما عندهم من مأثور وحكم عن موسى وعيسى، أن أعظم الوصايا: أن تحب الله بكل قلبك وعقلك وقصدك، وهذا هو حقيقة

(١) سورة الرعد آية ٢٨.
(٢) أخرجه مسلم. أنظر جامع الأصول ١١/٧٤٨.
(٣) سبق تخريجه.

الحنيفية ملة إبراهيم التي هي أصل شريعة التوراة والإنجيل والقرآن، وإنكار ذلك هو مأخوذ من مقال الصابئين أعداء إبراهيم الخليل ومن وافقهم على ذلك من متفلسف أو متكلم أو متفقه أخذه عن هؤلاء، وظهر ذلك في القرامطة الباطنية من الإسماعيلية، ولهذا قال الخليل إمام الحنفاء: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] وقال أيضا: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[3] وهو السليم من الشرك.

وإلى هنا أحس الإمام بأن مجلسه قد طال، فحمد الله وأثنى عليه وأنهى مجلسه على أمل اللقاء في الغد إن شاء الله.

---

(١) سورة الشعراء آية ٥٧.

(٢) سورة الأنعام آية ٧٦.

(٣) سورة الشعراء آية ٨٨.

المجلس السادس عشر



محبة القلب وخلته

- أعلى درجات المحبة
- حلاوة الايمان تتبع كمال محبة العبد لله
- حقيقة العبودية
- شطحات المحبين
- ضابط المحبة الحقة لله
- تبادل الحب بين العبد والرب

المجلس السادس عشر
محبة القلب وخلته

صلى شيخ الإسلام بالناس ثم تهيأ المصلون من العلماء وطلاب العلم والعامة لأخذ مواقعهم من حلقة الشيخ لسماع درس أو خاطرة اليوم، وهي تذكرة قصيرة يتعهد بها الشيخ أحبابه ومريديه، فيعالج بها قضايا نفسية قلبية دون الدخول في القضايا الفقهية المفصلة. ولعل هذا المنهج جعل حلقة الشيخ يضيق بها المسجد على رحابته، كأن الناس قدموا من الأنحاء لصلاة جمعة.

وما هي إلا لحظات أتم الشيخ فيها تسبيحه ودعاءه حتى أخذ موقعه فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله فقال: الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

أما بعد: فيأيها الأحباب الحضور والأعزاء القراء الكرام،اليوم أحدثكم بعون الله وتوفيقه في موضوع هو تكميل للموضوع السابق في تعلق القلب بمحبوبه ومعبوده وهو الله تبارك وتعالى. فإن درجات المحبة متفاوتة، كما بينته في المجلس السابق. وسأحدثكم عن أعلى درجات المحبة وهي الخلة. فأقول وبالله وحده التوفيق:

- أعلى درجات المحبة:

الخلة هي كمال المحبة المستلزمة من العبد كمال العبودية لله، ومن الرب سبحانه كمال الربوبية لعباده الذين يحبهم ويحبونه، ولفظ العبودية يتضمن كمال الذل، وكمال الحب، فإنهم يقولون: قلب متيم إذا كان متعبدا للمحبوب، والمتيم المتعبد، وتيَّم الله

عَبْدَهُ، وهذا على الكمال حصل لإبراهيم ومحمد ﷺ: ولهذا لم يكن له من أهل الأرض خليل؛ إذ الخلة لا تحتمل الشركة فإنه كما قيل في المعنى.

قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سمي الخليل خليلا

بخلاف أصل الحب فإنه ﷺ قد قال في الحديث الصحيح في الحسن وأسامة: «**اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما**»[1] وسأله عمرو بن العاص «**أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة قال فمن الرجال؟ قال أبوها**»[2] وقال لعلي رضي الله عنه: «**لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله**»[3] وأمثال ذلك كثير.

وقد أخبر تعالى أنه يحب المتقين، ويحب المحسنين، ويحب المقسطين، ويحب التوابين، ويحب المتطهرين، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص، وقال: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾[4] فقد أخبر بمحبته لعباده المؤمنين، ومحبة المؤمنين له، حتى قال: ﴿**وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾[5].

وأما الخلة فخاصة. وقول بعض الناس: إن محمدا حبيب الله، وإبراهيم خليل الله، وظنه أن المحبة فوق الخلة قول ضعيف، فإن محمدا أيضا خليل الله كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة المستفيضة. وما يروى «أن العباس يحشر بين حبيب وخليل» وأمثال ذلك، فأحاديث موضوعة لا تصلح أن يعتمد عليها.

وقد قدمنا لكم يا أحباءنا الكرام أن من محبة الله تعالى محبة ما أحب، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار**»[6] أخبر النبي ﷺ أن

---

(١) رواه الترمذي من غير (وأحب من يحبهما) وقال: حسن غريب. جامع الأصول ٩/٣٩.

(٢) مختصر صحيح مسلم رقم ١٦٢٣.

(٣) مختصر صحيح مسلم رقم ١٦٤٠.

(٤) سورة المائدة آية ٥٤.

(٥) سورة البقرة آية ١٦٥.

(٦) سبق تخريجه.

هذه الثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان؛ لأن وجْد الحلاوة بالشيء يتبع المحبة له، فمن أحب شيئا أو اشتهاه إذا حصل له مراده فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك، واللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذي هو المحبوب المشتهى.

ـ حلاوة الايمان تتبع كمال محبة العبد لله

ثم سكت الشيخ قليلا ليتأكد من استيعاب ما ذكر. فوجدناها فرصة فقلنا: كأن إمامنا يخالف قول بعض المتفلسفة والأطباء بأن اللذة هي: إدراك الملائم.

قال الإمام: نعم أنا أرى أن من قال إن اللذة إدراك الملائم فقد غلط في ذلك غلطا بينا؛ فإن الإدراك يتوسط بين المحبة واللذة، فإن الإنسان مثلا يشتهي الطعام فإذا أكله حصل له عقيب ذلك اللذة، فاللذة تتبع النظر إلى الشيء، فإذا نظر إليها التذ، فاللذة تتبع النظر ليست نفس النظر، وليست هي رؤية الشيء؛ بل تحصل عقيب رؤيته، وقال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾[1]. وهكذا جميع ما يحصل للنفس من اللذات والآلام من فرح وحزن ونحو ذلك يحصل بالشعور بالمحبوب، أو الشعور بالمكروه، وليس نفس الشعور هو الفرح ولا الحزن. فحلاوة الإيمان المتضمنة من اللذة به والفرح ما يجده المؤمن الواجد من حلاوة الإيمان تتبع كمال محبة العبد لله، وذلك بثلاثة أمور.

تكميل هذه المحبة، وتفريعها، ودفع ضدها.

فتكميلها أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما؛ فإن محبة الله ورسوله لا يكتفى فيها بأصل الحب، بل لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما كما تقدم.

وتفريعها أن يحب المرء لا يحبه إلا لله.

ودفع ضدها أن يكره ضد الإيمان أعظم من كراهته الإلقاء في النار، فإذا كانت محبة الرسول والمؤمنين من محبة الله، وكان رسول الله ﷺ يحب المؤمنين الذين يحبهم

---

(١) سورة الزخرف آية ٧١.

الله ؛ لأنه أكمل الناس محبة لله، وأحقهم بأن يحب ما يحبه الله، ويبغض ما يبغضه الله، والخلة ليس لغير الله فيها نصيب، بل قال: «لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لأتخذت أبا بكر خليلا»[1] علم مزيد مرتبة الخلة على مطلق المحبة.

ـ حقيقة العبودية:

وبعد أن بين الإمام مراده بالخلة وبين أن اللذة أمر آخر غير الإدراك. شرع في بيان أمر هام قد يفهمه البعض على غير وجهه الصحيح، وهو أن العبودية التي تحققها الخلة والمحبة إنما هي مجرد ذل للمعبود وخضوع لا محبة معه.

قال الإمام: اعلموا يا أحبائي الحضور وأعزائي القراء الكرام أن الخلة والمحبة لله تحقق العبودية وحب المعبود وإنما يغلط من يغلط في هذه من حيث يتوهمون أن العبودية مجرد ذل وخضوع فقط، لا محبة معه، أو أن المحبة فيها انبساط في الأهواء أو إذلال لا تحتمله الربوبية، ولهذا يذكر عن «ذي النون»[أ] أنهم تكلموا عنده في مسألة المحبة. فقال: أمسكوا عن هذه المسألة لا تسمعها النفوس فتدعيها. وكره من كره من أهل المعرفة والعلم مجالسة أقوام يكثرون الكلام في المحبة بلا خشية؛ وقال من قال من السلف: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجىء، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد. ولهذا وجد في المستأخرين من انبسط في دعوى المحبة حتى أخرجه ذلك إلى نوع من الرعونة، والدعوى التي تنافي العبودية وتدخل العبد في نوع من الربوبية التي لا تصلح إلا لله؛ ويدعي أحدهم دعاوى تتجاوز حدود الأنبياء والمرسلين، أو يطلبون من الله ما لا يصلح ـ بكل وجه ـ إلا لله لا يصلح للأنبياء والمرسلين.

---

(١) مختصر صحيح مسلم رقم ١٦٢٢. من غير (من أهل الأرض).

(أ) ذو النون المصري. ثوبان بن ابراهيم الأخميمي. أحد الزهاد العباد المشهورين. كانت له فصاحة وحكمة وشعر وهو أول من تكلم بمصر في ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية. مات سنة ٢٤٥هـ الأعلام ٢/١٠٢.

ـ شطحات المحبين:

قلت: لو تكرم شيخنا ببيان أسباب ذلك الانحراف حتى نتقيها، فإن في ذلك فائدة عظيمة.

قال الإمام: سبب ذلك يا أحبائي وأعزائي هو ضعف تحقيق العبودية التي بينتها الرسل، وحررها الأمر والنهي الذي جاءوا به، بل ضعف العقل الذي به يعرف العبد حقيقته، وإذا ضعف العقل وقل العلم بالدين، وفي النفس محبة، انبسطت النفس بحمقها في ذلك، كما ينبسط الإنسان في محبة الإنسان مع حمقه وجهله، ويقول: أنا محب فلا أؤاخذ بما أفعله من أنواع يكون فيها عدوان وجهل، فهذا عين الضلال، وهو شبيه بقول اليهود والنصارى: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ قال الله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾[1] فإن تعذيبه لهم بذنوبهم يقتضي أنهم غير محبوبين ولا منسوبين إليه بنسبة البنوة، بل يقتضي أنهم مربوبون مخلوقون.

فمن كان الله يحبه استعمله فيما يحبه محبوبه، لا يفعل ما يبغضه الحق ويسخطه من الكفر والفسوق والعصيان، ومن فعل الكبائر وأصر عليها ولم يتب منها فإن الله يبغض منه ذلك؛ كما يحب منه ما يفعله من الخير؛ إذ حبه للعبد بحسب إيمانه وتقواه، ومن ظن أن الذنوب لا تضره لكون الله يحبه مع إصراره عليها كان بمنزلة من زعم أن تناول السم لا يضره مع مداومته عليه وعدم تداويه منه بصحة مزاجه.

وكثير من السالكين سلكوا في دعوى حب الله أنواعا من أمور الجهل بالدين؛ إما من تعدي حدود الله؛ وإما من تضييع حقوق الله، وإما من ادعاء الدعاوي الباطلة التي لا حقيقة لها، كقول بعضهم: أي مريد لي ترك في النار أحدا فأنا منه بريء: فقال الآخر: أي مريد لي ترك أحدا من المؤمنين يدخل النار فأنا منه بريء. فالأول جعل مريده يخرج كل من في النار؛ والثاني جعل مريده يمنع أهل الكبائر من دخول النار. ويقول بعضهم: إذا كان يوم القيامة نصبت خيمتي على جهنم حتى لا يدخلها

---

(١) سورة المائدة آية ١٨.

أحد. وأمثال ذلك من الأقوال التي تؤثر عن بعض المشايخ المشهورين؛ وهي إما كذب عليهم، وإما غلط منهم؛ ومثل هذا قد يصدر في حال سكر وغلبة وفناء يسقط فيها تمييز الإنسان؛ أو يضعف حتى لا يدري ما قال، والسكر هو لذة مع عدم تمييز. ولهذا كان بين هؤلاء من إذا صحا استغفر من ذلك الكلام.

ـ ضابط المحبة الحقة لله:

والذين توسعوا من الشيوخ في سماع القصائد المتضمنة للحب والشوق واللوم والعذل والغرام كان هذا أصل مقصدهم؛ ولهذا أنزل الله للمحبة محنة يمتحن بها المحب فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[1] فلا يكون محبا لله إلا من يتبع رسوله، وطاعة الرسول ومتابعته تحقيق العبودية.

وكثير ممن يدعي المحبة يخرج عن شريعته وسنته، ويدعي من الخيالات ما لا يتسع هذا الموضع لذكره. حتى قد يظن أحدهم سقوط الأمر وتحليل الحرام له وغير ذلك مما فيه مخالفة شريعة الرسول وسنته وطاعته، بل قد جعل محبة الله ومحبة رسوله الجهاد في سبيله. والجهاد يتضمن كمال محبة ما أمر الله به، وكمال بغض ما نهى الله عنه، ولهذا قال في صفة من يحبهم ويحبونه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[2].

ولهذا كانت محبة هذه الأمة لله أكمل من محبة من قبلها، وعبوديتهم لله أكمل من عبودية من قبلهم. وأكمل هذه الأمة في ذلك أصحاب محمد ﷺ، ومن كان بهم أشبه كان ذلك فيه أكمل، فأين هذا من قوم يدعون المحبة؟!

ولما لاحظ الشيخ الاستغراب والاستهجان لفهم هؤلاء لمعنى المحبة وانحرافهم.

قال الإمام: لا تستغربوا يا أحبائي هذا فحسب ولكن إن تعجبوا فاعجبوا من قول بعض الشيوخ: المحبة نار تحرق في القلب ما سوى مراد المحبوب. وأرادوا أن الكون

---

(١) سورة آل عمران آية ٣١.

(٢) سورة المائدة آية ٥٤.

كله قد أراد الله وجوده، فظنوا أن كمال المحبة أن يحب العبد كل شيء، حتى الكفر والفسوق والعصيان، ولا يمكن أحدا أن يحب كل موجود بل يحب ما يلائمه وينفعه ويبغض ما ينافيه ويضره، ولكن استفادوا بهذا الضلال اتباع أهوائهم، فهم يحبون ما يهوونه كالصور والرئاسة وفضول المال، والبدع المضلة، زاعمين أن هذا من محبة الله، ومن محبة الله بغض ما يبغضه الله ورسوله، وجهاد أهله بالنفس والمال.

وأصل ضلالهم أن هذا القائل الذي قال: «إن المحبة نار تحرق ما سوى مراد المحبوب» قصد بمراد الله تعالى الإرادة الدينية الشرعية التي هي بمعنى محبته ورضاه، فكأنه قال تحرق من القلب ما سوى المحبوب لله، وهذا معنى صحيح. فإن من تمام الحب ألا يحب إلا ما يحبه الله، فإذا أحببت ما لا يحب كانت المحبة ناقصة، وأما قضاؤه وقدره فهو يبغضه ويكرهه ويسخطه وينهى عنه، فإن لم أوافقه في بغضه وكراهته وسخطه لم أكن محبا له، بل محبا لما يبغضه. فاتباع الشريعة، والقيام بالجهاد من أعظم الفروق بين أهل محبة الله وأوليائه الذين يحبهم ويحبونه وبين من يدعي محبة الله ناظرا إلى عموم ربوبيته، أو متبعا لبعض البدع المخالفة لشريعته، فإن دعوى هذه المحبة لله من جنس دعوى اليهود والنصارى لما فيهم من النفاق الذين هم به في الدرك الأسفل من النار، كما قد تكون دعوى اليهود والنصارى شرا من دعواهم إذا لم يصلوا إلى مثل كفرهم، وفي التوراة والإنجيل من محبة الله ما هم متفقون عليه، حتى إن ذلك عندهم أعظم وصايا الناموس.

ـ تبادل الحب بين العبد والرب:

قلت يا إمامنا: هل يمكن أن يكون الحب من طرف واحد، بمعنى هل يمكن أن يكون العبد محبا لله تعالى. والله عز وجل غير محب له؟

قال الإمام: اعلموا يا أحبائي أن الله سبحانه يحب من يحبه؛ لا يمكن أن يكون العبد محبا لله والله غير محب له؛ بل بقدر محبة العبد لربه يكون حب الله له؛ وإن كان جزاء الله لعبده أعظم. كما في الحديث الصحيح الإلهي عن الله تعالى أنه قال: «من تقرب

إلي شبرا تقربت إليه ذراعا، ومن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»[1].

وقد أخبر سبحانه أنه يحب المتقين، والمحسنين والصابرين، ويحب التوابين، ويحب المتطهرين، بل هو يحب من فعل ما أمر به من واجب ومستحب، كما في الحديث الصحيح: **«لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به»**[2] الحديث.

وكثير من المخطئين الذين اتبعوا أشياخا في الزهد والعبادة وقعوا في بعض ما وقع فيه النصارى: من دعوى المحبة لله مع مخالفة شريعته، وترك المجاهدة في سبيله ونحو ذلك، ويتمسكون في الدين الذي يتقربون به إلى الله بنحو ما تمسك به النصارى من الكلام المتشابه، والحكايات التي لا يعرف صدق قائلها، ولو صدق لم يكن قائلها معصوما، فيجعلون متبوعيهم شارعين لهم دينا، كما جعل النصارى قسيسيهم ورهبانهم شارعين لهم دينا، ثم إنهم ينتقصون العبودية ويدعون أن الخاصة يتعدونها كما يدعي النصارى في المسيح، ويثبتون للخاصة من المشاركة في الله من جنس ما تثبته النصارى في المسيح وأمه. إلى أنواع أخر يطول شرحها في هذا الموضع.

ثم سكت الشيخ كأنه يريد إنهاء خاطرة اليوم. فقلت: يا إمامنا قد تشعب الحديث فلو تكرمتم بخلاصة نكون لكم من الشاكرين ولكم الشكر على كل حال.

قال الإمام: اعلموا وفقكم الله أن دين الحق هو تحقيق العبودية لله بكل وجه، وهو تحقيق محبة الله بكل درجة وبقدر تكميل العبودية تكمل محبة العبد لربه، وتكمل محبة الرب لعبده، وبقدر نقص هذا يكون نقص هذا؛ وكلما كان في القلب حب لغير الله كانت فيه عبودية لغير الله بحسب ذلك، وكلما كان فيه عبودية لغير الله كان فيه حب لغير الله بحسب ذلك، وكل محبة لا تكون لله فهي باطلة، وكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل. فالدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله، ولا يكون لله إلا ما أحبه

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي. انظر جامع الأصول ٤/٤٧٦.

(٢) رواه البخاري في الرقاق باب التواضع.

الله ورسوله، وهو المشروع. فكل عمل أريد به غير الله لم يكن لله، وكل عمل لا يوافق شرع الله لم يكن لله، بل لا يكون لله إلا ما جمع الوصفين: أن يكون لله، وأن يكون موافقا لمحبة الله ورسوله، وهو الواجب والمستحب. كما قال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[١].

فلا بد من العمل الصالح، وهو الواجب والمستحب، ولا بد أن يكون خالصا لوجه الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٢]. وقال النبي ﷺ: **«من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد»**[٣] وقال النبي ﷺ: **«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»**[٤].

وهذا الأصل هو أصل الدين، وبحسب تحقيقه يكون تحقيق الدين وبه أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، وإليه دعا الرسول، وعليه جاهد؛ وبه أمر، وفيه رغب؛ وهو قطب الدين الذي تدور عليه رحاه.

وإلى هنا أنهى الشيخ مجلسه فحمد الله وأثنى عليه ووعد الحضور الكرام والقراء الأعزاء على أن يلتقي معهم في مجلس قادم بعون الله تعالى وتوفيقه.

---

(١) سورة الكهف آية ١١٠.
(٢) سورة البقرة آية ١١٢.
(٣) متفق عليه.
(٤) متفق عليه.

المجلس السابع عشر



زكاة النفس فلاح

- زكاة النفس بفعل الحسنات وترك السيئات
- كف النفس عن الهوى مجاهدة وعبادة
- إخلاص العبادة يقضي على الشهوات والشبهات
- حلاوة الايمان تتحقق بمحبة الله

المجلس السابع عشر
زكاة النفس فلاح

كانت صفوف المصلين خلف الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية متراصة ملتئمة.
وفد المصلون من كل صوب وناحية ليؤدوا صلاة المغرب خلف الشيخ، لقد كان حسن الصوت رخيمه، إذا قرأ تدبر وخشع، فخرجت الآيات من قلبه ندية غضة، لا يمل سامعه على طول قراءته. حتى إذا أنهى الشيخ صلاته بالناس وأدوا ما عليهم من السنن، أخذ أقران الشيخ من العلماء وكذا طلبة العلم مواقعهم من الصف الأول في حلقة الشيخ، وتوالت بعدهم الحلقات حتى يمسي المسجد كله حلقة واحدة مترابطة في مظهر بديع بديع. ثم أخذ الشيخ الإمام موقعه وقد علت محياه الكريم سمات وأمارات الشيخوخة، مما يزيد في مهابته، وتتعظ العيون بمنظره، فكم من أعداء للإسلام قاتلهم بسيفه. وكم من جيوش كان لوجوده جنديا مجاهدا بينهم أثر بليغ في حماسهم وتذكيرهم وشحذ هممهم ورفع معنوياتهم، وكم من بدعة قمعها بالحجة والبيان، وكم من حاكم دخل إيوانه يعظه ويذكره بالله. وكثير من الذكريات والمواقف، التي لو كان جلوس الشيخ هكذا دون حديث لكفت عظة واعتبارا لسامعيه ومحبيه.

ثم قال الإمام: الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.
أما بعد: فيأيها الأحباب الحضور والقراء الأعزاء، أحييكم بتحية الإسلام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

لا يخفى عليكم أن حديث القلوب ذو شجون، تتشعب مسالكه فتضيق حتى يظن

أنه لا مخرج لها، وتتسع حتى يظن أنه لا ضيق بعدها، وبين هذا وذاك مسارب وموارد ومشارب وأحاسيس ومشاعر، ورقائق، وحب وبغض وخوف ورجاء ورغبة ورهبة، وما إلى ذلك مما لا آلو جهدا في بيانه وإيضاحه وتحليله وتعليله لكم، وتلحظون أن رفيقي ومرشدي وهاديي في منازل ومعارج ذلك كله الكتاب الكريم والسنة المطهرة.
فأعينوني على نفسي وعلى نفوسكم بقوة واجتهاد وعسى الله أن يوفقنا وإياكم لما فيه صحتنا وسعادتنا ورضاه.
واليوم أحدثكم عن موضوع هام، نحن وإياكم بحاجة ماسة إليه، إنه تزكية النفس، كيف تزكو وكيف تتدنس وتهبط فأقول وبالله وحده التوفيق.

ـ زكاة النفس بفعل الحسنات وترك السيئات:

يقول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[1] و ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾[2].

قال قتادة[3] وابن عيينة وغيرهما: قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله وصالح الأعمال. وقال الفراء[4] والزجاج[5]: قد أفلحت نفس زكاها الله، وقد خابت نفس دساها الله. وكذلك ذكره الوالبي عن ابن عباس وهو منقطع. وليس هو مرادا من الآية، بل المراد بها الأول قطعا لفظا ومعنى.

أما اللفظ فقوله: من زكاها اسم موصول ولا بد فيه من عائد.

---

(١) سورة الشمس آية ٩.

(٢) سورة الأعلى آية ١٤.

(٣) قتادة بن دعامة السدوسي، مفسر حافظ ضرير أكمه كان عالما بالحديث، ومقدما في العربية ومفردات اللغة وأيام العرب والنسب مات بواسط سنة ١٢٨هـ الأعلام ٥/١٨٩ ط٤.

(٤) الفراء يحيى بن زياد الكوفي النحوي نزل بغداد، وهو أجل أصحاب الكسائي، هذب العربية وضبطها، وله تصانيف طبع بعضها، منها معاني القرآن. وغيره مات سنة ٢٠٧هـ. انظر شذرات الذهب ٢/١٩.

(٥) الزجاج هو إبراهيم بن السري بن سهل عالم بالنحو واللغة ولد ومات في بغداد، أدب ابن الوزير عبيدالله بن سليمان. وحين ولي هذا الابن الوزارة جعل الزجاج من كتابه، له مناقشات مع ثعلب، وله عدة كتب مات سنة ٣١١هـ. الأعلام ١/٤٠ ط٤.

وأصل «الزكاة» الزيادة في الخير. ومنه يقال: زكا الزرع، وزكا المال إذا نما. ولن ينمو الخير إلا بترك الشر، والزرع لا يزكو حتى يزال عنه الدغل، فكذلك النفس والأعمال لا تزكو حتى يزال عنها ما يناقضها ولا يكون الرجل متزكيا إلا مع ترك الشر، فإنه يدنس النفس ويدسيها. قال الزجاج: (دساها) جعلها ذليلة حقيرة خسيسة وقال الفراء: دساها؛ لأن البخيل يخفي نفسه ومنزله وماله، قال ابن قتيبة[1]: أي أخفاها بالفجور والمعصية، فالفاجر دس نفسه؛ أي قمعها وخباها، وصانع المعروف شهر نفسه ورفعها، وكانت أجواد العرب تنزل الرُّبا لتشهر أنفسها، واللئام تنزل الأطراف والوديان.

فالبر والتقوى يبسط النفس، ويشرح الصدر، بحيث يجد الإنسان في نفسه اتساعا وبسطا عما كان عليه قبل ذلك؛ فإنه لما اتسع بالبر والتقوى والإحسان بسطه الله وشرح صدره، والفجور والبخل يقمع النفس ويضعها ويهينها، بحيث يجد البخيل في نفسه أنه ضيق. وقد بين النبي ﷺ ذلك في الحديث الصحيحفقال: «**مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد قد اضطرت أيديهما إلى تراقيهما. فجعل المتصدق كلما هم بصدقة اتسعت وانبسطت عنه، حتى تغشى أنامله. وتعفو أثره وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت وأخذت كل حلقة بمكانها، وأنا رأيت رسول الله ﷺ يقول بإصبعه في جيبه فلو رأيتها يوسعها فلا تتسع**»[2]

وإخفاء المنزل وإظهاره تبعا لذلك قال تعالى: ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾[3] الآية. فهكذا النفس البخيلة الفاجرة قد دسها صاحبها في بدنه بعضها في بعض، ولهذا وقت الموت تنزع من بدنه كما ينزع السفود من الصوف المبتل، والنفس

---

(١) أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري الإمام النحوي اللغوي. سكن بغداد وأقام مدة بالدينور قاضيا فنسب إليها. وله عدة كتب منها أدب الكاتب، وطبقات الشعراء، وغريب القرآن ومشكل الحديث وغيرها، مات سنة ٢٧٦هـ. انظر شذرات الذهب ٢/١٦٩.

(٢) مختصر صحيح مسلم رقم ٥٤٨ مع اختلاف يسير.

(٣) سورة النحل آية ٥٩.

البرة التقية النقية التي قد زكاها صاحبها فارتفعت واتسعت ومجدت ونبلت، فوقت الموت تخرج من البدن تسيل كالقطرة من في السقاء، وكالشعرة من العجين. قال ابن عباس: «إن للحسنة لنورا في القلب، وضياء في الوجه، وقوة في البدن، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة لظلمة في القلب، وسوادا في الوجه، ووهنا في البدن، وضيقا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق» قال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [1] الآية. وهذا مثل البخيل والمنفق. قال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ﴾ [2] الآية. وقال: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [3] الآية.

وقال له في سياق الرمي بالفاحشة وذم من أحب إظهارها في المؤمنين، والمتكلم بها لا يعلم: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [4] الآية. فبين أن الزكاة إنما تحصل بترك الفاحشة ولهذا قال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [5] الآية. وذلك أن ترك السيئات هو من أعمال النفس، فإنها تعلم أن السيئات مذمومة ومكروه فعلها، ويجاهد نفسه إذا دعته إليها، إن كان مصدقا لكتاب ربه مؤمنا بما جاء عن نبيه ﷺ؛ ولهذا التصديق والإيمان والكراهة وجهاد النفس أعمال تعملها النفس المزكاة، فتزكو بذلك أيضا؛ بخلاف ما إذا عملت السيئات فإنها تتدنس وتندس وتنقمع كالزرع إذا نبت معه الدغل.

ومما يليق: أن الزكاة تستلزم الطهارة؛ لأن معناها معنى الطهارة. قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ من الشر ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ [6] بالخير قال ﷺ: «**اللهم طهرني بالماء والبرد والثلج**» [7] كان يدعو به في الاستفتاح وفي الاعتدال من الركوع، والغسل.

---

(١) سورة الأعراف اية ٥٨.
(٢) سورة الأنعام آية ١٢٥.
(٣) سورة البقرة آية ٢٥٧.
(٤) سورة النور آية ٢١.
(٥) سورة النور آية ٣٠.
(٦) سورة التوبة آية ١٠٣.
(٧) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي بلفظ «اللهم اغسلني». جامع الأصول ١٨٣/٤.

فهذه الأمور توجب تبريد المغسول بها والبرد يعطي قوة وصلابة، وما يسر يوصف بالبرد وقرة العين، ولهذا كان دمع السرور باردا، ودمع الحزن حارا؛ لأن مايسوء النفس يوجب حزنها وغمها، وما يسرها يوجب فرحها وسرورها وذلك مما يبرد الباطن.

فسأل النبي ﷺ: أن يغسل الذنوب على وجه يبرد القلوب أعظم برد يكون بما فيه من الفرح والسرور الذي أزال عنه ما يسوء النفس من الذنوب.

وقوله: بالثلج والبرد والماء البارد تمثيل بما فيه من هذا الجنس، وإلا فنفس الذنوب لا تغسل بذلك، كما يقال: أذقنا برد عفوك، وحلاوة مغفرتك. ولما قضى أبو قتادة دين المدين قال ﷺ: «الآن بردت جلدته»[1] ويقال: برد اليقين، وحرارة الشك. ويقال: هذا الأمر يثلج له الصدر، إذا كان حقا يعرفه القلب ويفرح به، حتى يصير في مثل برد الثلج. ومرض النفس: إما شبهة وإما شهوة أو غضب، والثلاثة توجب السخونة. ويقال لمن نال مطلوبه: برد قلبه. فإن الطالب فيه حرارة الطلب.

وقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ دليل على أن عمل الحسنات يطهّر النفس ويزكيها من الذنوب السالفة، فإنه قاله بعد قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟﴾[2] الآية. فالتوبة والعمل الصالح يحصل بهما التطهير والتزكية ولهذا قال في سياق قوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟﴾ الآيات. ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾[3] الآية. فأمرهم جميعا بالتوبة في سياق ما ذكره؛ لأنه لا يسلم أحد من هذا الجنس. كما في الصحيح: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا»[4] الحديث. وكذلك في الصحيح «إن قوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[5] نزلت بسبب رجل نال من امرأة كل شيء إلا الجماع، ثم ندم فنزلت».

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٣٠) عن عبدالصمد وأبو سعيد قالا ثنا زائدة عن عبدالله بن محمد بن عقيل عن جابر. ورجاله كلهم ثقات غير ابن عقيل وهو مختلف فيه.

(٢) سورة التوبة آية ١٠٢.

(٣) سورة النور آية ٣٠، ٣١.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود. انظر جامع الأصول ٢/ ٣٧١.

(٥) سورة هود آية ١١٤.

. كف النفس عن الهوى مجاهدة وعبادة:

ويحتاج المسلم في ذلك إلى أن يخاف الله، وينهى النفس عن الهوى.

قلت: إذا أذن الإمام أن أسأل عن النفس والهوى والشهوة. هل يستحق المرء العقوبة والإثم لمجرد ذلك، أو لا بد من عمل؟

قال الإمام: يا أحبائي وأعزائي الكرام: إن نفس الهوى والشهوة لا يعاقب عليه، بل على اتباعه والعمل به، فإذا كانت النفس تهوى وهو ينهاها كان نهيه عبادة لله، وعملا صالحا. وثبت عنه أنه قال: «المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله»(١) فيؤمر بجهادها كما يؤمر بجهاد من يأمر بالمعاصي ويدعو إليها، وهو إلى جهاد نفسه أحوج، فإن هذا فرض عين وذاك فرض كفاية، والصبر في هذا من أفضل الأعمال، فإن هذا الجهاد حقيقة ذلك الجهاد، فمن صبر عليه صبر على ذلك الجهاد. كما قال: «والمهاجر من هجر السيئات»(٢)

ثم هذا لا يكون محمودا فيه، إلا إذا غلب، بخلاف الأول فإنه من﴿**فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾(٣) ولهذا قال ﷺ «**ليس الشديد بالصرعة الخ**»(٤) وذلك لأن الله أمر الإنسان أن ينهى النفس عن الهوى، وأن يخاف مقام ربه، فحصل له من الإيمان ما يعينه على الجهاد، فإذا غُلِبَ كان لضعف إيمانه، فيكون مفرطا بترك المأمور؛ بخلاف العدو الكافر فإنه قد يكون بدنه أقوى.

. إخلاص العبادة يقضي على الشهوات والشبهات:

قلت: يا إمامنا، هوى النفس والشهوات، كلنا يتمنى أن ينتصر عليهما في نفسه، ولكن رغم المجاهدة قد تقع الذنوب. فكيف ينظر شيخنا إلى هذه القضية؟

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي وصححه ابن حبان والألباني (صحيح الجامع ٦٥٥٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٩٣٤) من حديث فضالة بن عبيد قال البوصيري في «الزوائد»: اسناده صحيح ورجاله ثقات، وصححه الألباني (صحيح الجامع ٦٥٣٤).

(٣) سورة النساء آية ٧٤.

(٤) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

قال الإمام: يا أحبائي الذنوب إنما تقع إذا كانت النفس غير ممتثلة لما أُمِرَتْ به، ومع امتثال المأمور لا تفعل المحظور، فإنهما ضدان. قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾[1] الآية. وقال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[2] فعباد الله المخلصون لا يغويهم الشيطان، و «الغي» خلاف الرشد، وهو اتباع الهوى. فمن مالت نفسه إلى محرم، فليأت بعبادة الله كما أمر الله مخلصا له الدين، فإن ذلك يصرف عنه السوء والفحشاء خشية ومحبة، والعبادة له وحده، وهذا يمنع من السيئات.

فإذا كان تائبا، فإن كان ناقصا، فوقعت السيئات من صاحبه كان مَاحِيًا لها بعد الوقوع، فهو كالترياق الذي يدفع أثر السم، ويرفعه بعد حصوله، وكالغذاء من الطعام والشراب، وكالاستمتاع بالحلال الذي يمنع النفس عن طلب الحرام، فإذا حصل له طلب ازالته، وكالعلم الذي يمنع من الشك، ويرفعه بعد وقوعه، وكالطب الذي يحفظ الصحة ويدفع المرض، وكذلك ما في القلب من الإيمان يحفظ بأشباهه مما يقوم به.

وإذا حصل منه مرض من الشبهات والشهوات أزيل بهذه، ولا يحصل المرض إلا لنقص أسباب الصحة، كذلك القلب لا يمرض إلا لنقص إيمانه. وكذلك الإيمان والكفر متضادان، فكل ضدين: فأحدهما يمنع الآخر تارة، ويرفعه أخرى.

ـ حلاوة الايمان تتحقق بالمحبة لله:

ثم سكت الشيخ الإمام كأنه يريد الاطمئنان على فهم واستيعاب كلامه، وأن يسأل من شاء ما شاء فلما لم يسأل من أحد، تحرك وهو في مجلسه، ثم تنفس الصعداء كأن في صدره أمرا يريد أن يقوله لا محالة.

فقال الإمام: وفقكم الله وعمر قلوبكم باليقين، إن الإيمان إذا باشر القلب وخالطته بشاشته لا يسخطه القلب، بل يحبه ويرضاه، فإن له من الحلاوة في القلب واللذة والسرور والبهجة ما لا يمكن التعبير عنه لمن لم يذقه، والناس متفاوتون في ذوقه، والفرح

---

(١) سورة يوسف آية ٢٤.

(٢) سورة الحجر آية ٤٢.

والسرور الذي في القلب له من البشاشة ما هو بحسبه، وإذا خالطتِ القلبَ لم يسخطه، قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[3] فأخبر سبحانه أنهم يستبشرون بما أنزل من القرآن، والاستبشار هو الفرح والسرور، وذلك لما يجدونه في قلوبهم من الحلاوة واللذة والبهجة بما أنزل الله.

واللذة أبدا تتبع المحبة فمن أحب شيئا ونال ما أحبه وجد اللذة به، فالذوق هو إدراك المحبوب، اللذة الظاهرة كالأكل مثلا: حال الإنسان فيها أنه يشتهي الطعام ويحبه، ثم يذوقه ويتناوله فيجد حينئذ لذته وحلاوته، وكذلك النكاح وأمثال ذلك.

وليس للخلق محبة أعظم ولا أكمل ولا أتم من محبة المؤمنين لربهم، وليس في الوجود ما يستحق أن يحب لذاته من كل وجه إلا الله تعالى، وكل ما يحب سواه فمحبته تبع لحبه، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام إنما يحب لأجل الله، ويطاع لأجل الله، ويتبع لأجل الله. كما قال تعالى:﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[4].
وفي الحديث «أحبوا الله لما يَغذوكم به من نِعَمِه، وأحبوني لحب الله وأحبوا أهل بيتي لحبي»[5] وقال تعالى: ﴿قل: إنْ كَانَ آباؤكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[6] وقال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»[7]

---

(١) سورة يونس آية ٥٨.
(٢) سورة الرعد آية ٣٦.
(٣) سورة التوبة آية ١٢٤.
(٤) سورة آل عمران آية ٣١.
(٥) سبق تخريجه ص.
(٦) سورة التوبة آية ٢٤.
(٧) سبق تخريجه ص.

وفي حديث الترمذي وغيره «من أحبَّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»[1] وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[2] فالذين آمنوا أشد حبا لله، من كل محب لمحبوبه.

والمقصود هنا أن أهل الإيمان يجدون بسبب محبتهم لله ولرسوله من حلاوة الإيمان ما يناسب هذه المحبة، ولهذا علق النبي ﷺ ما يجدونه فقال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**»[3].

ومن ذلك ما يجدونه من ثمرة التوحيد والإخلاص. والتوكل والدعاء لله وحده.

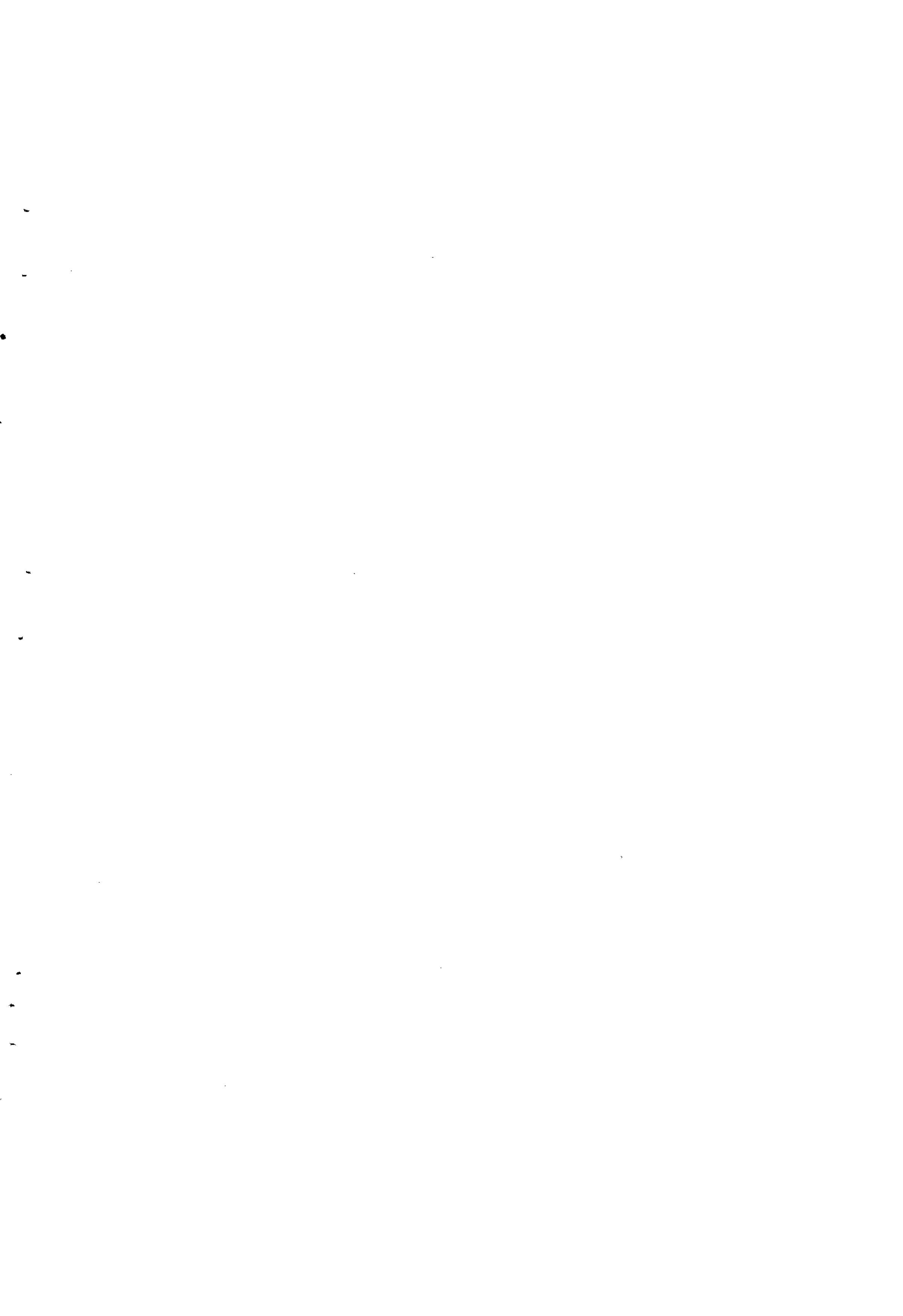
فلما قال الشيخ الإمام ما قال هدأت نفسه وسكن صدره فارتاح لما بلغ وما نصح ثم حمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله صلوات الله وسلامه عليه، وختم المجلس مع الدعاء أن يجمعه الله والسادة الحضور والقراء الكرام.

---

(١) سبق تخريجه ص

(٢) سورة البقرة آية ١٦٥.

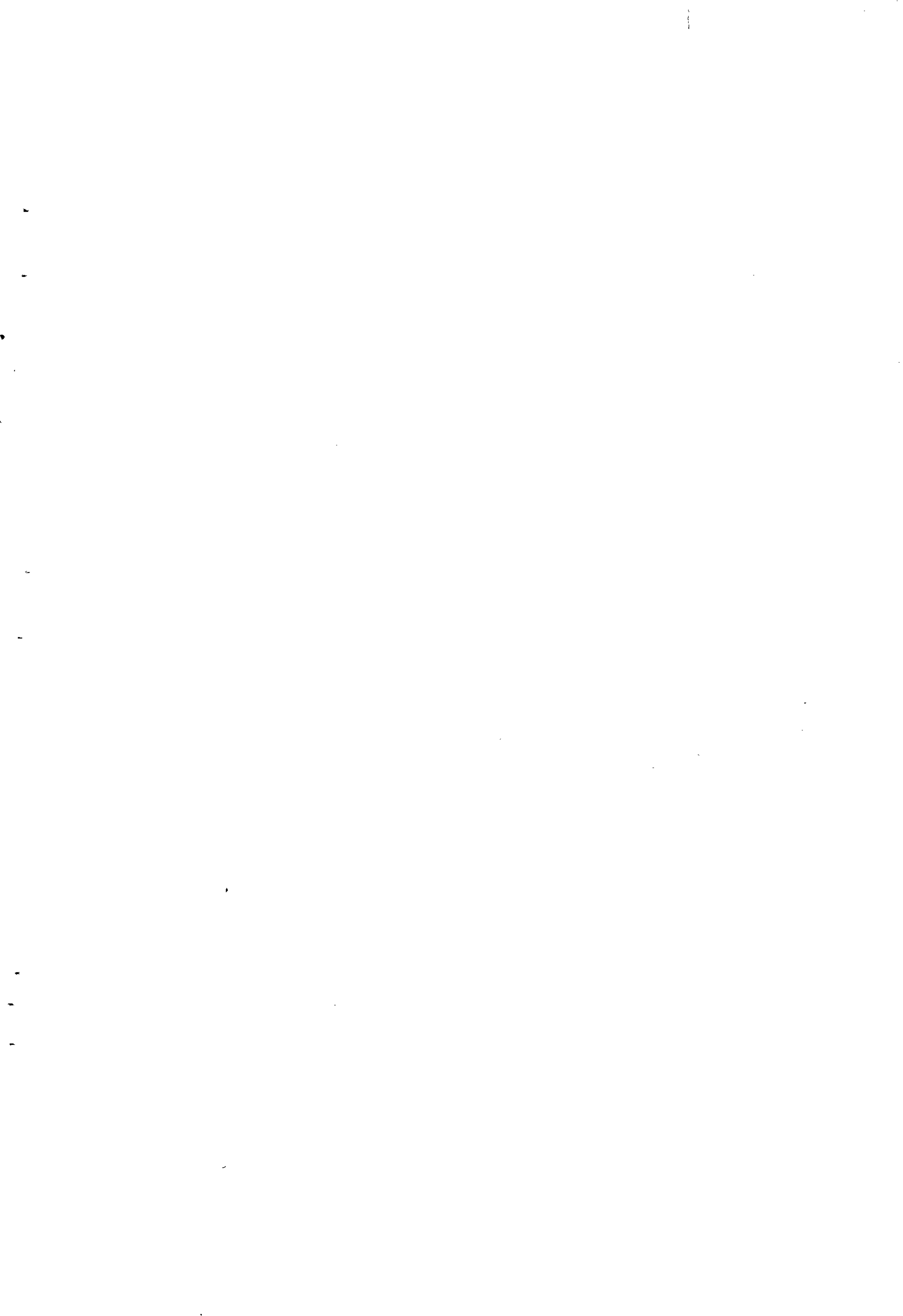
(٣) سبق تخريجه ص



المجلس الثامن عشر

جاذبية الحب

- الحب لذات الله
- الحب لغير الله وثماره المرة
- من ثمار محبة التوحيد



المجلس الثامن عشر
جاذبية الحب

حضر الإمام مجلس اليوم بشوشا مسفر الوجه كعادته، طلع المحيا خفيف الظل سريع البديهة، تلمح الذكاء النادر في بريق عينيه، إذا تحدث ظننت أنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم.

ينفعل بالحديث كأنه المعني في كل أمر، فإذا تكلم عن مرض من أمراض القلوب شعرت بالأسى يعصره عصرا، كأن المرض فيه أو في قريب عزيز عليه، وإذا تحدث عن سوء أو ظلم أو منكر واقع، احمر وجهه وانتفخت أوداجه وعلا صوته. لا يخشى في الله لومة لائم، ولا يتردد في إزالة الظلم والمنكر إذا كان في وسعه، فسرعان ما يطرق باب والٍ أو حاكم.

شيخ الإسلام ابن تيمية علم العلماء وعالمهم، ورجل الجماهير، خبير بالناس وعللهم وأمراضهم ومشاكلهم، وتلمس ذلك كله في حديثه، فإنه لا يحدث من كتب قرأها بقدر ما هي خبرة وحنكة ومعايشة لواقع الناس وأحوالهم.

ورجل من هذا الطراز الفريد حري إن حدث أن يسمع له، وإذا أرشد ووجه أن يمتثل إرشاده وتوجيهه.

وها هو الذي نتحدث عنه يأخذ مجلسه، رافع الرأس، بارز الصدر، تسبق هيبته قوله، قال رضي الله عنه: الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

أما بعد، فيا أحبائي الكرام وأعزائي القراء، أحدثكم اليوم عن الحب وجاذبيته فما منكم إلا محب ومحبوب، وما منا من أحد إلا وهو محتاج إلى حب فوق كل حب، ولا يدانيه ولا يساويه ولا يقرب منه حب، إنه حب الله تبارك وتعالى وحب رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

فاسمعوا مني ما أقول فإنها حصيلة علم ودراية وتجارب وإمعان نظر في نصوص كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه أسأل الله أن تنفعكم. فأقول وبالله وحده أستعين:

الحب لذات الله

إن المِحبَّ يجذب، والمُحَبَّ يجذب، فمن أحب شيئا جذبه إليه بحسب قوته، ومن أحب صورة جذبته تلك الصورة إلى المحبوب الموجود في الخارج بحسب قوته، فإن المحب علته فاعلية، والمحبوب علته غائية، وكل منهما له تأثير في وجود المعلول، والمحب إنما يجذب المحبوب بما في قلب المحب من صورته التي يتمثلها، فتلك الصورة تجذبه بمعنى انجذابه إليها، لا أنها هي في نفسها قصد وفعل، فإن في المحبوب من المعنى المناسب ما يقتضي انجذاب المحب إليه كما ينجذب الإنسان إلى الطعام ليأكله، وإلى امرأة ليباشرها، وكما تنجذب قلوب المحبين لله ورسوله إلى الله ورسوله، والصالحين من عباده لما اتصف به سبحانه من الصفات التي يستحق لأجلها أن يحب ويعبد.

بل لا يجوز أن يُحَبَّ شيء من الموجودات لذاته إلا هو سبحانه وبحمده، فكل محبوب في العالم إنما يجوز أن يحب لغيره لا لذاته، والرب تعالى هو الذي يجب أن يحب لنفسه، وهذا من معاني إلهيته و ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1] فإن محبة الشيء لذاته شرك، فلا يحب لذاته إلا الله، فإن ذلك من خصائص إلهيته، فلا يستحق ذلك إلا الله وحده، وكل محبوب سواه إن لم يحب لأجله أو لما يحب لأجله فمحبته فاسدة.

والله تعالى خلق في النفوس حب الغذاء، وحب النساء، لما في ذلك من حفظ

---

(١) سورة الأنبياء آية ٢٢.

الأبدان وبقاء الإنسان؛ فإنه لولا حب الغذاء لما أكل الناس ففسدت أبدانهم، ولولا حب النساء لما تزوجوا فانقطع النسل والمقصود بوجود ذلك بقاء كل منهم ليعبدوا الله وحده، ويكون هو المحبوب المعبود لذاته الذي لا يستحق ذلك غيره.

وإنما تحب الأنبياء والصالحون تبعا لمحبته، فإن من تمام حبه حب ما يحبه، وهو يحب الأنبياء والصالحين، ويحب الأعمال الصالحة، فحبها لله هو من تمام حبه، وأما الحب معه فهو حب المشركين الذين يحبون أندادهم كحب الله، فالمخلوق إذا أحب لله كان حبه جاذبا إلى حب الله، وإذا تحاب الرجلان في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، كان كل منهما جاذبا للآخر إلى حب الله، كما قال تعالى: «حقت محبتي للمتحابين فيّ، وحقت محبتي للمتجالسين فيّ، وحقت محبتي للمتباذلين فيّ، وإن لله عبادا ليسوا بأنبياء، ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء بقربهم من الله، وهم قوم تحابوا بروح الله على غير أموال يتباذلونها، ولا أرحام يتواصلون بها، إن لوجوههم لنورا، وإنهم لعلى كراسٍ من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس»[1].

فإنك إذا أحببت الشخص لله كان الله هو المحبوب لذاته، فكلما تصورته في قلبك تصورت محبوب الحق فأحببته، فازداد حبك لله. كما إذا ذكرت النبي ﷺ، والأنبياء قبله، والمرسلين وأصحابهم الصالحين، وتصورتهم في قلبك، فإن ذلك يجذب

(١) هما حديثان الأول من حديث معاذ والثاني من حديث أبي هريرة ومن حديث عمر فأما حديث معاذ فأخرجه أحمد (٢٣٣/٥) ومالك (٢٣٦/٢) وصححه ابن حبان (موارد ٢٥١٠) والحاكم (١٦٨/٤-١٦٩).
ولفظه «حقت محبتي على المتزاورين في، وحقت محبتي على المتحابين في، وحقت محبتي على المتناصحين في، وحقت محبتي على المتباذلين في، هم على منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء والصديقون.
وأما حديث أبي هريرة فأخرجه ابن حبان (موارد ٢٥٠٨) ولفظه «إن من عباد الله عبادا ليسوا بأنبياء، يغبطهم الأنبياء والشهداء، قيل: من هم؟ لعلنا نحبهم، قال «هم قوم تحابوا بنور الله من غير أرحام ولا أنساب، وجوههم نور على منابر من نور لا يخافون اذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس. ثم قرأ ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ وحديث عمر بنحوه أخرجه أبو داود.

قلبك إلى محبة الله المنعم عليهم، وبهم، إذا كنت تحبهم لله، فالمحبوب لله يجذب إلى محبة الله، والمحب لله إذا أحب شخصا لله فإن الله هو محبوبه، فهو يحب أن يجذبه إلى الله تعالى، وكل من المحب لله والمحبوب لله يجذب إلى الله.

ثم سكت الشيخ قليلا، فقلت: يا إمامنا، هذا عن الحب لله وفي الله، فما بال الحب اذا كان لغير الله هل يتحقق لهما الحب وهل ينفعهما في الآخرة؟

قال الإمام: إذا كان الحب لغير الله، كما إذا أحب كل من الشخصين الآخر بصورة: كالمرأة مع الرجل، فإن المحّب يطلب المحبوب والمحبوب يطلب المحَّب، بانجذاب المحبوب، فإذا كانا متحابين صار كل منهما جاذبا مجذوبا من الوجهين، فيجب الاتصال، ولو كان الحب من أحد الجانبين لكان المحب يجذب المحبوب والمحبوب يجذبه، لكن المحبوب لا يقصد جذبه، والمحب يقصد جذبه وينجذب.

وهذا «سبب التأثير في المحبوب» إما تمثُّل يحصل في قلبه فينجذب، وإما أن ينجذب بلا محبة، كما يأكل الرجل الطعام، ويلبس الثوب، ويسكن الدار، ونحو ذلك من المحبوبات التي لا إرادة لها.

الحب لغير الله وثماره المرة:

وقد يكون الحب للمنفعة والإحسان وقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها، لكن هذا في الحقيقة إنما هو محبة الإحسان، لا نفس المحسن، ولو قطع ذلك لاضمحل ذلك الحب وربما أعقب بغضا، فإنه ليس لله عز وجل.

فإن من أحب إنسانا لكونه يعطيه، فما أحب إلا العطاء، ومن قال: إنه يحب من يعطيه لله فهذا كذب ومحال وزور من القول، وكذلك من أحب إنسانا لكونه ينصره إنما أحب النصر لا الناصر. وهذا كله من اتباع ما تهوى الأنفس، فإنه لَم يحب في الحقيقة إلا ما يصل إليه من جلب منفعة أو دفع مضرة، فهو إنما أحب تلك المنفعة ودفع المضرة، وإنما أحب ذلك لكونه وسيلة إلى محبوبه، وليس هذا حبا لله ولا لذات المحبوب.

قلت وهل يثاب الخلق على هذا الحب؟

قال الإمام: هذا الحب لا يثابون عليه في الآخرة ولا ينفعهم؛ بل ربما أدى ذلك إلى النفاق والمداهنة، فكانوا في الآخرة من الأخلاء الذين بعضهم لبعض عدو إلا المتقين. وإنما ينفعهم في الآخرة الحب في الله ولله وحده، وأما من يرجو النفع والنصر من شخص ثم يزعم أنه يحبه لله فهذا من دسائس النفوس ونفاق الأقوال.

وإنما ينفع العبد الحب لله لما يحبه الله من خلقه كالأنبياء والصالحين لكون حبهم يقرب إلى الله ومحبته وهؤلاء هم الذين يستحقون محبة الله لهم.

ونبينا كان يعطي المؤلفة قلوبهم ويدع آخرين هم أحب إليه من الذي يعطي؛ يكلهم إلى ما في قلوبهم من الإيمان، وإنما كان يعطي المؤلفة قلوبهم لما في قلوبهم من الهلع والجزع؛ ليكون ما يعطيهم سببا لجلب قلوبهم إلى أن يحبوا الإسلام فيحبوا الله، فكان مقصوده بذلك دعوة القلوب إلى حب الله عز وجل وصرفها عن ضد ذلك؛ ولهذا كان يعطي أقواما خشية أن يكبهم الله على وجوههم في النار فمنعهم بذلك العطاء عما يكرهه منهم فكان يعطي لله ويمنع لله. وقد قال: «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان»[1] وفي صحيح البخاري عنه ﷺ أنه قال: «**إني والله إنما أنا قاسم لا أعطي أحدا ولا أمنع أحدا ولكن أضع حيث أمرت**»[2].

وصورة المحبوب المتمثلة في النفس يتحرك لها المحب ويريد لها ويحب ويبغض ويبتهج وينشرح عند ذكرها من أي جنس كانت، فتبقى هي كالآمر الناهي له؛ ولهذا يجد في نفسه كأنها تخاطبه بأمر ونهي وغير ذلك كما يرى كثير من الناس من يحبه ويعظمه في منامه وهو يأمره وينهاه ويخبره بأمور.

والمشركون تتمثل لهم الشياطين في صور من يعبدونه تأمرهم وتنهاهم.

وأصل هذا أنهم تعبدوا بما تحبه النفس؛ وأما العبادة بما يحبه الله ويرضاه فلا يحبونه ولا يريدونه وحده، ويرون أنهم إذا عبدوا الله بما أمر به ورسله حطٌّ لهم عن منصب الولاية، فيُحْدِثون محبةً قويةً وتألُّهاً وعبادةً وشوقاً وزهداً: ولكن فيه شرك وبدعة.

---

(١) سبق تخريجه ص

(٢) اخرجه احمد (٢/٤٨٢) من حديث أبي هريرة بلفظ «والله ما أعطيكم ولا أمنعكم وإنما أنا قاسم أضعه حيث أمرت.»

من ثمار محبة التوحيد:

ثم قال الشيخ خاتما مجلسه ببيان معنى محبة التوحيد.

وأما محبة «التوحيد» فإنما تكون لله وحده على متابعة رسوله؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[1] فلهذا يكون أهل الاتباع فيهم جهاد ونية في محبتهم؛ يحبون لله، ويبغضون له. وهم على ملة إبراهيم. والذين معه ﴿قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[2] وأولئك محبتهم فيها شرك وليسوا متابعين للرسول، ولا مجاهدين في سبيل الله، فليست هي المحبة الإخلاصية. فإنها مقرونة بالتوحيد. ولهذا سمى أبو طالب المكي[3] كتابَهُ «قوتُ القلوبِ في معاملة المحبوب ووصفَ طريقِ المريد إلى مقام التوحيد».

وإلى هنا أنهى الشيخ مجلسه على أمل ودعاء أن يجمعنا الله وإياه في المجلس القادم إن شاء وقدر.

---

(١) سورة آل عمران آية ٣١.

(٢) سورة الممتحنة آية ٤.

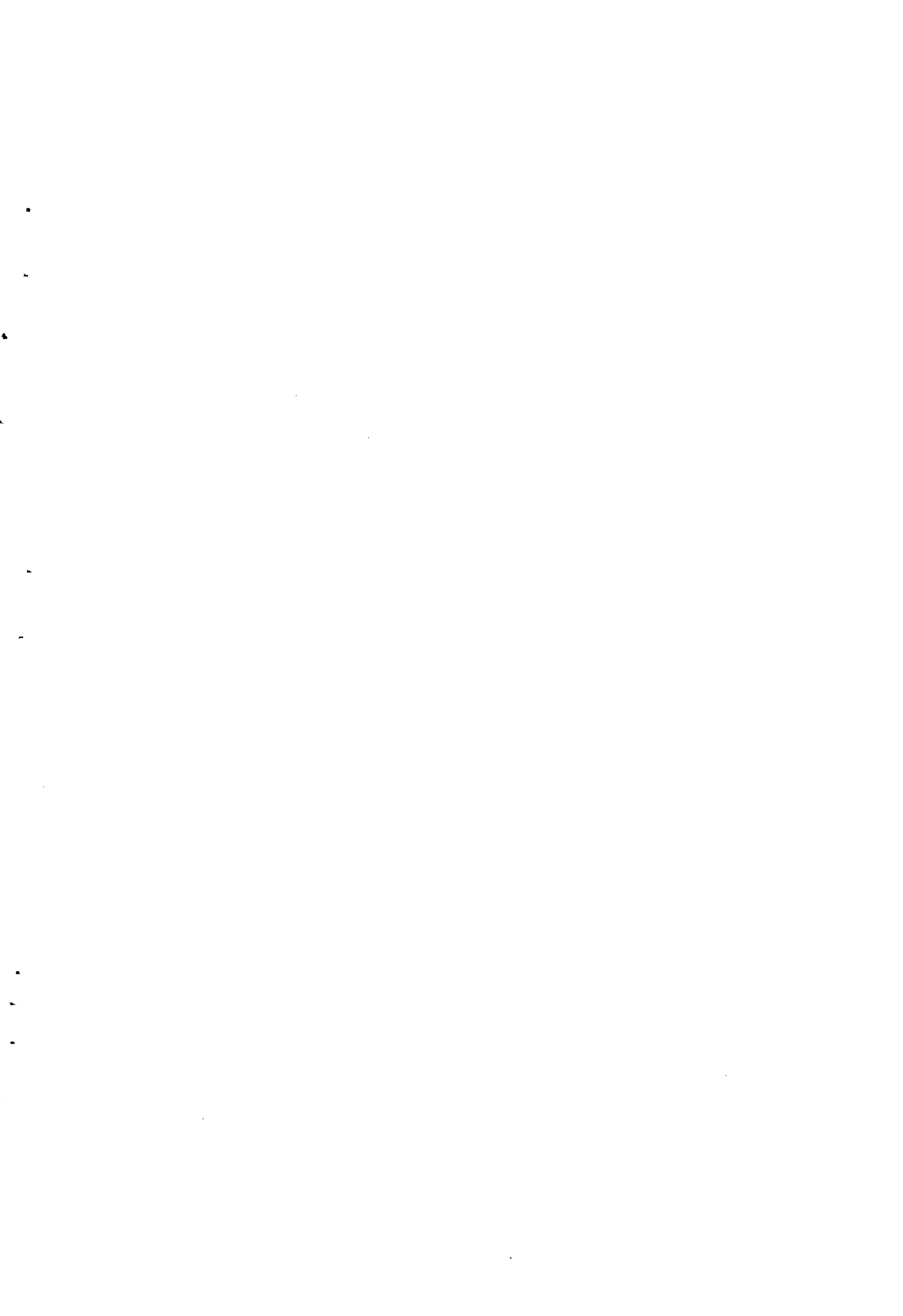
(٣) أبو طالب المكي هو محمد بن علي بن عطية الحارثي. واعظ، زاهد، فقيه، من أهل الجبل (بين بغداد وواسط) نشأ واشتهر بمكة، ورحل الى البصرة واتهم بالاعتزال وسكن بغداد وحفظ عنه الناس أقوالا هجروه من أجلها له كتاب «قوت القلوب» في التصوف مات ببغداد سنة ٣٨٦هـ الأعلام ١٥٩/٧ ط-٣.

المجلس التاسع عشر



أعمال القلوب

- أعمال القلوب ودرجات الناس فيها
- المحبون لله قد يقعون في بعض المعاصي
- الصدق فارق بين المؤمن والمنافق
- الصدق في الأقوال والأعمال
- الأمور القلبية أصل الدين



المجلس التاسع عشر
أعمال القلوب

حديث الشيخ الإمام اليوم عن أعمال القلوب لا عن أمراضها وعلاجها، وقد استخدم الشيخ عبارة «أعمال القلوب» ليبين خصوصية هذا العمل للقلوب فحسب. وقد سبق أن تحدث الشيخ في بعضها من جهة كونها شفاء أو علة، وهنا يتعرض لها الشيخ بصفة العموم مع التركيز على أهمها. ولما أخذ الشيخ مقعده مشرفا على السادة الحضور من أقرانه العلماء وطلبة العلم والعامة قال: الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

ـ أعمال القلوب ودرجات الناس فيها:

أما بعد، فهذه كلمات مختصرة في أعمال القلوب، التي تسمى المقامات والأحوال وهي من أصول الإيمان وقواعد الدين، مثل محبة الله ورسوله، والتوكل على الله، وإخلاص الدين له، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له، وما يتبع ذلك. اقتضى ذلك بعض من أوجب الله حقه من أهل الإيمان، فأقول:

هذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق المأمورين في الأصل باتفاق أئمة الدين. والناس في هذا على ثلاث درجات، كما هم في أعمال الأبدان على ثلاث درجات: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات. فالظالم لنفسه العاصي بترك مأمور، وفعل محظور، والمقتصد المؤدي الواجبات والتارك المحرمات، والسابق بالخيرات المتقرب

بما يقدر عليه من واجب ومسنون، والتارك للمحرم والمكروه، وإن كان كل من المقتصد والسابق قد تكون له ذنوب تمحى عنه بتوبة، والله يحب التوابين ويحب المتطهرين، إما بحسنات ماحية، وإما بمصائب مكفرة، وإما بغير ذلك. وكل من الصنفين المقتصدين والسابقين من أولياء الله الذين ذكرهم في كتابه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾[1].

فأولياء الله هم المؤمنون المتقون، ولكن ذلك ينقسم إلى عام وهم المقتصدون وخاص وهم السابقون، وإن كان السابقون هم أعلى درجات كالأنبياء والصديقين، وقد ذكر النبي ﷺ القسمين في الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقول الله: من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه. وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه**»[2].

وأما الظالم لنفسه من أهل الإيمان ففيه من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه، كما معه من ضد ذلك بقدر فجوره. فالشخص الواحد قد تجتمع فيه الحسنات المقتضية للثواب، والسيئات المقتضية للعقاب، حتى يمكن أن يثاب ويعاقب، وهذا قول أصحاب رسول الله ﷺ وأئمة الإسلام وأهل السنة والجماعة الذين يقولون: إنه لا يخلد في النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان. وأما القائلون بالتخليد كالخوارج أو المعتزلة القائلين أنه لا يخرج من النار من دخلها من أهل القبلة، وأنه لا شفاعة للرسول ولا لغيره في أهل الكبائر، لا قبل دخول النار ولا بعدها، فعندهم لا يجتمع في الشخص الواحد ثواب وعقاب وحسنات وسيئات، بل من أثيب لا يعاقب ومن عوقب لم يثب.

---

(١) سورة يونس آية ٦٢.

(٢) سبق تخريجه.

ودلائل هذا الأصل من الكتاب والسنة وإجماع الأمة كثير ليس هذا هو موضعه، قد بسطناه في موضعه. وينبني على هذا أمور كثيرة.

ـ المحبون لله قد يقعون في بعض المعاصي:

قلت: يا إمامنا الأمر يحتاج إلى مزيد أمثلة وشواهد لا لشيء سوى اطمئنان القلوب على حلم الله وعفوه وكرمه.

قال الإمام: لكم ذلك فأقول لكم: إن من كان معه إيمان حقيقي فلا بد أن يكون معه من هذه الأعمال بقدر إيمانه وإن كان له ذنوب، كما رواه البخاري في «صحيحه» عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه **«أن رجلا كان يُسمّى حمارا، وكان يُضْحِكُ النبيَّ ﷺ، وكان يشرب الخمر ويجلده النبي ﷺ. فأُتي به مرة فقال رجل: لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به إلى النبي ﷺ، فقال ﷺ: لا تلعنه، فإنه يحب اللهَ ورسولَه»**[1].

فهذا بين أن المذنب بالشراب وغيره قد يكون محبا لله ورسوله، وحبُّ الله ورسوله أوثق عرى الإيمان، كما أن العابد الزاهد قد يكون ـ لما في قلبه من بدعة ونفاق ـ مسخوطا عند الله ورسوله من ذلك الوجه، كما استفاض في الصحاح وغيرها من حديث علي بن أبي طالب وأبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه ذكر الخوارج فقال: **«يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، أينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرا عند الله لمن قتلهم، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»**[2].

وهؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بأمر النبي ﷺ، وقال النبي ﷺ فيهم في الحديث الصحيح **«تمرق مارقة على خير فرقة من المسلمين يقتلهم أدنى الطائفتين»**[3] ولهذا قال أئمة المسلمين كسفيان الثوري[4]: إن البدعة أحب

---

(١) أخرجه البخاري. انظر جامع الأصول ٣/٥٩٤.

(٢) أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي. انظر جامع الأصول ١٠/٨٣.

(٣) أخرجه مسلم (٢/٧٤٥) من حديث أبي سعيد.

(٤) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري. أمير المؤمنين في الحديث ولد ونشأ في الكوفة، سكن مكة =

إلى إبليس من المعصية، لأن البدعة لا يُتاب منها، والمعصية يُتاب منها.

ولما أراد الشيخ أن يمر على هذه العبارة، قلت: لو أذن الإمام ببيان هذه العبارة لغموضها.

قال الإمام: معنى قولهم إن البدعة لا يتاب منها أن المبتدع الذي يتخذ دينا لم يشرعه الله ورسوله قد زين له سوء عمله فرآه حسنا فهو لا يتوب ما دام يراه حسنا، لأن أول التوبة العلم بأن فعله سيء ليتوب منه، أو أنه ترك حسنا مأمورا به أمر إيجاب أو أمر استحباب ليتوب ويفعله، فما دام يرى فعله حسنا وهو سيء في نفس الأمر فإنه لا يتوب، ولكن التوبة ممكنة وواقعة بأن يهديه الله ويرشده حتى يتبين له الحق، كما هدى سبحانه وتعالى من هدى من الكفار والمنافقين وطوائف أهل البدع والضلال، وهذا يكون بأن يتبع من الحق ما علمه: فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[1] وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[2]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾[3] وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[4] وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾[5] الآية. وشواهد هذا كثيرة في الكتاب والسنة. وكذلك من أعرض عن اتباع الحق الذي يعلمه تبعا لهواه فإن ذلك يورثه الجهل والضلال حتى يعمى قلبه عن الحق الواضح، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ

= والمدينة وانتقل إلى البصرة مستخفيا بعد طلبه المهدي فمات فيها سنة ١٦١هـ وله بعض كتب. الأعلام ١٥٨/٣.

(١) سورة محمد آية ١٧.

(٢) سورة النساء آيات ٦٦-٦٨.

(٣) سورة الحديد آية ٢٨.

(٤) سورة البقرة آية ٢٥٧.

(٥) سورة المائدة آية ١٥، ١٦.

ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[1] الآية، وقال تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾[3] الآية، وهذا استفهام نفي وإنكار، أي وما يدريكم أنها إذا جاءت لا يؤمنون وإنا ﴿نقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ على قراءة من قرأ إنها بالكسر تكون جزما بأنها ﴿إذا جاءت لا يؤمنون، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ ولهذا قال من قال من السلف كسعيد بن جبير:[4] إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها، وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال «**عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا. وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار. ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا**»[5].

ـ الصدق فارق بين المؤمن والمنافق:

قلت: مادام إمامنا قد ذكر أن الصدق من الحسنات التي تثمر الحسنات، وأنها سبب حينئذ لحياة القلب، فإنا في حاجة إلى مزيد بيان فيما يكون سببا في حياة القلوب. كما أننا بحاجة إلى معرفة التفرقة بين الصدق والإخلاص في هذا المضمار.

قال الإمام: هذا من حقكم فأقول وبالله التوفيق أخبر النبي ﷺ أن الصدق أصل

(١) سورة الصف آية ٥.
(٢) سورة البقرة آية ١٠.
(٣) سورة الأنعام آية ١٠٩، ١١٠.
(٤) أبو عبدالله سعيد بن جبير الأسدي بالولاء. أخذ العلم عن ابن عباس وابن عمر، ولما خرج عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث على عبدالملك بن مروان كان سعيد معه فقبض عليه وأرسل إلى الحجاج فقتله سنة ٩٥هـ الأعلام ١٤٥/٣.
(٥) أخرجه البخاري ومسلم. جامع الأصول ٤٤٢/٦.

يستلزم البر، وأن الكذب يستلزم الفجور، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[1] ولهذا كان بعض المشايخ إذا أمر متّبعيه بالتوبة وأحب ألا ينفر ويتعب قلبه أمره بالصدق، ولهذا يكثر في كلام مشايخ الدين وأئمته ذكر الصدق والإخلاص حتى يقولون: قل لمن لا يصدق لا يتبعني.

ويقولون: الصدق سيف الله في الأرض، ما وضع على شيء إلا قطعه. ويقول يوسف ابن أسباط وغيره: ما صدق الله عبد إلا صنع له. وأمثال هذا كثير. والصدق والإخلاص هما تحقيق الإيمان والإسلام، فإن المظهرين الإسلام ينقسمون إلى مؤمن ومنافق، فالفارق بين المؤمن والمنافق هو الصدق، كما في قوله ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ - إلى قوله - ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[3] فأخبر أن الصادقين في دعوى الإيمان هم المؤمنون الذين لم يتعقب إيمانهم به، وجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم، وذلك أن هذا هو العهد المأخوذ على الأولين والآخرين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾[4] الآية. قال ابن عباس: ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ليؤمنن به ولينصرنه[5]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[6]، فذكر تعالى أنه

---

(١) سورة الانفطار آية ١٣.

(٢) سورة الحجرات آية ١٤، ١٥.

(٣) سورة الحشر آية ٨.

(٤) سورة آل عمران آية ٨١.

(٥) مختصر تفسير ابن كثير ١/٢٩٦.

(٦) سورة الحديد آية ٢٥.

أنزل الكتاب والميزان. وأنه أنزل الحديد لأجل القيام بالقسط، وليعلم الله من ينصره ورسله، ولهذا كان قوام الدين بكتاب يهدي وسيف ينصر، وكفى بربك هاديا ونصيرا.

والكتاب والحديد وإن اشتركا في الإنزال فلا يمنع أن يكون أحدهما نزل من حيث لم ينزل الآخر، حيث نزل الكتاب من الله كما قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[1] وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[3]. والحديد أنزل من الجبال التي يخلق فيها. وكذلك وصف الصادقين في دعوى البر الذي هو جماع الدين في قوله:

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ -إلى قوله- أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[4].

أما المنافقون فوصفهم بالكذب في آيات متعددة كقوله: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾[5] وقوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾[6] وقال: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾[7] ونحو ذلك من القرآن كثير.

ـ الصدق في الأقوال والأعمال:

فلما سكت الإمام قليلا قلت: يا إمامنا هذا الصدق الذي حدثتنا عنه، ورغبتنا أن نكون

---

(١) سورة الزمر آية ١.
(٢) سورة هود آية ١.
(٣) سورة النمل آية ٦.
(٤) سورة البقرة آية ١٧٧.
(٥) سورة البقرة آية ١٠.
(٦) سورة المنافقون آية ١.
(٧) سورة التوبة آية ٧٧.

من الصادقين ونحن جميعا كذلك إن شاء الله، هل هو قاصر على عمل القلب في جانب الأقوال أم أن الصدق يكون أيضا في الأفعال؟

قال الإمام: اعلموا يا أحبائي وأعزائي الكرام أن مما ينبغي أن يعرف، أن الصدق والتصديق يكون في الأقوال والأعمال، كقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح «**كُتِبَ على ابن آدم حظّه من الزنا، فهو مدركٌ ذلك لا محالة: فالعينان تزنيان وزناهما النظر، والأذنان تزنيان وزناهما السمع، واليدان تزنيان وزناهما البطش، والرِّجْلان تزنيان وزناهما المشي، والقلب يتمنى ويشتهي، والفرج يصدق ذلك ويكذبه**»[1] ويقال: حملوا على العدو حملة صادقة إذا كان إرادتهم القتال ثابتة صادقة، ويقال: فلان صادق الحب والمودة ونحو ذلك. ولهذا يراد بالصادق الصادق في إرادته وقصده وطلبه، وهو الصادق في عمله ويريدون الصادق في خبره وكلامه. والمنافق ضد المؤمن الصادق، وهو الذي يكون كاذبا في خبره أو كاذبا في عمله. كالمرائي في عمله. قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ**﴾[2] الآيتين.

ـ الأمور القلبية أصل الدين:

فلما أنهى الشيخ الحديث عن الصدق، انتقل بنا إلى الإخلاص فقال:

أما (الإخلاص) فهو حقيقة الإسلام، إذ الإسلام هو الاستسلام لله لا لغيره كما قال تعالى: ﴿**ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ**﴾[3]؟ الآية. فمن لم يستسلم له فقد استكبر، ومن استسلم لله ولغيره فقد أشرك، وكل من الكبر والشرك ضد الإسلام، والإسلام ضد الشرك والكبر. وذلك في القرآن كثير، ولهذا كان الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، وهي متضمنة عبادة الله

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٧).

(٢) سورة النساء آية ١٤٣، ١٤٤.

(٣) سورة الزمر آية ٢٩.

وحده، وترك عبادة ما سواه، وهو الإسلام العام الذي لا يقبل الله من أحد من الأولين والآخرين دينا سواه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[1] وقال: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾[2] وهذا الذي ذكرنا مما يبين أن أصل الدين في الحقيقة هو الأمور الباطنة من العلوم والأعمال، وأن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونها، كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه أحمد في «مسنده» «الإسلام علانية، والإيمان في القلب»[3] ولهذا قال النبي ﷺ **«الحلال بين والحرام بين، وبين ذلك أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه. ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه. ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، وهي القلب»**[4] وعن أبي هريرة قال «القلب ملك والأعضاء جنوده. فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث خبثت جنوده».

وإلى هنا وقف الشيخ عن الكلام لعل سائلا يسأل، فلما لم يكن من أحد سؤال أنهى الشيخ مجلسه بالحمد والثناء على الله تبارك وتعالى والصلاة على رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) سورة آل عمران ٨٥.

(٢) سورة آل عمران آية ١٨، ١٩.

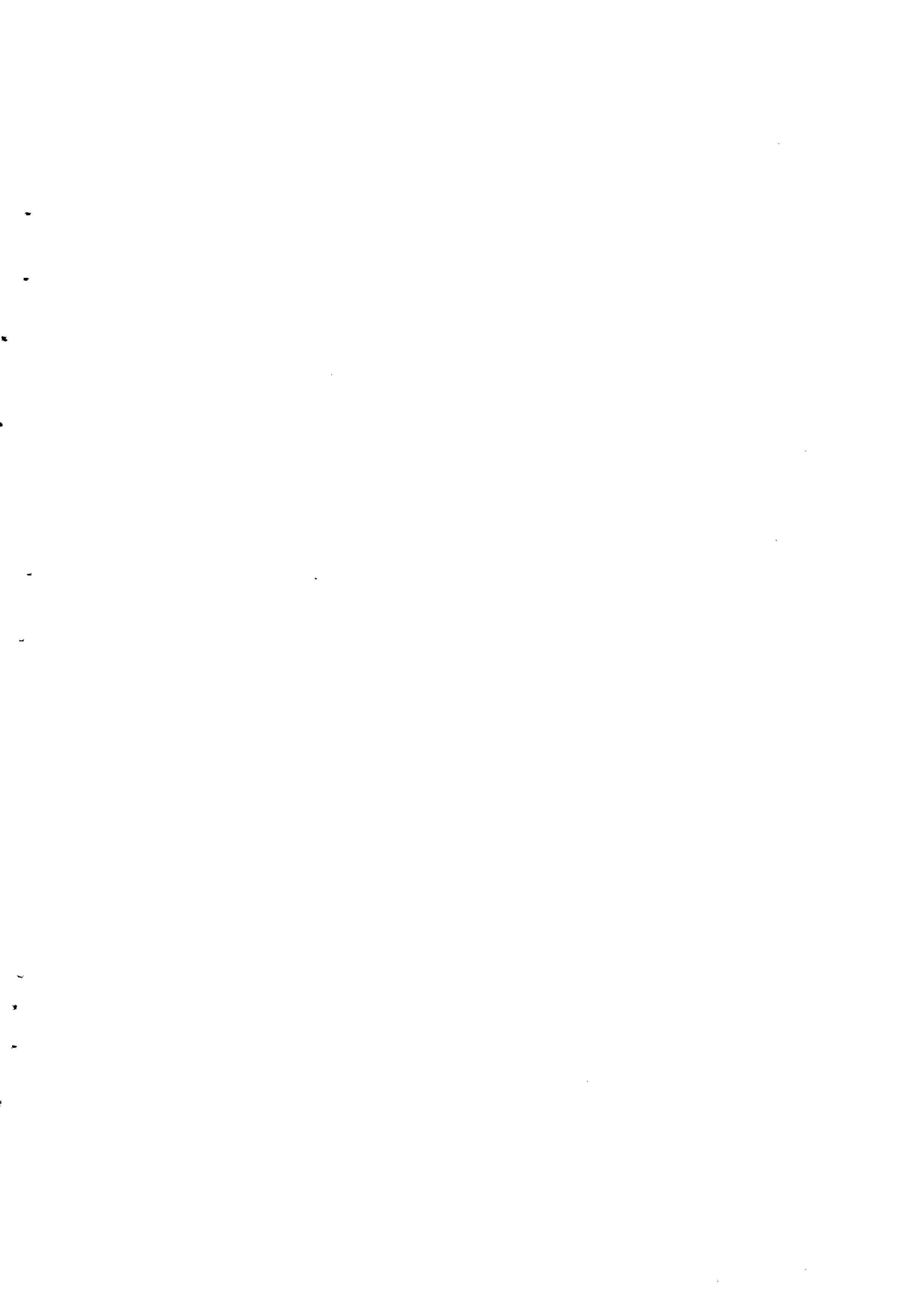
(٣) ضعيف الجامع الصغير (٢٢٨٠).

(٤) مختصر صحيح الإمام البخاري رقم ٣٩.

المجلس العشرون

الناس كلهم مطالبون بأعمال القلوب

- أعمال القلوب مأمور بها كل الناس
- أخطاء تستحق التصحيح
- المقادير لا تتنافى مع الأعمال
- الأمر الديني والأمر الكوني



المجلس العشرون
أعمال القلوب مطلوبة من الناس أجمعين

حضر الإمام العالم الحبر العلامة الحافظ الخاشع القانت، إمام الأئمة، ورباني الأمة شيخ الإسلام، بقية الأعلام تقي الدين خاتمة المجتهدين، أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية الحراني. وأخذ مجلسه بين القوم في مقعد يشرف فيه ليرى من كل صوب، والرؤية سبب لحضور القلب وانفعال الجوارح وقد اكتمل الحضور مبكرا قبل جلوس الشيخ، كعادة المجالس العلمية تقديرا واحتراما للعلم والعلماء. وما هي إلا لحظات حتى سمع صوت الشيخ يقطع السكون: الحمدلله الذي بعث النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كما شهد هو سبحانه وتعالى أن لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي ختم به أنبياءه، وهدى به أولياءه، وبعثه بقوله في القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1] صلى الله عليه أفضل صلاة وأكمل تسليم.

أما بعد: فإن حديثي إليكم أيها الأحباب الحضور والقراء الأعزاء عن أعمال

(١) سورة التوبة آية ١٢٨، ١٢٩.

القلوب من جهة أنها مأمور بها فيما هو محمود من الأمور، لا فرق في ذلك بين الخاصة والعامة، وسأبين لكم خطأ من زعم خلاف ذلك، فادعى الفرق، فأقول وبالله وحده التسديد.

أعمال القلوب مأمور بها كل الناس

إن الأعمال الباطنة ـ كمحبة الله والإخلاص له والتوكل عليه والرضا عنه ونحو ذلك ـ كلها أمور مأمور بها في حق الخاصة والعامة، لا يكون تركها محمودا في حال واحد وإن ارتقى مقامة. وأما الحزن فلم يأمر الله به ولا رسوله، بل قد نهى عنه في مواضع وإن تعلق أمر الدين به كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1] وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[2] وقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[3] وقوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾[4] وقوله: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[5] وأمثال ذلك كثيرة. وذلك أنه لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة ولا فائدة فيه، وما لا فائدة فيه لا يأمر الله به، نعم لا يأثم صاحبه إذا لم يقترن بحزنه محرم كما يحزن على المصائب كما قال النبي ﷺ: «إن الله لا يؤاخذ على دمع العين ولا حزن القلب، ولكن يؤاخذ على هذا ويرحم ـ وأشار بيده إلى لسانه»[6] وقال «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي الرب»[7] ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[8] وقد يقترن بالحزن ما يثاب صاحبه عليه ويحمد عليه ويكون محمودا من تلك الجهة لا من جهة الحزن، كالحزين على مصيبة في دينه وعلى مصائب المسلمين عموما، فهذا يثاب على ما في قلبه من حب الخير وبغض الشر وتوابع ذلك.

(١) سورة آل عمران آية ١٣٩.
(٢) سورة النحل آية ١٢٧.
(٣) سورة التوبة آية ٤٠.
(٤) سورة يونس آية ٦٥.
(٥) سورة الحديد آية ٢٣.
(٦) أخرجه الشيخان. أنظر جامع الأصول ١١/١٠١.
(٧) أخرجه الشيخان وأبو داود مع اختلاف في اللفظ. جامع الأصول ١١/٨٩.
(٨) سورة يوسف ٨٤.

ولكن الحزن على ذلك إذا أفضى إلى ترك مأمور من الصبر والجهاد وجلب منفعة ودفع مضرة منهي عنها، وإلا كان حسب صاحبه رفع الإثم عنه من جهة الحزن، وأما إن أفضى إلى ضعف القلب واشتغاله به عن فعل ما أمر الله ورسوله به كان مذموما عليه من تلك الجهة، وإن كان محمودا من جهة أخرى.

وأما المحبة لله والتوكل والإخلاص له ونحو ذلك فهذه كلها خير محض، وهي حسنة محبوبة في حق كل النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. ومن قال إن هذه المقامات تكون للعامة دون الخاصة فقد غلط في ذلك إن أراد خروج الخاصة عنها، فإن هذه لا يخرج عنها مؤمن قط، وإنما يخرج عنها كافر ومنافق.

أخطاء تستحق التصحيح:

ولما عرَّض الشيخ هنا بكلام بعض الصوفية في هذا المقام رغبنا في المزيد، فقلت: يا إمامنا رأى فضيلتكم في تقسيم الصوفية الناس في هذه المقامات إلى خصوص وعموم، فللخاصة خاصها، وللعامة عامها، فقالوا: إن التوكل مناضلة عن النفس في طلب القوت، والخاص لا يناضل عن نفسه، وقالوا: المتوكل يطلب بتوكله أمرا من الأمور، والعارف يشهد الأمور بفروغه منها فلا يطلب شيئا.

قال الإمام وقد بدا عليه التحفز للإجابة كعادته فيما يتعلق بأخطاء الصوفية خاصة: أقول وبالله التوفيق:

أما الأول: فإن التوكل أعم من التوكل في مصالح الدنيا، فإن المتوكل يتوكل على الله في صلاح قلبه ودينه وحفظ لسانه وإرادته، وهذا أهم الأمور إليه، ولهذا يناجي ربه في كل صلاة بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(1) كما في قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾(2) وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(3) فهو قد جمع بين العبادة والتوكل في عدة مواضع،

---

(1) سورة الفاتحة اية ٥.

(2) سورة هود آية ١٢٣.

(3) سورة الشورى آية ١٠).

لأن هذين يجمعان الدين كله، ولهذا قال من قال من السلف: إن الله جمع الكتب المنزلة في القرآن، وجمع علم القرآن في المفصل، وجمع علم المفصل في فاتحة الكتاب، وجمع علم فاتحة الكتاب في قوله: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾، وهاتان الكلمتان الجامعتان اللتان للرب والعبد كما في الحديث الصحيح الذي في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقول الله سبحانه: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، نصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، قال رسول الله ﷺ: يقول العبد: الحمد لله ربّ العالمين، يقول الله: حمدني عبدي. يقول العبد: الرحمن الرحيم، يقول الله: أثنى علي عبدي. يقول العبد: مالك يوم الدين، يقول الله: مجدني عبدي، يقول العبد: إياك نعبد وإياك نستعين، يقول الله: فهذه الآية بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. يقول العبد: اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، يقول الله: فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل**»[1].

فالرب سبحانه له نصف الثناء والخير، والعبد له نصف الدعاء والطلب، وهاتان جامعتان ما للرب سبحانه وما للعبد، فإياك نعبد للرب وإياك نستعين للعبد. وفي الصحيحين عن معاذ رضي الله عنه قال: «كنت رديفا للنبي ﷺ على حمار فقال: يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد؟ قلت الله ورسوله أعلم. قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به»[2] والعبادة هي الغاية التي خلق الله لها العباد من جهة أمر الله ومحبته ورضاه كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[3]، وبها أرسل الرسل وأنزل الكتب، وهي اسم يجمع كمال الذل ونهايته وكمال الحب لله ونهايته، فالحب الخلي عن ذل والذل الخلي عن حب لا يكون عبادة، وإنما العبادة ما يجمع كمال الأمرين، ولهذا كانت العبادة لا تصلح إلا لله، وهي وإن كانت منفعتها للعبد والله غني عنها فهي له من جهة محبته

---

(١) مختصر صحيح مسلم /٢٨١.

(٢) مختصر صحيح مسلم رقم ١٣.

(٣) سورة الذاريات آية ٥٦

لها ورضاه بها، ولهذا كان الله أشد فرحا بتوبة العبد من الفاقد لراحلته عليها طعامه وشرابه في أرض دوية مهلكة إذا نام آيسا منها ثم استيقظ فوجدها، فالله أشد فرحا بتوبة عبده من هذا براحلته.

والتوكل والاستعانة للعبد لأنه هو الوسيلة والطريق الذي ينال به مقصوده ومطلوبه من العبادة، فالاستعانة كالدعاء والمسألة. عن النبي ﷺ قال: **«يابن آدم إنما هي أربع واحدة لي، وواحدة لك وواحدة بيني وبينك، وواحدة بينك وبين خلقي. فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئا، وأما التي هي لك فعملك أجازيك به أحوج ما تكون إليه، وأما التي بيني وبينك فمنك الدعاء وعلي الاجابة، وأما التي بينك وبين خلقي فأت للناس ما تحب أن يأتوا إليك»**[1]

وكون هذا لله وهذا للعبد هو اعتبار تعلق المحبة والرضاء ابتداء، فإن العبد ابتداء يحب ويريد ما يراه ملائما له، والله تعالى يحب ويرضى ما هو الغاية المقصودة في رضاه، وحبه الوسيلة تبعا لذلك، وإلا فكل مأمور به فمنفعته عائدة على العبد وكل ذلك يحبه الله ويرضاه.

وعلى هذا فالذي ظن أن التوكل من المقامات العامة ظن أن التوكل لا يطلب به إلا حظوظ الدنيا، وهو غلط، بل التوكل في الأمور الدينية أعظم، وأيضا التوكل في الأمور الدينية التي لا تتم الواجبات والمستحبات إلا بها، والزاهد فيها زاهد فيما يحبه الله ويأمر به ويرضاه، والزهد المشروع هو ترك الرغبة فيما لا ينفع في الدار الآخرة، وهو فضول المباح التي لا يستعان بها على طاعة الله، كما أن الورع المشروع هو ترك ما قد يضر في الدار الآخرة وهو ترك المحرمات والشبهات التي لا يستلزم تركها ترك ما فعله أرجح منها كالواجبات، فأما ما ينفع في الدار الآخرة بنفسه أو على ما ينفع في الدار الآخرة فالزهد فيه ليس من الدين بل صاحبه داخل في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[2] كما أن الاشتغال بفضول المباحات هو ضد الزهد المشروع، فإن اشتغل بها عن واجب

---

(١) رواه الطبراني في كتاب الدعاء (١٦) من حديث أنس وفي اسناده صالح المري وهو ضعيف.
(٢) سورة المائدة آية ٨٧.

أو اشتغل بفعل محرم كان عاصيا، وإلا كان منقوصا عن درجة المقربين إلى درجة المقتصدين. وأيضا فالتوكل هو محبوب لله مرضي مأمور به دائما، وما كان محبوبا لله مرضيا مأمورا به دائما لا يكون من فعل المقتصدين دون المقربين. فهذه ثلاثة أجوبة عن قولهم المتوكل لا يطلب حظوظه.

المقادير لا تتنافى مع الأعمال:

ولما سكت الشيخ وقد بدا أنه كان منفعلا في إجابته، استثمرنا سكوته ليرد على قول بعض الصوفيين إن الأمور قد فرغ منها إشارة منهم إلى أن الأمور بالمقادير دون نظر منهم للأسباب فقال الإمام:

أما قولهم الأمور قد فرغ منها، فهذا نظير ما قاله بعضهم في الدعاء أنه لا حاجة إليه، لأن المطلوب إن كان مقدرا فلا حاجة إليه، وإن لم يكن مقدرا لم ينفع. وهذا القول من أفسد الأقوال شرعا وعقلا، وكذلك قول من قال: التوكل والدعاء لا يجلب به منفعة ولا يدفع به مضرة، وإنما هو عبادة محضة، وإن حقيقة التوكل بمنزلة حقيقة التفويض المحض. وهذا وإن كان قاله طائفة من المشايخ فهو غلط أيضا. وكذلك قول من قال: الدعاء إنما هو عبادة محضة. فهذه الأقوال وما أشبهها يجمعها أصل واحد، وهو أن هؤلاء ظنوا أن كون الأمور مقدرة مقضية يمنع أن يتوقف على أسباب مقدرة أيضا تكون من العبد، ولم يعلموا أن الله سبحانه يقدر الأمور ويقضيها بالأسباب التي جعلها معلقة بها من أفعال العباد وغير أفعالهم، ولهذا كان قولهم يوجب تعطيل الأعمال بالكلية، وقد سئل النبي ﷺ عن هذا مرات، فأجاب عنه، كما أخرجاه في الصحيحين عن عمران بن حصين قال: «قيل لرسول الله ﷺ: أعلم أهل الجنة من أهل النار؟ قال: نعم: قالوا: ففيم العمل؟ قال: كل ميسر لما خلق له»[1] وفي الصحيحين عن علي بن أبي طالب قال: «كنا في جنازة فيها رسول الله ﷺ، فجلس ومعه مخصرة، فجعل ينكت بالمخصرة في الأرض، ثم رفع رأسه وقال: ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب مكانها من النار أو الجنة، إلا وقد كتبت شقية أو سعيدة. قال

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود-جامع الأصول ١٠/١٠٨.

فقال رجل من القوم: يا نبي الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فمن كان من أهل السعادة ليكونن إلى السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة ليكونن إلى الشقاوة. قال: اعملوا، فكل ميسر لما خلق له: أما أهل السعادة فييسرون للسعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون للشقاوة. ثم قال نبي الله ﷺ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾[1] أخرجه الجماعة في الصحاح والسنن والمسانيد. وروى الترمذي «أن النبي ﷺ سئل فقيل: يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نسترقي بها، وتقى نتقيها، أترد من قدر الله شيئا: فقال: هي من قدر الله»[2] وقد جاء هذا المعنى عن النبي ﷺ في عدة أحاديث: فبين ﷺ أن تقدم العلم والكتاب بالسعيد والشقي لا ينافي أن تكون سعادة هذا بالأعمال الصالحة وشقاوة هذا بالأعمال السيئة، فإنه سبحانه يعلم الأمور على ما هي عليه، وكذلك يكتبها، فهو يعلم أن السعيد يسعد بالأعمال الصالحة، والشقي يشقى بالأعمال السيئة، فمن كان سعيدا ييسر للأعمال الصالحة، والشقي يشقى بالأعمال السيئة، فمن كان للأعمال السيئة التي تقتضي الشقاوة، كلاهما ميسر لما خلق له، وهو ما يصير إليه من مشيئة الله العامة الكونية التي ذكرها الله سبحانه في كتابه في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[3].

وأما ما خلقوا له من محبة الله ورضاه وهو إرادته الدينية وأمره بموجباتها فذلك مذكور في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[4].

ـ الأمر الديني والأمر الكوني:

قلت: يا إمامنا نفهم من قولكم هذا أن مشيئة الله تبارك وتعالى إما أن تكون دينية أو كونية، وهذا ما نحن بحاجة إلى مزيد بيان فيه لو تكرم شيخنا.

---

(١) مختصر صحيح مسلم ١٨٤٤ والآية من سورة الليل رقم (٥).

(٢) أخرجه الترمذي وحسنه،جامع الأصول ٧/٥٥٤.

(٣) سورة هود الآية ١١٨.

(٤) سورة الذاريات آية ٥٦.

قال الإمام: اعلموا وفقكم الله: أن الله سبحانه قد بين في كتابه في كل واحدة من الكلمات والأمر والارادة والاذن والكتاب والحكم والقضاء والتحريم ونحو ذلك مما هو ديني موافقته لمحبة الله ورضاه وأمره الشرعي، وما هو كوني موافقته لمشيئته الكونية.

مثال ذلك أنه قال في الأمر الديني: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[2] ونحو ذلك.

وقال في الكوني: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[3] وكذلك قوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾[4] على أحد الأقوال في هذه الآية. وقال في الإرادة الدينية: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[5] ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[6] ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾[7]

وقال في الارادات الكونية: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[8] وقال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[9] وقال نوح عليه السلام: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾[10] وقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[11]، وقال في الإذن الديني: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[12]، وقال في الكوني: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا

---

(١) سورة النحل آية ٩٠.
(٢) سورة النساء آية ٥٨.
(٣) سورة يس آية ٨٢.
(٤) سورة الإسراء آية ١٦.
(٥) سورة البقرة آية ١٨٥.
(٦) سورة النساء آية ٢٦.
(٧) سورة المائدة آية ٦.
(٨) سورة البقرة آية ٢٥٣.
(٩) سورة الأنعام آية ١٢٥.
(١٠) سورة هود آية ٣٤.
(١١) سورة يس آية ٨٢.
(١٢) سورة الحشر آية ٥.

﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[1] وقال في القضاء الديني: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[2] أي أمر، وقال في الكوني: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾[3]، وقال في الحكم الديني: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾[4] وقال: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾[5] وقال في الكوني عن ابن يعقوب: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[6] وقال: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[7] وقال في التحريم الديني: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾[8] ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾[9] الآية، وقال في التحريم الكوني: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[10] وقال في الكلمات الدينية: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾[11] وقال في الكونية: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾[12]. ومنه قوله ﷺ المستفيض عنه من وجوه في الصحاح والسنن والمسانيد أنه كان يقول «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر»[13] ومن المعلوم أن هذا هو الكوني الذي لا يخرج منه شيء عن مشيئته وتكوينه، وأما الكلمات الدينية فقد خالفها الكفار بمعصيته.

والمقصود هنا أنه ﷺ بين أن العواقب التي خلق لها الناس سعادة وشقاوة ييسرون

---

(١) سوره البقرة آية ١٠٢.
(٢) سورة الاسراء آية ٢٣.
(٣) سورة فصلت آية ١٢.
(٤) سورة المائدة آية ١.
(٥) سورة الممتحنة آية ١٠.
(٦) سورة يوسف آية ٨٠.
(٧) سورة الأنبياء آية ١١٢.
(٨) سورة المائدة آية ٣.
(٩) سورة النساء آية ٢٣.
(١٠) سورة المائدة آية ٢٦.
(١١) سورة البقرة آية ١٢٤.
(١٢) سورة الأعراف آية ١٣٧.
١٣) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/٩٥٠-٩٥١) عن يحيى بن سعيد مرسلا

لها بالأعمال التي يصيرون بها إلى ذلك، كما أن سائر المخلوقات كذلك، فهو سبحانه خلق الولد وسائر الحيوان في الأرحام بما يقدره من اجتماع الأبوين على النكاح واجتماع الماءين في الرحم، فلو قال الإنسان أنا أتوكل ولا أطأ زوجتي، فإن كان قد قضى لي بولد وإلا لم يوجد ولا حاجة إلى وطء، كان أحمق، بخلاف ما إذا وطىء وعزل الماء فإن عزل الماء لا يمنع انعقاد الولد إذا شاء الله، إذ قد يخرج بغير اختياره، وقد ثبت في الصحيح عن أبي سعيد الخدري قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة بني المصطلق، فأصبنا سرايا من العرب. فاشتهينا النساء، واشتدت علينا العزبة وأحببنا العزل، فسألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**ما عليكم ألا تفعلوا، فإن الله قد كتب ما هو خالق إلى يوم القيامة**»[1] وفي صحيح مسلم عن جابر «أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: «إن لي جارية هي خادمتنا وسانيتنا في النخل، وأنا أطوف عليها وأكره أن أتحمل، فقال: اعزل عنها إن شئت فإنه سيأتيها ما قدر لها»[2] وهذا مع أن الله سبحانه قادر على ما قد فعله من خلق الإنسان من غير أبوين كما خلق آدم، ومن خلقه من أب فقط كما خلق حواء من ضلع آدم القصير، ومن خلقه من أم فقط كما خلق المسيح بن مريم عليه السلام، لكن خلق ذلك بأسباب أخرى غير معتادة.

وإلى هنا سكت الشيخ لينهي مجلسه وفي نفسه كثير مما يود أن يقوله في هذا الشأن، فبين الشيخ أن هذا الموضوع يطول شرحه وبيانه، وأنه قد بسطه في مواضع متعددة، وتمنى أن يكون ما ذكره كافيا في بيان المراد، ثم حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله صلوات الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

---

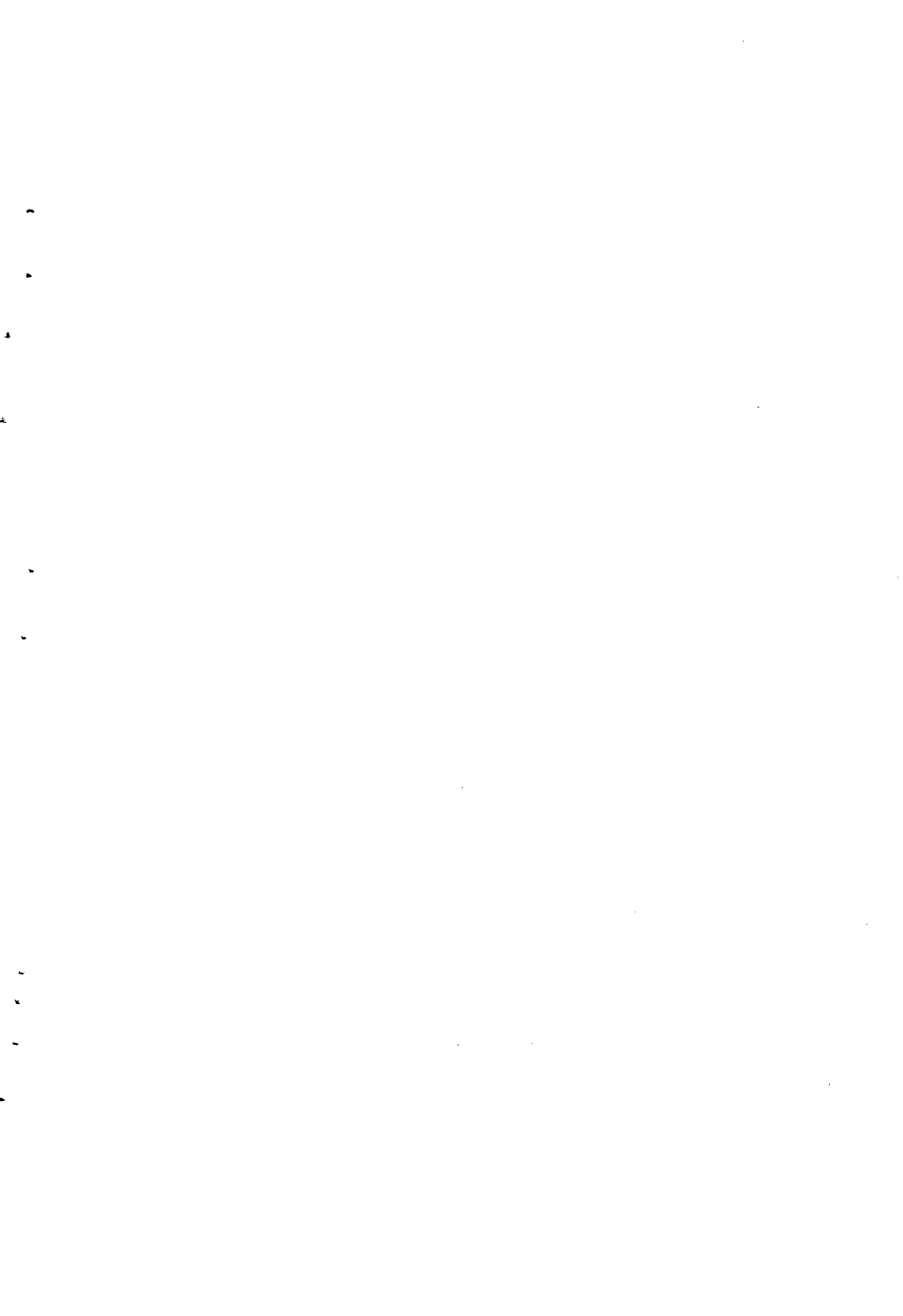
(١) أخرجه الشيخان: أنظر جامع الأصول ١١/٥٢١.
(٢) أخرجه مسلم (١٤٣٩) من حديث جابر.

المجلس الحادي والعشرون



الفناء المحمود

- ليكن توجهك إلى الله بالكلية
- ضرورة الملازمة بين التوكل والعمل بأوامر الله
- انكسار القلب دليل على خلوصه لله
- الحي لا بد له من إرادة
- أنواع الناس بالنسبة للارادة



المجلس الحادي والعشرون
الفناء المحمود

كنا على موعد مع شيخنا الإمام أن يحدثنا في مجلس اليوم عن رأي الشيخ عبد القادر الجيلاني في موضوع «الفناء» الذي كثر فيه القول، وفهم البعض كلام الشيخ عبدالقادر على غير وجهه، وقد رغب شيخ الإسلام أن يفصل بعض الشيء في ذلك لما يحمله ابن تيمية من احترام وتقدير للشيخ عبدالقادر كما سيتبين من خلال شرحه لكلامه.

ولما اكتمل الحضور في مجلس الشيخ على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم من علماء وطلاب علم وعامة، وأخذ الشيخ الإمام موقعه في صدر المجلس بدأ مجلسه بالحمد لله بعد دعاء يعرف من تمتمته وتحرك شفتيه، لعله يدعو الله أن يسدد لسانه، ولا يجعل لنفسه وهواه حظا فيما يقول.

قال الشيخ: الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما أما بعد.

ليكن توجهك إلى الله بالكلية:

فقد قال الشيخ عبدالقادر[1] قدس الله روحه: «إفن عن الخلق بحكم الله، وعن

---

(١) هو عبدالقادر بن موسى بن عبدالله محي الدين الجيلاني أو الكيلاني أو الجيلي، مؤسس الطريقة القادرية من كبار الزهاد والمتصوفين ولد في جيلان وانتقل الى بغداد وطلب العلم، وتصدر للتدريس والافتاء، وله كتب مشهورة مات سنة ٥٦١ هـ الأعلام ٤/ ١٧١.

هواك بأمره، وعن إرادتك بفعله، فحينئذ يصلح أن تكون وعاء لعلم الله.

قلت: ـ والكلام هنا لشيخ الإسلام ـ فحكمه يتناول خلقه وأمره أي: إفن عن عبادة الخلق والتوكل عليهم بعبادة الله والتوكل عليه، فلا تطعهم في معصية الله تعالى ولا تتعلق بهم في جلب منفعة ولا دفع مضرة. وأما الفناء عن الهوى بالأمر وعن الإرادة بالفعل بأن يكون فعله موافقا للأمر الشرعي لا لهواه، وأن تكون إرادته لما يخلق تابعة لفعل الله لا لإرادة نفسه. فالإرادة تارة تتعلق بفعل نفسه وتارة بالمخلوقات.

فالأول يكون بالأمر و الثاني لا تكون له إرادة. ولا بد في هذا أن يقيد بألا تكون له إرادة لم يؤمر بها وإلا فإذا أمر بأن يريد من المقدورات شيئا دون شيء فليرد ما أمر بإرادته سواء كان موافقا للقدر أم لا. وهذا الموضع قد يغلط فيه طائفة من السالكين.

والغالب على الصادقين منهم أنهم لم يعرفوا الإرادة الشرعية في ذلك المعين وهم ليس لهم إرادة نفسانية فتركوا إرادتهم لغير المقدور.

قال الشيخ: «فعلامة فنائك عن خلق الله انقطاعك عنهم وعن التردد إليهم واليأس مما في أيديهم». وهو كما قال. ضرورة الملازمة بين التوكل والعمل بأوامر الله.

ضرورة الملازمة بين التوكل والعمل بأوامر الله

ثم سكت الشيخ قليلا لعل مخالفا يستفصل في موافقة الشيخ لكلام عبدالقادر، فقلت: يا إمامنا وافقتم الشيخ عبدالقادر فيما قال: فما وجه أو توجيه الموافقة؟

قال الإمام: وجهه أنه إذا كان القلب لا يرجوهم، ولا يخافهم، لم يتردد إليهم لطلب شيء منهم وهذا يشبه بما يكون مأمورا به من المشي إليهم لأمرهم بما أمر الله به. ونهيهم عما نهاهم الله عنه، كذهاب الرسل، واتباع الرسل إلى من يبلغون رسالات الله، فإن التوكل إنما يصح مع القيام بما أمر به العبد. ليكون عابدا لله متوكلا عليه، وإلا فمن توكل عليه ولم يفعل ما أمر به؛ فقد يكون ما أضاعه من الأمر أولى به مما قام به من التوكل، أو مثله أو دونه، كما أن من قام بأمر ولم يتوكل عليه ولم يستعن به فلم يقم بالواجب؛ بل قد يكون ما تركه من التوكل والاستعانة أولى به مما فعله من الأمر أو مثله أو دونه.

قال الشيخ: «وعلامة فنائك عنك وعن هواك: ترك التكسب، والتعلق بالسبب في جلب النفع ودفع الضر، فلا تتحرك فيك بك ولا تعتمد عليك لك ولا تنصر نفسك، ولا تذب عنك، لكن تكل ذلك كله إلى من تولاه أولا فيتولاه آخرا. كما كان ذلك موكولا إليه في حال كونك مغيبا في الرحم، وكونك رضيعا طفلا في مهدك».

قلت: ـ والكلام لشيخ الإسلام ـ وهذا لأن النفس تهوى وجود ما تحبه وينفعها ودفع ما تبغضه ويضرها، فإذا فنى عن ذاك بالأمر، فعل ما يحبه الله وترك ما يبغضه الله، فاعتاض بفعل محبوب الله عن محبوبه وبترك ما يبغضه الله عما يبغضه وحينئذ فالنفس لابد لها من جلب المنفعة ودفع المضرة، فيكون في ذلك متوكلا على الله.

و الشيخ رحمه الله، ذكر هنا التوكل دون الطاعة؛ لأن النفس لا بد لها من جلب المنفعة ودفع المضرة، فإن لم تكن متوكلة على الله في ذلك واثقة به لم يمكن أن تنصرف عن ذلك فتمتثل الأمر مطلقا؛ بل لا بد أن تعصي الأمر في جلب المنفعة ودفع المضرة فلا تصح العبادة لله وطاعة أمره بدون التوكل عليه، كما أن التوكل عليه لا يصح بدون عبادته وطاعته. قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾[3].

والمقصود أن امتثال الأمر على الإطلاق لا يصح بدون التوكل والاستعانة، ومن كان واثقا بالله أن يجلب له منفعة ويدفع عنه ما يضره أمكن أن يدع هواه ويطيع أمره، وإلا فنفسه لا تدعه أن يترك ما يقول إنه محتاج فيه إلى غيره.

انكسار القلب دليل على خلوصه لله:

قال الشيخ ـ رضي الله عنه: ـ «وعلامة فناء إرادتك بفعل الله أنك لا تريد مرادا

---

(١) سورة هود آية ١٢٣.

(٢) سورة الطلاق آية ٢، ٣.

(٣) سورة المزمل ٨، ٩.

قط، فلا يكن لك غرض، ولا تقف لك حاجة ولا مرام؛ لأنك لا تريد مع إرادة الله سواها، بل يجري فعله فيك فتكون أنت إرادة الله تعالى وفعله، ساكن الجوارح مطمئن الجنان، مشروح الصدر، منور الوجه، عامر الباطن، غنيا عن الأشياء بخالقها، تقلبك يد القدرة ويدعوك لسان الأزل، ويعلمك رب الملك ويكسوك نورا منه والحلل، وينزلك منازل من سلف من أولي العلم الأول، فتكون منكسرا أبدا».

فلا تثبت فيك شهوة ولا إرادة: كالإناء المتثلم - الذي لا يثبت فيه مائع ولا كدر فتفنى[1] عن أخلاق البشرية، فلن يقبل باطنك ساكنا غير إرادة الله، فحينئذ يضاف إليك التكوين وخرق العادات فيرى ذلك منك في ظاهر العقل والحكم، وهو فعل الله تبارك وتعالى حقا في العلم، فتدخل حينئذ في زمرة المنكسرة قلوبهم الذين كسرت إرادتهم البشرية، وأزيلت شهواتهم الطبيعية واستوثقت لهم إرادات ربانية وشهوات إضافية.
كما قال النبي ﷺ: «**حبب إلي من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة**»[2] فأضيف ذلك إليه بعد أن خرج منه وزال عنه تحقيقا لما أشرت إليه وتقدم، قال الله تعالى: «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي»، وساق كلامه. وفيه: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل»[3] الحديث.

الحي لا بد له من إرادة:

ثم قال الإمام: لا شك يا أحبائي أنكم متشوقون لفهم كلام الشيخ عبدالقادر، ورأيي فيه. قلت: نعم يا شيخنا، خصوصا وأننا فهمنا من ظاهر كلامه أنه يغفل الإرادة عن العبد مطلقا وهذا إن صح غير مسلم.
قال الإمام: أنا أبين لكم هذا الاستشكال فأقول: هذا المقام هو آخر ما يشير إليه الشيخ عبدالقادر - رضي الله عنه - وحقيقته أنه لا يريد كون شيء إلا أن يكون مأمورا بإرادته، فقوله: علامة فناء إرادتك بفعل الله أنك لا تريد مرادا قط. أي لا تريد مرادا

(١) في الأصل «فتفنوا».
(٢) أخرجه أحمد والنسائي وإسناده حسن. جامع الأصول ٤/٧٦٦.
(٣) سبق تخريجه ص

لم تؤمر بإرادته، فأما ما أمرك الله ورسوله بإرادتك إياه، فإرادته إما واجب وإما مستحب، وترك إرادة هذا إما معصية وإما نقص.

وهذا الموضع يلتبس على كثير من السالكين، فيظنون أن الطريقة الكاملة ألا يكون للعبد إرادة أصلا، وإن قول أبي يزيد: «أريد ألا أريد» ـ لما قيل له: ماذا تريد؟ نقص وتناقض؛ لأنه قد أراد، ويحملون كلام المشائخ الذين يمدحون بترك الإرادة مطلقا، فإن هذا غلط ممن قاله؛ فإن ذلك ليس بمقدور ولا مأمور.

فإن الحي لا بد له من إرادة، فلا يمكن حيا ألا تكون له إرادة، فإن الإرادة التي يحبها الله ورسوله ويأمر بها أمر إيجاب أو أمر استحباب لا يدعها إلا كافر أو فاسق أو عاص إن كانت واجبة، وإن كانت مستحبة كان تاركها تاركا لما هو خير له.

والله تعالى قد وصف الأنبياء والصديقين بهذه «الإرادة» فقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[2] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[4] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[5] وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[6] وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾[7] وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[8] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[9]

---

(١) سورة الأنعام آية ٥٢.
(٢) سورة الليل آية ١٩، ٢٠.
(٣) سورة الانسان آية ٩.
(٤) سورة الأحزاب آية ٢٩.
(٥) سورة الاسراء آية ١٩.
(٦) سورة الزمر آية ٢، ٣.
(٧) سورة الزمر آية ١٤.
(٨) سورة النساء آية ٣٦.
(٩) سورة الذاريات آية ٥٦.

ولا عبادة إلا بإرادة الله، ولما أمر به. قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[1] أي أخلص قصده لله. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[2] وإخلاص الدين له هو إرادته وحده بالعبادة. وقال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[4] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[5]. وكل محب فهو مريد. وقال الخليل عليه السلام: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾[6] ثم قال: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[7]

ومثل هذا كثير في القرآن؛ يأمر الله بإرادته، وإرادة ما يأمر به، وينهى عن إرادة غيره، وإرادة ما نهى عنه، وقد قال النبي ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»[8] فهما إرادتان: إرادة يحبها الله ويرضاها، وإرادة لا يحبها الله ولا يرضاها، بل إما نهى عنها، وإما لم يأمر بها، ولا ينهى عنها.

أنواع الناس بالنسبة للارادة:

قلت: إذن الناس في الارادة أقسام مختلفة، لكن لكل منهم إرادة.

قال الإمام: الناس في الإرادة ثلاثة أقسام:

قوم يريدون ما يهوونه، فهؤلاء عبيد أنفسهم والشيطان، وقوم يزعمون أنهم فرغوا من

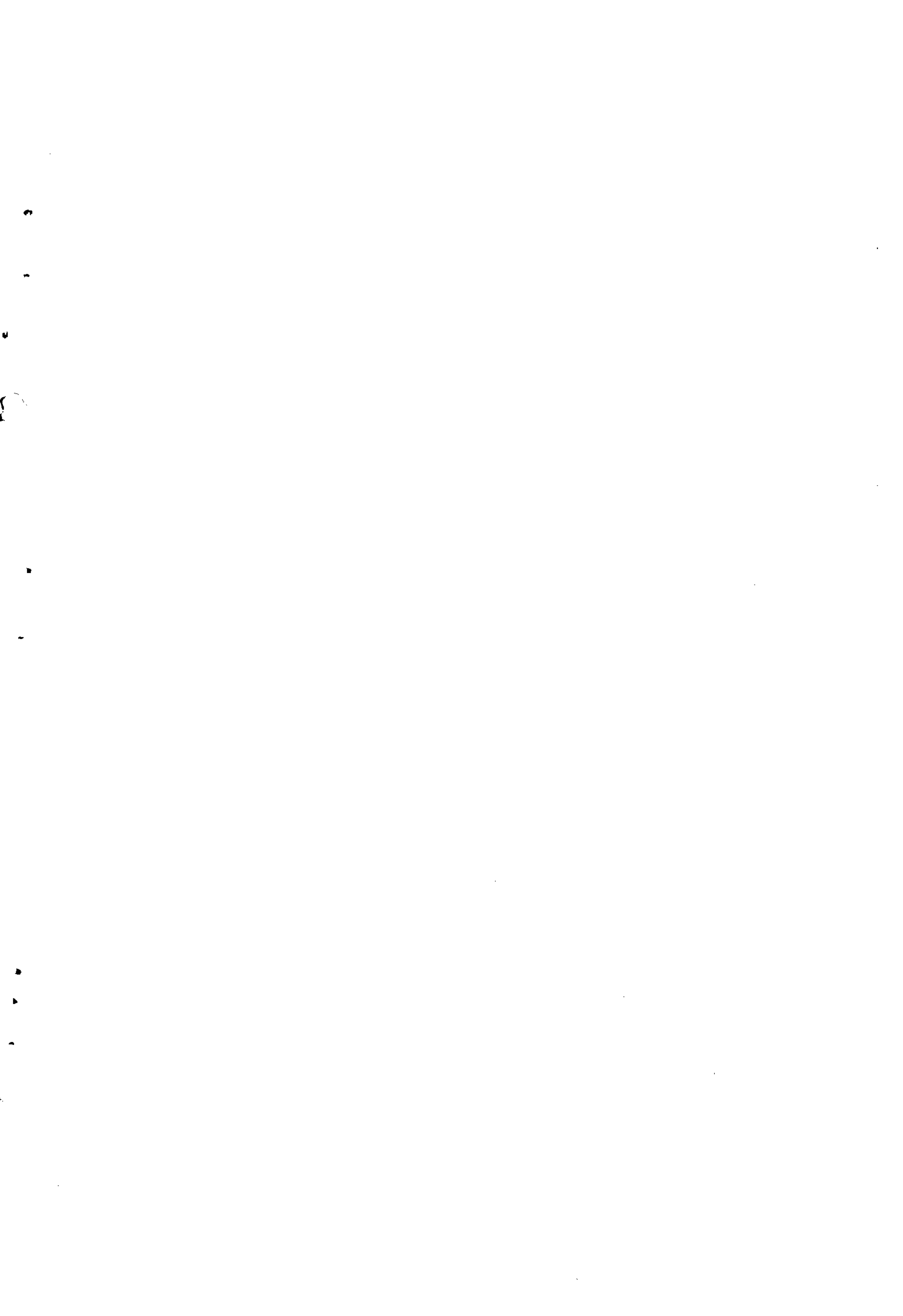
---

(١) سورة البقرة آية ١١٢.
(٢) سورة البينة آية ٥.
(٣) سورة المائدة آية ٥٤.
(٤) سورة البقرة آية ١٦٥.
(٥) سورة آل عمران آية ٣١.
(٦) سورة الأنعام آية ٧٦.
(٧) سورة الأنعام ٧٩.
(٨) مختصر صحيح البخاري رقم ١

الإرادة مطلقا، ولم يبق لهم مراد إلا ما يقدره الرب، وأن هذا المقام هو أكمل المقامات. ويزعمون أن من قام بهذا فقد قام بالحقيقة، وهي الحقيقة القدرية الكونية؛ وأنه شهد القيومية العامة، ويجعلون الفناء في شهود توحيد الربوبية، هو الغاية؛ وقد يسمون هذا: الجمع والفناء والاصطلام، ونحو ذلك وكثير من الشيوخ زلقوا في هذا الموضع.

وفي هذا المقام كان النزاع بين الجنيد بن محمد وبين طائفة من أصحابه الصوفية؛ فإنهم اتفقوا على شهود توحيد الربوبية، وأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه، وهو شهود القدر؛ وسموا هذا مقام الجمع. فإنه خرج به عن الفرق الأول وهو الفرق الطبيعي بإرادة هذا وكراهة هذا، ورؤية فعل هذا وترك هذا، فإن الإنسان قبل أن يشهد هذا التوحيد يرى للخلق فعلا يتفرق به قلبه في شهود أفعال المخلوقات؛ ويكون متبعا لهواه فيما يريده، فإذا أراد الحق خرج بإرادته عن إرادة الهوى والطبع، ثم شهد أنه خالق كل شيء، فخرج بشهود هذا الجمع عن ذاك الفرق فلما اتفقوا على هذا ذكر لهم الجنيد بن محمد الفرق الثاني وهو بعد هذا الجمع، وهو الفرق الشرعي. ألا ترى أنك تريد ما أمرت به، ولا تريد ما نهيت عنه؟! وتشهد أن الله يستحق العبادة دون ما سواه، وأن عبادته هي بطاعة رسله، فتفرق بين المأمور والمحظور، وبين أوليائه وأعدائه، وتشهد توحيد الألوهية، فنازعوه في هذا الفرق..

وإلى هنا كانت نهاية مجالس الشيخ الإمام المجتهد ابن تيمية خصصها لأمراض القلوب وعلاجها فبسط فيه الكلام والأسلوب البديع غاية التبسيط، وتغلغل قوله في القلوب حتى تشربتها، فارتوت بها القلوب السليمة وسعدت بها، وصح من القلوب المريضة من تفاعل مع العلاج الإيماني الناجع، وبقيت قلوب على مرضها رغم ذلك. هذا خلق الله وهذه سنته في الخلق.



فهرس الموضوعات

شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية

المبحث الأول
أمراض القلوب

المجلس الأول
أمراض القلوب

المجلس الثاني
الشهوة والهوى أمراض تعمي القلب

المجلس الثالث
الشهوة قد تغمر القلب فتهزمه

المجلس الرابع
البخل والهوى والعشق

المجلس الخامس
الحسد والغبطة

المجلس السادس
الحسد المذموم كله

المجلس السابع
الرق رق القلب واستعباده

المجلس الثامن
لذة القلب وألمه أشد من لذة الجسم وألمه

المبحث الثاني
شفاء القلوب

المجلس التاسع
أدوية شفاء القلوب

المجلس العاشر
حياة القلب

المجلس الحادي عشر
القلوب في حاجة دائمة إلى الهداية

المجلس الثاني عشر
القلب المتعلق بحب الله

المجلس الثالث عشر
رجاء القلب لله أمن ونجاة

المجلس الرابع عشر
حياة القلب بالإخلاص والفناء

المجلس الخامس عشر
محبة القلب لله ورسوله أصل كل عمل مقبول

المجلس السادس عشر
محبة القلب وخلته

المجلس السابع عشر
زكاة النفس فلاح

المجلس الثامن عشر
جاذبية الحب

المجلس التاسع عشر
أعمال القلوب

المجلس العشرون
الناس كلهم مطالبون بأعمال القلوب

المجلس الحادي والعشرون
الفناء المحمود